التحرش الأخلاقي

العنف اليومي الفاسد

ماري - فرانس هيريجويان

ترجمة
سهيل حمد أبو فخر

دار علاء الدين

Marie-France Hirigoyen

Le harcèlement moral

La violence perverse au quotidien

- التحرش الأخلاقي.

العنف اليومي الفاسد.

- تأليف: ماري- فرانس هيريجويان.
- ترجمة: سهيل حمد ابو فخر.
- الطبعة الأولى ٢٠٠٦.
- عدد النسخ /١٠٠٠/ نسخة.
- جميع الحقوق محفوظة لدار علاء الدين.
- تمت الطباعة في دار علاء الدين للنشر.
- هيئة التحرير في دار علاء الدين:
  - الإدارة والإشراف العام: م. زويا ميخائيلينكو.
  - التدقيق اللغوي: صالح جاد الله شقير.
  - الغلاف: أمل كمال البقاعي.
  - المتابعة الفنية والإخراج:

    أسامة راشد رحمـة.

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص.ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١، فاكس: ٥٦١٣٢٤١

البريد الإلكتروني: ala-addin@mail.sy

مقدمة

ماذا فعلت لأستحق مثل هذا العقاب؟
«يمكننا أن نقتل أو نذل بالكلمة المناسبة
من دون أن نلطخ أيدينا.
إن إحدى أكبر ملذات الحياة تكمن في
إذلال نظرائنا».

بيير دبروج

هنالك في الحياة مصادفات محفّزة تدفعنا لأن نعطي أفضل ما لدينا، وهنالك أيضاً مصادفات تزرع فينا ألغاماً قد تفضي إلى تدميرنا، إذ يمكن لفرد أن ينجح بتدمير آخر بانتهاج التحرش الأخلاقي. وقد يحصل أن تصل شدّته إلى إعدام نفسي حقيقي. لقد كنا جميعاً شهوداً على تعدّيات فاسدة على صعيد أو آخر، سواء أكان ذلك في الحياة الزوجية أم الأسرية أم في المؤسسات أو حتى في الحياة السياسية والاجتماعية. ومع ذلك فإن مجتمعنا يتعامى عن هذا الشكل من العنف غير المباشر، فيصبح متواطئاً بحجة التسامح.

وقد شكلت أضرار الفساد الأخلاقي موضوعات ممتازة لأفلام (مثل فيلم الشياطين لـ «هنري جورج كلوزو»، ١٩٥٤) أو لروايات الجريمة، وفي هذه الحالة يتضح في ذهن الجمهور أن الأمر يتعلق بتلاعب فاسد، ولكننا في الحياة اليومية لا نجرؤ على الحديث عن الفساد.

ونحن نلهو في فيلم «إتيان شاتيلييه» «العمة دانيال» (١٩٩٠) بالتشكيل المعنوي الذي توجهه سيدة عجوز إلى محيطها. فهي تبدأ بتعذيب خادمتها العجوز بشدة لدرجة قتلها «بالمصادفة»، فيقول المشاهد في نفسه: «حسن ما حصل لها، لأنها أفرطت في الإذعان!». ثم راحت تصب أذاها على أسرة ابن أخيها التي استقبلتها. لقد قام ابن أخيها وزوجته بكل ما في وسعهما لإغداقها بالعطايا، لكنها كانت تزيد انتقامها كلما ازداد عطاؤهما.

وهي تستخدم في ذلك عدداً من التقنيات المزعزعة المألوفة لدى الفاسدين: التضمينات والتلميحات العدوانية والكذب والإهانات. ونحن نندهش لأن الضحايا لم

يستوعبوا هذا التلاعب الخبيث، فهم يحاولون أن يفهموا. ويشعرون أنهم المسؤولون: «ماذا فعلنا كي تكرهنا إلى هذا القدر؟». و «العمة دانيال» لا تستشيط غضباً، فهي باردة وخبيثة فحسب، وليس بطريقة ظاهرة قد تقلب محيطها عليها، لا بل بلمسات مزعزعة صغيرة يصعب كشفها. و «العمة دانيال» قوية جداً: فهي تقلب الموقف إذ تضع نفسها في موقع الضحية وتضع أفراد أسرتها في موقع المضطهدين الذين تركوا امرأة عجوزاً عمرها اثنان وثمانون عاماً وحيدة حبيسة في شقة مع طعام يكاد لا يكفي كلباً.

وفي هذا النموذج السينمائي المفعم بالفكاهة، لا تكون ردة فعل الضحايا عنيفة كما قد يحصل في الحياة العادية، فهم يأملون بالتوصل إلى أن يجد لطفهم صداه فيتلطف المعتدي عليهم. وما يحصل هو العكس من ذلك تماماً، إذ يشكل الإفراط في اللطف بالنسبة للمعتدي تحريضاً لا يطاق. وفي نهاية المطاف، فإن الشخصية الوحيدة التي تستحق الرحمة في نظر «العمة دانيال» هي قادمة جديدة «تتغلب» عليها. لقد وجدت شريكة من مستواها أخيراً، فنشأت بينهما علاقة شبه ودية.

وإذا كانت هذه المرأة العجوز تسلينا وتؤثر فينا لهذه الدرجة، فلأننا نشعر أن هذا المقدار من الخبث لا يمكن أن ينجم إلا عن معاناة كبيرة. فهي تثير الشفقة فينا مثلما تثير الشفقة في أسرتها، وبناء عليه فهي تتلاعب بنا كما تتلاعب بأسرتها. ونحن، المشاهدين، ليس لدينا أيّ شفقة إزاء الضحية المسكينة التي تبدو غبية، فـ «العمة دانيال» تصبح أكثر خبثاً كلما يصبح شركاؤها في الأسرة أكثر لطفاً، مما يجعلها لا تطيقهم كما لا نطيقهم نحن أيضاً.

والصحيح أنها تعديات فاسدة، وهذه الاعتداءات تنجم عن سلوك تدمير سيكولوجي لا واع مكون من تصرفات عدوانية واضحة أو مستورة يقوم بها فرد أو مجموعة أفراد إزاء فرد معين يكون كبش المحرقة بكل معنى الكلمة. فمن الممكن فعلياً عبر كلمات غير مؤذية ظاهرياً وعبر تلميحات وإيحاءات وسكوتات، أن نزعزع إنساناً ما أو نحطمه من دون أن يتدخل المحيط. وهكذا يستطيع المعتدي، أو المعتدون، أن يكبر عبر تحقير الآخر، وأن يتفادى أي صراع داخلي أو أي إحساس نفسي، فيقوم بتحميل الآخر مسؤولية الخلل. «لست أنا، بل الآخر هو المسؤول عن المشكلة!»، فلا إثم ولا ألم. إن هذا هو الفساد بمعنى الفساد الأخلاقي.

يمكن لكل منا أن ينتهج سلوكاً فاسداً من وقت لآخر. لكنه لا يصبح مدمراً إلا عبر التواتر والتكرار في الزمن. إن كل فرد «عصابي عادة» يقوم بتصرفات فاسدة في بعض اللحظات كلحظة الغضب مثلاً، لكنه قادر أيضاً على أن ينتقل لأنماط سلوكية أخرى (هستيرية، رهابية، وسواسية، ..)، ويتبع تصرفاته الفاسدة بمساءلة ذاتية. في حين أن الفرد الفاسد فاسد دوماً، وثابت في هذه الصورة من العلاقة مع الآخر، فهو لا يسائل نفسه في أيّ لحظة. وإذا كان فساده لا يظهر في وقت معين، غير أنه سوف يتضح في كل موقف يتوجب عليه الالتزام بالاعتراف بحصته من المسؤولية، إذ يستحيل عليه أن يسائل نفسه. هؤلاء الأفراد لا يمكنهم أن يكونوا موجودين إلا «بتحطيم» أحد ما: إنهم بحاجة لتحقير الآخرين كي يكتسبوا تقديراً ذاتياً عالياً وصولاً إلى اكتساب السلطة، لأنهم شرهون متلهفون للإعجاب والاستحسان. وليس لديهم رأفة ولا احترام للآخرين، لأنهم ليسوا معنيين في العلاقة معهم. فأن نحترم الآخر يعني أن نعتبره كائناً بشرياً وأن نعترف بالألم الذي نسببه له.

إن الفساد يسحرنا ويغوينا ويخيفنا، فنحن نميل إلى الأفراد الفاسدين أحياناً، لأننا نتصورهم يتمتعون بقوة فائقة تتيح لهم أن يكونوا منتصرين دوماً. وفي واقع الأمر أنهم يجيدون التلاعب طبعاً، وهذا ما يبدو ورقة رابحة في عالم الأعمال والسياسة. ونحن نخاف منهم أيضاً لأننا نعلم بصورة عفوية أنه من الأفضل أن نكون معهم لا عليهم. إنه قانون الأقوى. فالأكثر إثارة للإعجاب هو من يعرف أن يستمتع إلى أقصى درجة وأن يتألم إلى أدنى درجة. وفي جميع الأحوال لا نعير انتباهنا لضحاياه الذين نعتبرهم ضعفاء أو أغبياء، وقد نُنجرُ للتعامي عن مواقف خطيرة بحجة احترام حرية الآخرين. وبالفعل هنالك تسامح حالي يقوم على الامتناع عن التدخل في أفعال الأشخاص الآخرين وآرائهم ولو كانت هذه الأفعال والآراء تبدو لنا كريهة أو مذمومة أخلاقياً. كما أن لدينا تساهلاً كبيراً بشأن أكاذيب رجالات السلطة وألاعيبهم، فالغاية تبرر الوسيلة، ولكن إلى متى يظل هذا مقبولاً؟ ألسنا بذلك نجازف بأن نجد أنفسنا متواطئين عبر لا مبالاتنا وإضاعتنا لحدودنا ومبادئنا؟ إن التسامح يمر بالضرورة عبر تعيين حدود واضحة بدقة. وبناء عليه فإن هذا النوع من العدوان يقوم بالضبط على التطاول على المجال النفسي للآخرين. والسياق الاجتماعي الثقافي الحالي يتيح للفساد أن ينمو نظراً للتسامح معه. إن عصرنا يرفض إقامة الضوابط،

فكأن وضع حد يعرف التلاعب الفاسد يمثل جنوحاً نحو الرقابة. لقد أضعنا الحدود الأخلاقية أو الدينية التي كانت تشكل نوعاً من قانون أدبي، والتي كان بإمكانها أن تجعلنا نقول: «هذا لا يجوز!»، فأصبحنا لا نعبر عن سخطنا إلا عندما تظهر الوقائع على الملأ، حين تتداولها وسائل الإعلام وتقوم بتضخيمها. أما السلطة فهي لا تضع إطاراً وتتملص من مسؤولياتها عن الناس الذين يفترض أنها توجههم وتساعدهم.

والأطباء النفسانيون أنفسهم يترددون في تسمية الفساد، وحين يسمونه فلكي يعبروا عن عجزهم عن التدخل، أو لكي يظهروا فضولهم أمام مهارة المتلاعب. حتى أن البعض يرفضون تعريف الفساد الأخلاقي ويفضلون الحديث عن «السيكوياتية» وكأنها سلة مهملات كبيرة يضعون فيها كل ما لا يستطيعون معالجته. إن الفساد لا ينجم عن اضطراب عقلي بل عن تعقل بارد ممزوج بعدم القدرة على اعتبار الآخرين كائنات بشرية. وإن عدداً من الفاسدين يقترفون أفعالاً جنائية يحاكمون عليها، ولكن معظمهم يلجؤون إلى سحرهم ومواهبهم في التكيف ليشقوا طريقهم في المجتمع تاركين خلفهم أشخاصاً مجروحين أو محطمين. ولقد وقعنا جميعنا، نحن الأطباء النفسانيين والقضاة والتربويين، في شرك الفاسدين الذين يتظاهرون بأنهم ضحايا. وما إن يظهروا على حقيقتهم، حين يكشفون عن أهدافهم السلطوية حتى نشعر بأننا مخدوعون ومهزّؤون وحتى مهانون أحياناً. وهذا ما يفسر حرص المهنيين على كشفهم، فالأطباء النفسانيون يقولون فيما بينهم: «انتبه! هذا فاسد!»، مما يعني «هذا خطير» ويعني أيضاً «نحن لا نقدر عليه». وهكذا نتراجع عن مساعدة الضحايا. إن تسمية الفساد أمر خطير طبعاً، فنحن ندّخر هذه العبارة على الأغلب لأفعال فظيعة جداً لا يتصورها حتى الأطباء النفسانيون مثل أحداث القتل بالجملة. ومع ذلك، وسواء استحضرنا الاعتداءات الذكية التي سأتحدث عنها في هذا الكتاب أو تحدثنا عن القتل بالجملة، فالأمر يتعلق بعملية «سطو» أي بفعل يقوم على الاستحواذ على الحياة. إن كلمة فاسد تصدم وتشوّش وهي تتطابق مع حكم تقويمي، والمحللون النفسانيون يرفضون إطلاق الأحكام التقويمية. إلا أنه ينبغي عليهم أن يقبلوا كل شيء في هذه الحالة؟ إن عدم تسمية الفساد فعل أشد خطراً لأننا نكون قد تركنا الضحية عزلاء معتدى عليها وقابلة للاعتداء بلا رحمة.

وبصفتي معالجة نفسانية فقد حصل لي أثناء المعاينة السريرية أن سمعت الضحايا يعبرون عن معاناتهم وعجزهم عن الدفاع. وسوف أُظهر في هذا الكتاب أن أول فعل

لأولئك «النهّابين» يقوم على شل ضحاياهم بغية منعهم من أن يدافعوا عن أنفسهم. ثم وإن كان الضحايا يحاولون أن يفهموا ما يحصل لهم، فهم لا يملكون الأدوات اللازمة للقيام بذلك. كما أنني سوف أحاول، عبر تحليل لغة الفاسدين، تفكيك السياق الذي يربط المعتدي بالمعتدى عليه، بغية مساعدة الضحايا الحاليين أو المستقبليين على الخروج من شباك المعتدي. فقد يحصل أن لا يجد الضحايا آذاناً صاغية عندما يعقدون العزم على طلب المساعدة. وليس من النادر أن يشير المحللون إلى الضحايا الذين تعرَّضوا لهجوم فاسد مفاجئ أن يفتشوا عما يثبت مسؤوليتهم هم عن العدوان الذي تعرَّضوا إليه وعما يثبت رغبتهم فيه حتى لو كان ذلك بصورة لا واعية. وفي واقع الأمر فإن التحليل النفساني ينظر إلى «الحياة النفسية الداخلية» فقط، أي إلى ما يدور في خلد الفرد، ولا يأخذ البيئة بالحسبان: إنه يتجاهل المشكلة إذن فينظر إليها على أنها تواطؤ مازوخي. وعندما يحاول المعالجون النفسانيون مساعدة الضحايا، فربما أنهم يعززون الشعور بالذنب لدى الضحية، ويفاقمون مسار الدمار، عبر تحفظهم على إطلاق اسم المعتدي والمعتدى عليه. يبدو لي أن الطرق العلاجية التقليدية ليست كافية لمساعدة هذا النوع من الضحايا. سوف أقترح إذن أدوات أكثر ملاءمةً تأخذ بالحسبان خصوصية العدوان الفاسد.

وليس المقصود من ذلك أن ندين الفاسدين - فهم يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم - بل أن نأخذ بالحسبان ضررهم وخطورتهم على الآخرين بغية السماح للضحايا الحاليين أو المستقبليين أن يدافعوا عن أنفسهم بشكل أفضل. ولكن لو نظرنا، بإنصاف كبير، إلى الفساد على أنه استعداد دفاعي (دفاع ضد الذهان والاكتئاب)، فإن ذلك لا يعذر الفاسدين. فهناك تلاعبات تافهة تترك أثرها في الضحية بشعور المرارة والخجل من التعرض للانخداع، بيد أن هناك تلاعبات أشد خطورة أيضاً تصيب الضحية في الصميم فتكون المسألة مسألة حياة أو موت. يجب أن نعرف أن الفاسدين خطيرون بصورة مباشرة على ضحاياهم وغير مباشرة على المحيط إذ يفقدونه نقاط العلاّم ويجعلونه يعتقد بإمكانية الوصول إلى صيغة تفكير أكثر تحرراً على حساب الآخرين.

وسوف أحرص في هذا الكتاب على أن أضع نفسي إلى جانب الضحية بصفتي اختصاصية في علم الضحية، بعيداً عن النقاشات النظرية حول طبيعة الفساد. وعلم الضحية دراسة حديثة نشأت في الولايات المتحدة، ولم تكن في بدايتها سوى فرع من

علم الجريمة، وتقوم هذه الدراسة على تحليل الأسباب التي تقود الفرد لأن يصبح ضحية، وعلى تحليل سياقات هذه الصيرورة، والنتائج التي تجعله يتوصل إليها، والحقوق التي يمكنه أن يطالب بها. وفي فرنسا تم في هذا المجال إنشاء إعداد علمي يتوج بشهادة جامعية منذ عام ١٩٩٤. ويتوجه هذا الإعداد إلى أطباء الإسعاف والأطباء والمعالجين النفسانيين ورجال القضاء كما يتوجه لكل شخص تتطلب مسؤوليته المهنية مساعدة الضحايا. إن الشخص الذي تعرض لاعتداء نفسي من قبيل التحرش الأخلاقي هو ضحية فعلاً، لأن نفسه تعرضت للتخريب بصورة دائمة تقريباً. ولو كانت طريقته في الرد على الاعتداء المعنوي يمكن أن تساهم في إقامة علاقة مع المعتدي، علاقة تقوم بذاتها، وتعطي انطباعاً بأنها «متوازنة»، فيجب ألا ننسى أن هذه الشخصية تعاني من وضع ليست هي المسؤولة عنه. وإذا كان ضحايا هذا العنف الماكر يلجؤون إلى الاستشارة النفسية بصورة فردية، فذلك بسبب التثبيط الذهني ونقص الثقة بالنفس وصعوبة توكيد الذات أو بسبب حالة اكتئاب دائمة استعصت على مضادات الاكتئاب، أو حالة اكتئاب أخرى أشد وضوحاً منها يمكن أن تقود إلى الانتحار. وإذا اشتكى هؤلاء الضحايا أحياناً من شريكهم ومحيطهم، فمن النادر أن يدركوا وجود عنف مرعب خفي، وأن يجرؤوا على أن يشتكوا منه، فالتشويش النفسي الذي حصل لهم يمكن أن ينسيهم، بل أن ينسي المعالج النفسي، بأن الأمر يتعلق بعنف موضوعي. والنقطة المشتركة بين هذه المواقف أنها غير قابلة للوصف: إذ لا تجرؤ الضحية، وهي تتعرف على معاناتها، على أن تتصور بأن هناك عنفاً وعدواناً. ويستمر الشك أحياناً، «أليس من الممكن أن أكون أنا من يخترع كل هذا مثلما يوحي البعض لي؟». وعندما تجرؤ على الشكوى، تشعر بأنها لا تجيد الوصف، وبالتالي لن تجد آذاناً صاغية.

لقد اخترت عمداً أن أستخدم عبارة معتد ومعتدى عليه، لأن الأمر يتعلق بعنف مؤكد ولو كان خفياً، عنف يرمي إلى مهاجمة ذات الآخر وإلى أن يسحب منه كامل شخصيته. إنه سياق دمار معنوي حقيقي يمكن أن يؤدي إلى المرض العقلي أو الانتحار. وسوف ألتزم أيضاً بإطلاق تسمية «الفاسد»، لأنها تعكس بوضوح مفهوم التعسف كما هي حال جميع الفاسدين. وهذا يبدأ بتعسف سلطوي يتبعه تعسف نرجسي، بمعنى أن يفقد الآخر أي تقدير للذات، وقد يفضي إلى تعسف جنسي أحياناً.

الباب الأول

العنف اليومي الفاسد

ثمة أفعال صغيرة فاسدة تحدث يومياً بحيث تبدو كأنها القاعدة، وهي تبدأ بنقص بسيط في الاحترام، وبالكذب والتلاعب. ولا نجد هذه الأفعال غير قابلة للتحمل إلا عندما تصيبنا بصورة مباشرة، ثم تتحول هذه التصرفات إلى تصرفات فاسدة واضحة يكون لها نتائج خطيرة على صحة الضحايا النفسية إذا لم تقم الفئة الاجتماعية التي تظهر فيها بأيّ ردة فعل. وبما أن الضحايا غير واثقين من كونهم سيجدون آذاناً صاغية، نراهم يسكتون ويعانون بصمت.

إن هذا التدمير المعنوي موجود دوماً في الأسرة حيث يبقى مستتراً، وفي المؤسسة حيث كان الضحايا يتكيفون معه في زمن توفر الوظائف حين كان بإمكانهم ترك العمل، في حين يضطر الناس في وقتنا الحاضر لأن يتشبثوا بأعمالهم بصورة بائسة على حساب صحتهم البدنية والنفسية على السواء. غير أن بعض الضحايا قد تمردوا ولجؤوا إلى القضاء أحياناً، فأخذت وسائل الإعلام تتناقل هذه الظاهرة، مما قاد المجتمع لأن يتساءل عنها.

وكثيراً ما كنا شهوداً أثناء العلاج على قصص حياتية لم يتم التمييز فيها بين الواقع الخارجي والواقع النفسي بشكل جيد، والبارز في جميع هذه القصص هو التكرار، إذ يعتقد المرء أن الحالة التي يعاني منها هي حالته الخاصة في حين أنها حالة مشتركة مع الآخرين.

وتكمن صعوبة القصص السريرية في الأهمية الخاصة لكل كلمة ولكل نبرة ولكل تلميح. إن جميع التفاصيل تبدو غير مؤذية إذا أخذت بشكل منفصل، لكنها بمجموعها تخلق سياقاً مدمراً. وقد ترد الضحية التي تؤخذ بهذه اللعبة المهينة بصورة فاسدة وذلك بهدف دفاعي، وهذا ما يقود إلى الكلام خطأً عن تواطؤ الضحية مع المعتدي.

وحصل معي أثناء المعاينة السريرية أن شاهدت نفس الفرد الفاسد يجنح إلى تكرار سلوكه المدمر في جميع ظروف الحياة: في مقر العمل والحياة الزوجية ومع الأطفال. ثمة أفراد يفرشون طريقهم بالجثث أو بأحياء - أموات، ولا يمنعهم ذلك من الخداع والتظاهر بالتكيف مع المجتمع تماماً.

العنف الخاص

العنف المعنوي الفاسد في الحياة الزوجية

غالباً ما يتم نفي العنف المعنوي والتقليل من أهميته في الحياة الزوجية إذ يُرَدُّ إلى مجرد علاقة سيطرة. وهناك تبسيط تحليلي يقوم على جعل الشريك متواطئاً أو حتى مسؤولاً عن التعامل الفاسد. وفي هذا نفي للبعد التسلطي الذي يشل الضحية ويمنعها من الدفاع، وفي هذا أيضاً نفي لعنف الهجمات ولشدة صدى التحرش النفسي على الضحية، فالاعتداءات ذكية، ولا آثار ملموسة لها، ويميل الشهود إلى تفسير المحاولة العنيفة، الناجحة أحياناً، للتدمير المعنوي وحتى البدني للآخر على أنها مجرد علاقات نزاعات أو مشاحنات عاطفية بين شخصين متمايزين.

سوف أصف عدة حالات زوجية في مراحل مختلفة من تطور العنف المعنوي، والطول المتباين لهذه القصص يعود إلى أن هذا السياق قد حصل خلال أشهر بل سنوات، فقد تعلّم الضحايا أن يكشفوا عن السياق الفاسد أولاً، ثم تعلّموا كيف يدافعون عن أنفسهم ويجمعون الأدلة.

التسلط

يصيب الفساد الحياة الزوجية عندما تغيب العاطفة أو عندما يكون هناك اقتراب جداً من المحبوب. إن الإفراط في القرب يمكن أن يخيف، وبناء عليه يشكل الأكثر حميمية مادة لأكبر عنف. إن الفرد النرجسي يفرض سلطته كي يحتفظ بالآخر، ولكنه يخشى من آن يكون هذا الآخر قريباً جداً فيقوم باكتساحه. لا بد له

إذن من تركه في علاقة تبعية أو حتى ملكية كي يستطيع أن يحقق سلطته الكاملة، فالشريك المقيد في الشك والشعور بالذنب يعجز عن القيام بردة الفعل.

تقول الرسالة الصامتة: «أنا لا أحبك»، ويتم حجبها كي لا يرحل الآخر، فتؤثر بصورة غير مباشرة. لا بد من أن يبقى الشريك ها هنا ليكون محبطاً دوماً، وفي الوقت نفسه لا بد من منعه من التفكير كي لا يدرك الحقيقة. وقد وصفت «باتريسيا هاي سميث» هذا الوضع في مقابلة مع صحيفة «لوموند»: «يحصل أحياناً أن الناس الذين يجذبوننا بشدة أو الذين نعشقهم يحجبون ومضات الإبداع وكأنهم عوازل مطاطية».

يحصل التسلط على يد فرد نرجسي يريد شل شريكه فيضعه في موقع ضبابي ومريب، مما يجنبه الالتزام بعلاقة زوجية تخيفه، وبهذا السلوك يحافظ على مسافة فاصلة بينه وبين الآخر بحدود لا تبدو له خطيرة. وإذا كان لا يريد للآخر أن يكتسحه، فهو يجعله يعاني مما لا يريد هو أن يعانيه، عبر خنقه وتركه «تحت اليد». وفي الحياة الزوجية الطبيعية، لا بد من وجود تعزيز نرجسي متبادل ولو وجدت عناصر تسلطية من حين لآخر، إذ يحصل أن يسعى الواحد إلى «إخماد» الآخر، لكي يبقى واثقاً أنه في موقع المسيطر في الحياة الزوجية، في حين أن الحياة الزوجية التي يقودها نرجسي فاسد تشكل شراكة مميتة تقوم على التحقير والهجمات الخفية بصورة منتظمة.

ليس هذا السياق ممكناً إلا عبر تساهل كبير من الشريك. وغالباً ما يفسر المحللون هذا التساهل على أنه مرتبط برغبات لا واعية، مازوخية عموماً، يمكنه الحصول عليها من مثل هذه العلاقات. وسوف نرى أن هذا التفسير جزئي إذ لم يَبْدُ على بعض هؤلاء الأزواج ميول للعقاب الذاتي لا سابقاً ولا لاحقاً، كما أن هذا التفسير خطير لأنه يعزز الشعور بالذنب لدى الشريك ولا يساعده مطلقاً على أن يجد الوسائل المناسبة للخروج من هذا الموقف القاهر.

وغالباً ما يعود أصل هذا التساهل إلى وفاء أسري يقوم على تكرار تجربة أحد الأبوين مثلاً، أو على الاضطلاع بإصلاح نرجسية الآخر، وهذه مهمة تستوجب التضحية.

التقى «بنجامين» و«آني» منذ عامين. كانت «آني» مرتبطة بعلاقة خائبة مع رجل متزوج. شعر «بنجامين» بالغيرة من هذا الرجل، ولما أحبها فقد توسل إليها أن تقطع هذه العلاقة: فهو يريد أن يتزوجها وينجب أطفالاً

منها. ومن دون أي تردد قطعت «آني» علاقتها السابقة وراحت لتعيش معه محتفظة بشقتها.

تغير سلوك «بنجامين» بدءاً من هذه اللحظة، فأصبح جافاً لا مبالياً مفتقراً إلى الحنان إلا عندما يحتاجها جنسياً. طلبت «آني» تفسيرات في البداية، لكن «بنجامين» نفى أن يكون هناك أي تغير في سلوكه، وكونها لا تميل إلى النزاع فقد اجتهدت على أن تبدو مرحة، مع احتمال أن تكون فقدت شيئاً من عفويتها، فإذا ثارت أعصابها يتظاهر بأنه لا يفهم فلا يكون له أيّ ردة فعل.

شيئاً فشيئاً اكتأبت. وبما أن العلاقة لم تتحسن وأن «آني» تندهش دوماً من رد «بنجامين»، فقد انتهى المطاف به إلى أن اعترف بأن شيئاً ما قد حصل، لأنه ببساطة لم يحتمل أن يراها مكتئبة. قررت «آني» أن تعالج اكتئابها الذي يبدو أنه سبب متاعبها الزوجية فشرعت بعلاج نفسي. يمارس «بنجامين» و «آني» المهنة نفسها، بيد أن تجربتها أكبر من تجربته، وغالباً ما يطلب مشورتها لكنه يرفض أي نقد: «لا فائدة من هذا.. يكفي.. لا أعلم ماذا تريدين أن تقولي!». وقد نسب أفكارها لنفسه عدة مرات، وأنكر مساعدتها، ولم يشكرها قط.

وإذا جعلته ينتبه لخطأ اقترفه، يدّعي بأن سكرتيرته قد أساءت التدوين، فتتظاهر «آني» بأنها تصدقه كي تتفادى أي خلاف.

إنه يحافظ على غموض كبير حول جدول أعماله وحياته وعمله، فقد علمت بالمصادفة من خلال أصدقاء جاؤوا لتهنئته أنه حصل على ترقية مهمة، وهو يكذب عليها بصورة دائمة فيقول إنه عاد من رحلة عمل بالقطار الفلاني، في حين تشير التذكرة التي يرميها إلى العكس.

أمام الناس يبقى جافاً، ففي حفلة «كوكتيل» ذات يوم، اقترب منها وشد على يدها قائلاً: «إن من لا تُسمَّى هي التي تقوم بهذه المهنة»، وابتعد عنها بسرعة ليتركها لوحدها، وعندما طلبت منه لاحقاً تبرير ذلك، تمتم بكلام غير مفهوم لأنه كان مشغولاً جداً.

يؤنبها على النقود التي تصرفها مع أنها تكسب قوتها بنفسها، يريد أن تكون خزائنها فارغة ويلزمها بترتيب جواربها كما لو كانت فتاة صغيرة، يسخر أمام الناس من علب «الكريم» التي تضعها في الحمام: «لا أعلم لماذا تضعين كل هذه الأشياء على وجهك!».

أخذت «آني» تتساءل كيف يمكنها أن تحب رجلاً يحسب عليها كل شيء: حركاتها، كلماتها، ونقودها. كما أنه لا يطيق الحديث عن الحياة الزوجية ويرفض الالتزام بها، فقد استوقفهما مهرّج في الشارع ذات يوم ليعرض عليهما لعبة خفة، فقال لـ «بنجامين»: «هذه زوجتك أليس كذلك؟»، لم يجب «بنجامين» وحاول التملص. تقول «آني» عن ذلك: «لم يستطع أن يجيب لأنه لا يفكر بأي شيء من هذا القبيل، أنا لست زوجته ولا خطيبته ولا خليلته الحميمة. لا أستطيع أن أقول شيئاً في هذا الموضوع، فالأمر ثقيل لا يطاق».

وإذا ألحت على أن يتحدثا عن وضعهما، يجيبها: «أتعتقدين حقاً أن الوقت ملائم لهذا»؟

وهناك موضوعات أخرى كانت بمثابة جراح بليغة، من قبيل رغبتها بطفل مثلاً، فعندما كانوا يصادفون أصدقاءهم مع أطفالهم، كانت تجتهد كي لا تبدي حماساً للأطفال خوفاً من أن يظن «بنجامين» أنها ترغب بطفل، لذا كانت تأخذ لهجة محايدة، وكأن ذلك لم يكن يهمها.

يريد «بنجامين» أن يسيطر على «آني»، يريد أن تكون امرأة مستقلة لا تعتمد عليه مالياً، وأن تكون مطيعة في الوقت نفسه، وإلا فسوف يقنط ويرميها.

عندما تتحدث على العشاء، يرفع عينيه إلى الأعلى واجماً، فكانت تظن في بداية الأمر «لا شك أنني أتفوه بأحاديث سخيفة»!، ثم راحت تراقب نفسها تدريجياً.

غير أنها منذ بداية العلاج النفسي تعلمت ألا تقبل أن ينتقد مسبقاً كل ما تقوله. ولو خلق ذلك فرصاً للتوتر.

فيما بينهما لم يكن هناك نقاشات بل مجرد نزاعات، وعندما تأخذ القسط الكافي منها، وعندما يطفح الكيل، تثور لوحدها، فتظهر سيماء الدهشة على «بنجامين»: «سوف تلومينني مرة أخرى أيضاً! إنك تعتقدين أنني المسؤول عن الخطأ دوماً»! فتحاول أن تبرر نفسها: «أنا لا أقول إنك المسؤول عن الخطأ، إنما أريد أن نتكلم عن الخلل فقط». يتظاهر بأنه لا يفهم، وينجح دوماً في أن يجعلها تشك بنفسها، ويقودها إلى أن تذنّب ذاتها. فكأن التساؤل عن مكان الخلل يعني: «إن الخطأ خطؤك». حينذاك لا يريد أن يسمعها، فيغلق النقاش، أو بالأحرى يحاول التملص بالحيلة حتى قبل أن تبدأ. «وددت لو يقول ما لا يعجبه بي، فقد يفتح ذلك بابا للنقاش»!

وقد كفّا عن الحديث بالسياسة شيئاً فشيئاً، لأنها عندما كانت توثق كلامها بالأدلة كان يتذمر لأنها تخالفه الرأي، كما كفّا عن الحديث عن نجاحات «آني» المهنية، إذ لم يكن «بنجامين» يطيق ما قد يجعله في الظل.

لقد عرفت «آني» كيف ترتد إلى تفكيرها الخاص وإلى ذاتها، لأنها كانت تخشى أن يتطور الأمر من سيئ إلى أسوأ وهذا ما قادها إلى أن تبذل جهوداً مستمرة كي تصبح الحياة اليومية قابلة للاحتمال.

غير أنها كانت ترد أحياناً وتهدد بالرحيل، فيمسكها بخطاب مزدوج: «أتمنى أن تستمر علاقتنا / لا أستطيع أن أقدم لك أكثر من ذلك الآن».

إنها تنتظر أن تصدر عنه أصغر إشارة تقرُّب كي تستعيد أملها، فهي تشعر بأن هذه العلاقة ليست طبيعية، ولكنها ترى أنها ملزمة بأن تحمي «بنجامين» وتعذره مهما فعل لأنها تفتقر إلى أيّ نقطة علّام، وهي تعرف أنه لن يتغير: «إما أن أتكيف أو أن أرحل»!

وليس الأمر بأفضل من ذلك على الصعيد الجنسي، إذ لم يعد «بنجامين» يرغب في ممارسة الحب، وقد حاولت أن تتحدث عن ذلك أحياناً:

«لا يمكننا أن نستمر في العيش هكذا!

- لا يمكن أن تتم الممارسة تحت الطلب.

- ماذا يمكننا أن نفعل؟ ماذا يمكنني أن أفعل؟

- لا يوجد حل لكل شيء، وأنت تريدين أن تتحكمي في كل شيء»!

عندما كانت تقترب منه لتعانقه بحنان كان يلعق أنفها، وإذا احتجت يجزم بأنها لا تملك روح الدعابة.

ما الذي يمسك «آني»؟ لو كان «بنجامين» وحشاً بامتياز لكان الأمر بسيطاً، لكنه الحبيب الحنون، مما يعني أنه على غير ما يرام. من الممكن أن يتغير إذن. من الممكن أن تغيره إذن. راحت ترقب هذا التغير وتأمل أن تنحل العقدة ذات يوم.

إنها تشعر بمسؤوليتها عن التغير الذي طرأ على «بنجامين»، كما تحس أنها مذنبة كونها ليست مغرية (لقد سخر ذات يوم أمام الأصدقاء من جلستها شبه الجنسية) وليست طيبة (ألمح إلى أنها لم تكن كريمة) بما فيه الكفاية.

وهي تعتقد أن البقاء معه في حياة زوجية غير مقنعة أقل خطراً من أن تجد نفسها وحيدة، ذلك أنه قال لها: «إذا انفصلنا فقد أجد إحداهن على الفور، أما أنت فستظلين وحيدة تماماً نظراً لميلك إلى الوحدة»! وكان أن صدَّقت ذلك مع أنها تعرف أنها أفضل منه من الناحية الاجتماعية، لكنها خافت من أن تصبح وحيدة مكتئبة تجترّ حسراتها لوحدها.

زد على ذلك أن والديها يعيشان معاً بحكم الواجب لأنهما يعيشان حياة زوجية غير مقنعة أيضاً، كان العنف ثابتاً في بيتها، لكنه عنف مقنَّع لأن أسرتها لا تسمي الأشياء بأسمائها.

العنف

يظهر العنف الفاسد في أوقات الأزمة عندما لا يستطيع فرد يلجأ إلى الدفاع الفاسد أن يضطلع بمسؤولية خيار صعب، فيكون حينذاك عنفاً غير مباشر يكمن في عدم احترام الآخر بصورة خاصة.

تزوج «لوسيان» و «مونيك» منذ ثلاثين عاماً. يرتبط «لوسيان» بعلاقة جديدة منذ ستة أشهر. وقد صرَّح بذلك إلى «مونيك» مدعياً أنه لا يستطيع الاختيار، فهو يتمنى أن يبقى في الحياة الزوجية وأن يستمر بهذه العلاقة بشكل مواز. رفضت «مونيك» ذلك بحزم فرحل زوجها.

منذ ذلك الوقت و «مونيك» محطمة، فهي تبكي دائماً ولم تعد تأكل أو تنام. تبدو عليها مظاهر سيكولوجية تعبر عن الجزع: الإحساس بعرق بارد، تحجر في المعدة، تسرع في القلب وهي ليست غاضبة من زوجها الذي سبب لها هذه المعاناة، بل من نفسها لأنها لم تقدر أن تحافظ عليه. لو استطاعت «مونيك» أن تغضب من زوجها لكان سهلاً عليها أن تدافع عن نفسها. لكن الشعور بالغضب من الآخر يفترض الإقرار بأنه عدواني وعنيف، وهذا ما يمكن أن يقود إلى زوال الرغبة في عودته، فعندما يكون المرء تحت تأثير الصدمة مثل «مونيك»، يكون من الأسهل عليه نكران الوقائع الحقيقية والاستمرار في الانتظار ولو كان الانتظار مؤلماً.

طلب «لوسيان» من «مونيك» أن يستمر في تناول الغداء معها بصورة منتظمة بغية المحافظة على نوع من العلاقة، وإلا فسوف يرحل إلى الأبد. إذا ابتعدت فسوف ينساها، وإذا أظهرت أنها غير مكترثة فهذا لن يجعله يرغب في البقاء معها. وكان أن اقترح «لوسيان» على «مونيك»، بناء على نصائح طبيبه النفسي، أن تقابل صديقته لكي «تتجاذبا أطراف الحديث»!

لم يظهر عليه أنه يكترث بمعاناة زوجته ولو للحظة واحدة، يدَّعي ببساطة أنه ملَّ من رؤيتها بهذا الوجه الشاحب، وهو يجرِّمها ويزعم بأنها لم تعرف كيف تحرص عليه، وبذلك يكون قد تملَّص من مسؤولية قرار الانفصال.

إن رفض مسؤولية الإخفاق الزوجي يشكل في الغالب أساساً لأرجوحة الفاسد، والفاسد فرد لديه في الأصل تصور مثالي عظيم عن الحياة الزوجية، وتبدو علاقته مع شريكه طبيعية حتى اللحظة التي يتوجب فيها الاختيار بين هذه العلاقة ومصادفة

جديدة. إن العنف الفاسد يكون قوياً كلما كان هناك تصور مثالي عن الحياة الزوجية، وعندما لا يكون من الممكن الاضطلاع بهذه المسؤولية، يتم إلقاؤها على الآخر بصورة كاملة. إذا كان هناك تراجع في الحب، فالشريك هو المسؤول عنه لخطأ اقترفه ولا يمكن تسميته، وغالباً ما يتم نفي هذا التراجع في الحب أثناء التصرف.

وإن إدراك الضحية للتلاعب الذي تتعرض له يضعها في حالة جزع مخيف لا تستطيع تفريغه نظراً لافتقارها لمن تحاوره. وعلاوة على الغضب، يشعر الضحايا بالخجل في هذه المرحلة: خجل من كونهم غير محبوبين، خجل من قبولهم هذه الإهانات، وخجل من كونهم قد تحملوا.

والأمر لا يتعلق بحركة فاسدة انتقالية، بل بظهور فساد كان مستتراً حتى ذلك الوقت، فالكراهية التي كانت مقنّعة بانت في وضح النهار. لقد انقلبت الأدوار، فالمعتدي أصبح معتدى عليه والذنب ظل ملقى على الشخص نفسه. ولكي يكون ذلك قابلاً للتصديق، لا بد من تحقير الآخر مما يدفعه لسلوك يلام عليه.

«بول» و «آنا» مهندسان التقيا في العمل. بسرعة اتخذ «بول» قراراً بأن يقيم عندها، ولكنه قام بترك مسافة عاطفية كي لا يلتزم تماماً. أمام الناس، يرفض العبارات العذبة والحركات الحنونة ساخراً من العشاق الذين يشبكون أيديهم.

يصعب على «بول» أن يعبر عن أمر شخصي، ويعطي انطباعاً أنه يمزح باستمرار، فهو يتهكم على كل شيء ويحوله إلى دعابة. إن هذه الاستراتيجية تتيح له أن يتخفّى وألا يتورط بشيء، وهو يلقي خطابات معادية للنساء إلى أقصى درجة: «النساء مثبطات تافهات لا يمكن تحملهن، ولكن المرء لا يستطيع أن يستغني عنهن!».

تعتبر «آنا» برودة «بول» رصانة، وصرامته قوة، وتضميناته معرفة، وتعتقد أن حبها سوف يليِّنه عندما يجد الاطمئنان في الحياة الزوجية فيصبح أقل قسوة.

بين «بول» و «آنا» نشأت قاعدة ضمنية مفادها أنه لا ينبغي الجهر بالكثير من الحميمية. قبلت «آنا» هذه القاعدة ووجدت لها ما يبررها فاضطلعت بها. وبما أن رغبتها بإقامة علاقة أكثر حميمية كانت أكبر من رغبة

«بول»، فقد توجب عليها، هي فقط، أن تبذل الجهود الضرورية لاستمرار العلاقة. يبرر «بول» قسوته بطفولته الصعبة، لكنه يترك سراً معيناً يحوم في الأفق، إذ يذكر معلومات جزئية بل متناقضة: «لم يهتم بي أحد عندما كنت صغيراً / لو لم تستقبلني جدتي... / ربما أن أبي ليس أبي!».

وبما أنه قدم نفسه على أنه ضحية دفعة واحدة، فقد قاد «آنا» إلى أن تشفق عليه وأن تبدي له قدراً أكبر من الاهتمام والتسامح، وبما أنها ترغب في إصلاحه تماماً، فقد وقعت بسرعة تحت تضليل هذا الولد الصغير الذي يستحق المواساة.

إنه من أولئك الأشخاص ممن «يعرفون»، وله آراء مبرمة في كل شيء: السياسة، مستقبل العالم، العالم التافه وغير التافه في الوقت نفسه، ما يجب فعله وما لا يجب... وفي الغالب يكتفي بأن يوحي بأنه يعلم بادئاً بجملة يتركها معلقة، أو حتى بمجرد هزة رأس صامتة.

لقد جعل من نفسه مرآة لارتيابات «آنا» بمهارة كبيرة، ذلك أن «آنا» شخصية ارتيابية، وبما أنها غير واثقة من نفسها، فهي لا تدين الآخرين، بل على العكس من ذلك تجد الظروف المخففة لهم مهما فعلوا. وهي تسعى دوماً إلى أن تنوع آراءها مما يسميه «بول» «تعقيد الحياة». شيئاً فشيئاً أخذت «آنا» تخفي حدتها الطبيعية عندما يكون «بول» حاضراً كي تكون أكثر تطابقاً مع ما ينتظره منها، أو بالأحرى مع ما تظن أنه ينتظر منها، فراحت تتفادى الإصرار وتغير عاداتها.

تسير حياتهما إذن على هذه الصيغة: هو يعلم / هي تشك. لقد وجدت من المريح لها أن تتوكأ على يقينيات الآخر، فشعر بأنها مطيعة ومستعدة لقبول يقينياته.

منذ بداية علاقتهما و«بول» ينتقد «آنا»، فهو يبدأ بلمسات صغيرة مزعزعة، ويفضل أن يتم ذلك أمام الناس، في اللحظة التي لا تستطيع

فيها أن تجيب. وعندما تحاول أن تتحدث عن ذلك فيما بعد، يقول لها بلهجة باردة إنها تجعل من الحبة قبة، ويبدأ الأمر من نقطة غير مؤذية، بل من نقطة حميمية يغالي «بول» في وصفها متخذاً حليفاً له من الموجودين أحياناً: «ألا تجد أن «آنا» تصغي إلى موسيقا صاخبة؟»، «أتعلم أن «آنا» تصرف نقودها على شراء مراهم لتقوية نهديها غير الموجودين فعلياً!»، «أترى أنها لا تفهم هذه النقطة علماً بأنها في متناول الجميع!».

وقبل أن يذهبا مع الأصدقاء في عطلة نهاية الأسبوع، يستعرض حقيبتها قائلاً: «تحسبينني حمالاً؟ لماذا لا تضعين مغطس الحمام أيضاً؟».

وإذا احتجت «آنا»: «ماذا يضيرك؟ سأحمل حقيبتي بنفسي!»، يجيب «بول»: «لكنك إذا تعبت فسأضطر لحملها كي لا أبدو نذلاً، ثم لا أعتقد أنك تحتاجين ثلاثة أصابع من أحمر الشفاه وبدلين من الملابس الداخلية».

ثم يعمم الحديث على نفاق النساء اللواتي يستدرجن الرجال إلى مساعدتهن. المهم بالنسبة إليه إرباك «آنا»، فهي تلمح العداء لكنها ليست متأكدة منه لأن «بول» يتكلم بنبرة وسطى فيبدو مازحاً، وطالما أن العداء غير ظاهر بالضرورة إلى الآخرين، فهي لا تستطيع أن تجيب عليه من دون أن تبدو أنها لا تملك روح الدعابة.

يزداد نقد «بول» لـ «آنا» عندما تكون بموقف تفوق، حين يثني أحدهم عليها مثلاً. إنها تعلم جيداً أنه معقد بسبب سهولة تعاملها الاجتماعي، وبسبب نجاحها المهني، ولأنها تكسب نقوداً أكثر منه. وحين ينتقدها يزعم بأنه لا يلومها بل يعبر عن رأيه فحسب.

لم يتضح العنف إلا عندما قرر أن يقيم بصورة حرة مع موظفة شابة جديدة، فبانت مناوراته الاستراتيجية لزعزعة «آنا»، وظهرت هذه المناورات أولاً في مزاجه السيئ الدائم الذي يبرره بمشكلات تنظيمية ومتاعب مالية؛ إذ غالباً ما يعود في المساء قبل «آنا». فيجلس على

المقعد أمام التلفزيون وبيده قدح. لا يجيب على تحية «آنا» عندما تعود، بل يسألها من دون أن يستدير برأسه: «ماذا نأكل؟»، (وهذه مناورة تقليدية معروفة تهدف إلى تصدير المزاج السيئ للآخر).

إنه لا يوبخها بصورة مباشرة، بل يرمي جملة غير مؤذية ظاهرياً تستوجب تفسيراً لاحقاً لأنها قيلت بنبرة توبيخ، وحين تحاول «آنا» توضيح ذلك، يتملص وينفي أيّ نية عدائية.

ثم أخذ يناديها: «تيتا»، وحين تذمرت قام بتغيير اللقب إلى «تيتا البدينة» قائلاً: «بما أنك لست بدينة، لا يمكنك أن تعتبري هذا الكلام موجهاً لك!».

إذا حاولت «آنا» أن تسمي معاناتها تجد نفسها أمام جدار يصدها، تصرُّ فيصبح أشد صلابة، وتنتهي حتماً بأن تثور أعصابها مما يحمل «بول» على أن يبرهن لها أنها مشاكسة شرسة، ولا تستطيع أبداً أن تصل إلى مسافة أمان كافية لأن تنزع فتيل هذا العنف الذي لا تفهمه.

وخلافاً للمشاهد الزوجية الكلاسيكية، ليس هنالك من معارك حقيقية، غير أنه ليس هناك من توافق ممكن أيضاً. إن «بول» لا يرفع صوته مطلقاً، بل يبدي فقط عداوة باردة ينفيها إذا تم تذكيره بها. أمام استحالة الحوار، تثور أعصاب «آنا» وتأخذ بالصراخ، حينئذ يسخر من غضبها «اهدئي يا عزيزتي»، فتحس بأنها مثيرة للسخرية.

يكمن جوهر الاتصال بالنظرات: نظرات كراهية من جانب «بول»، ونظرات عتاب وخوف من جانب «آنا».

والأمر الملموس الوحيد رفض «بول» للجنس، وعندما تطلب منه الحديث عن ذلك، فاللحظة غير مناسبة البتة. إنه منهك في المساء، مستعجل في الصباح، مشغول في النهار. قررت «آنا» أن تحرجه فدعته إلى مطعم، وعندما أخذت تتكلم عن معاناتها، قاطعها «بول» على الفور بغضب: «ما كان ينبغي عليك أن تلوميني في المطعم، وبصورة خاصة على مثل هذا الموضوع. إنك تفتقرين إلى الذوق بالتأكيد!».

شرعت «آنا» في البكاء مما جعل «بول» يخرج عن طوره: «أنت لست سوى مريضة مكتئبة تتذمر طوال الوقت».

فيما بعد، تذرع بحجة أخرى: «كيف يمكنني ممارسة الحب معك؟ إنك مرعبة ومثبطة شريرة!».

ثم وصل الأمر به إلى أن يختلس دفترها الذي تحتاجه في عمل المحاسبة، أخذت تفتش عنه في البدء، ثم سألت «بول» إذا كان قد رآه، إذ لم يدخل أحد إلى الحجرة التي وضعته بها. فأجاب بأنه لم يره، وبأن من المفروض عليها أن تحسن ترتيب أشيائها. كانت نظرته مليئة بالكراهية بحيث شعرت بنفسها مصعوقة جامدة من الخوف. لقد أدركت أنه اختلسه، لكنها كانت خائفة جداً من العنف الذي يمكن أن يندلع لو أصرَّت.

والمرعب في هذا الأمر أنها لم تفهمه مما جعلها تبحث عن تفسير له: أيريد أن يؤذيها بصورة مباشرة عبر هذا التصرف؟ أهو الحسد كونها تعمل أفضل منه؟ أم أنه يأمل في أن يجد في هذا الدفتر نقطة عيب يستطيع أن يستخدمها ضدها؟

لقد شعرت أن الأمر عدائي، لكنها رفضت أن تصدق هذه الفكرة، وراحت تنفيها لأنها مرعبة جداً، فتحول الخوف إلى انقباض جسدي تعاني منه ما إن تتقاطع نظرتها مع نظرة «بول» الجامدة.

في هذه المرحلة شعرت «آنا» بوضوح أن «بول» يريد أن يعدمها، فهو يسعى إلى تحطيمها سيكولوجياً بدلاً من أن يضع الزرنيخ في قهوتها بجرعات صغيرة مثلما يحصل في الروايات البوليسية الإنجليزية.

ولكي لا يتأثر بمعاناة «آنا» فقد اعتبرها شيئاً من الأشياء، فهو ينظر إليها ببرودة ومن دون أي انفعال مما جعل دموعها تبدو مضحكة. إنها تشعر بأنها غير موجودة بالنسبة إلى «بول». ومن إخفاقات الحوار تكونت لديها حالات غضب مرعب تحولت إلى جزع حين لم تستطع تفريغها. حاولت حينذاك أن تقول لنفسها إنها تفضل الانفصال على

هذه المعاناة اليومية، لكنها لم تتطرق إلى هذا الموضوع إلا في لحظات الأزمة عندما تكون غير مسموعة في أي شيء. وفي باقي الوقت تستعيد أنفاسها كي لا تدخل توتراً إضافياً، ولا سيما في اللحظات التي تكون الحياة فيها قابلة للتحمل.

حينذاك حاولت «آنا» أن تفهم «بول» كتابياً معاناتها من هذا الموقف ورغبتها في إيجاد حل له. في المرة الأولى، بعد أن وضعت الرسالة على مكتبه، توقعت منه أن يحدثها. وحين لم يقل شيئاً تجرأت على أن تسأله عن رأيه، فأجاب ببرودة: «ليس لدي ما أقوله في ذلك». اعتقدت «آنا» أن من الممكن أنها لم تكن واضحة بما فيه الكفاية. كتبت رسالة أطول من الأولى، فوجدتها في سلة المهملات في اليوم التالي. ثارت أعصابها. حاولت أن تصل إلى تفسير ذلك. رد بأنه لن يجيب على طلبات مجنونة مثلها.

مهما فعلت «آنا»، فهي غير مسموعة. أتكون سيئة التعبير؟ بدءاً من ذلك اليوم، راحت تصور الرسائل التي توجهها إليه.

إن «بول» كتيم لا تنفذ إليه معاناة «آنا»، بل هو لا يشعر بها، وهذا أمر لا يمكن التساهل فيه بالنسبة لـ «آنا» التي انقبضت فأصبحت أكثر حماقة، فأخذ «بول» يفسر أخطاءها على أنها أخطاء يجب تصحيحها وهذا ما يبرر له العنف. إنها خطيرة عليه فحسب، ولا بد له من تحطيمها إذن.

إزاء هذا العنف المتبادل، كانت ردة فعل «بول» في التجنب، وردة فعل «آنا» في محاولة الحوار. ثم اتخذت قراراً بالانفصال عنه.

«أفهم من ذلك أنك ترمينني من دون أيّ نقود!

- أنا لا أرميك. لكني لم أعد أحتمل هذا الموقف، وأنت لست من دون أيّ نقود، أنت تعمل مثلي، وعندما نتقاسم يكون لك نصف ما نملك.

- أين أذهب؟ أنت سيئة فعلاً! سأكون مجبراً بسببك على أن أعيش في كوخ قذر!».

أخذت «آنا» تلقي اللوم على نفسها إذ اعتقدت أن حدة «بول» تعود لأنه سوف ينفصل عن أبنائه.

وحين عاد الأطفال من قضاء عطلة نهاية الأسبوع مع والدهم لأول مرة بعد الانفصال، صادفتهم في الشارع، فأخبروها بأنهم أمضوا يوماً جميلاً مع «شيلا» شريكة أبيهم الجديدة. في تلك اللحظة رأت على وجهه ابتسامة انتصار لم تفهمها في الحال.

وفي البيت راح الأطفال يقصون عليها كم كان أبوهم عاشقاً، فقد أمضى نهاره يعانق «شيلا» ويلامس نهديها وردفيها. وبما أنه لا يملك الشجاعة الكافية ليخبر «آنا» بصورة مباشرة أن لديه صديقة، فقد استمر في توجيه الرسائل لها بصورة غير مباشرة عن طريق الأطفال، إذ جعلهم يسردون عليها قصة علاقته الحميمة مع «شيلا»، لأنه يعلم بأنه سيثير غيرة «آنا» بذلك، لكنه سيكون بعيداً عنها، ولن يخشى توبيخاتها المحتملة. وهكذا فقد وضع الأطفال على المستوى الأول كي يمتص حزن أمهم وحقدها، وهو بذلك لا يظهر أي احترام، لا إلى الأم ولا إلى الأطفال.

زلت قدم «آنا»، وراحت تغرق وتتخبط وتتأرجح بين الجزع والغضب. إنها تخاف من أن تفعل أي شيء، فهي لا تستطيع أن تفعل أو تقول أي شيء. وأمام شدة ألمها، لم تعد تصارع بل استسلمت للانزلاق والغرق.

أما «بول» فكان يخبر أصدقاءه وأسرته بأن «آنا» رمته على الباب مما شكل له صعوبة مالية. ولما كانت «آنا» ترفض هذا الدور السيئ الذي نسبه إليها، فقد حاولت أن تبرئ نفسها بطريقة لم تثبت نجاعتها حين كانا يعيشان معاً: أن تكتب له وتشرح له مشاعرها. وبما أنها تخشى كثيراً من أن تهاجم «بول» بصورة مباشرة، فقد نسبت الخطأ إلى العشيقة «شيلا» التي استغلت رجلاً مسكيناً يعيش أزمة زوجية فأغوته.

وبهذا التفسير وقعت «آنا» في شرك «بول» الذي كان يحاول أن يبقي نفسه خارج مجال الغضب والكراهية. لقد تخلص من الأمر فوضع

الخصمين وجهاً لوجه بدلاً من أن يتحمل المسؤولية، أما «آنا» فقد ظلت وديعة وعطوفة ولم تجابهه قط.

غير أنها تجرأت على أن تهاجمه بصورة مباشرة مرة واحدة فقط، فقد ذهبت إليه ودخلت عنوة، وقالت له كل ما لم تجد فرصة لتقوله سابقاً. كان هذا هو المشهد الزوجي الوحيد أو المواجهة الوحيدة مع «بول»: «أنت مجنونة وأنا لا أتكلم مع مجانين»، وعندما أراد إخراجها بالقوة، خدشته وولت باكية. وبكل تأكيد استخدم «بول» هذا المشهد بصورة مباشرة ضد «آنا»، فقد تلقت إنذاراً من محاميه، ثم أشاع «بول» في كل مكان أن «آنا» مجنونة وعنيفة، فأرسلت لها أم «بول» «لوما»: «يا صغيرتي «آنا»، يجب أن تهدئي، فسلوكك غير مقبول».

ثم تفاوض محاميا «آنا» و «بول» لتسوية قسمة الممتلكات. واختارت «آنا» محامياً غير ضليع بالجدل، إذ خطر ببالها أنه لا بد من تهدئة «بول» كي لا تتورط بدعوى طويلة. ونظراً لرغبتها التوفيقية لم تجادل في أي شيء، فبدت بذلك كأنها واثقة جداً من نفسها، أي أنها بدت أكثر تهديداً بالنسبة لـ «بول».

وفي حين كان من المتفق عليه إجراء جرد، علمت «آنا» بمحض المصادفة قبل الإجازة بقليل، أن «بول» أفرغ البيت الريفي، ولم يترك سوى أسرّة الأطفال وبعض الأثاث الذي يعود لعائلة «آنا». قبلت «آنا» الهزيمة حينذاك إذ اعتقدت أن «بول» سيكف عن الاعتداء عليها بعد تسوية الأمور المادية. لكنه لم يتوقف عن ذلك.

ثم تلقت منه ملاحظات غير مباشرة تشكك بنزاهتها، في أول الأمر راحت تدافع عن نفسها وتشرح أن كل شيء قد خضع لمفاوضة المحامين، وأن الأمور تمت أمام الكاتب بالعدل. ثم أدركت أن لا طائل من ذلك وأنه لا بد من جعلها مذنبة عن أي شيء. وذات يوم قال لها أحد الأولاد: «يقول بابا لكل الناس أنك أخذت كل شيء، ربما يكون هذا صحيحاً، ما الذي يثبت أنك كنت نزيهة في ذلك؟».

في هذه الحالة السريرية، نرى أن «بول» لا يتحمل مسؤولية القطيعة، فهو يتصرف بحيث تأخذ «آنا» زمام المبادرة و «تطرده»، فتكون بذلك هي المسؤولة عن إخفاق الحياة الزوجية، فهي مذنبة في جميع الأحوال وفي كل شيء، إنها كبش الفداء الذي يجنِّب «بول» التورط في المشكلة. ولو كانت ردة فعل «آنا» عنيفة إزاء هذه الخيانة الزوجية، لكانت قد وُصفت بأنها عنيفة. وما حصل هو العكس تماماً إذ انهارت فاعتبرت مجنونة أو مكتئبة. إنها مخطئة في جميع الأحوال إذن، وبما أنها لم تخطئ بردات فعل مفرطة، لم يبق سوى التلميح والاغتياب لتجريدها من مزاياها.

يجب إيصال «آنا» إلى القبول بأنها ستكون دوماً مادة لكراهية «بول» مهما فعلت، وإلى القبول بأنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً لإصلاح هذه العلاقة، وإلى الإقرار بعجزها. يكفي إذن أن تتشكل لديها صورة جيدة عن نفسها كي لا يمكن لاعتداءات «بول» أن تصيبها في الصميم. وهكذا فإذا تخلصت من الخوف من المعتدي تكون قد خرجت من اللعبة، وقد تستطيع أن تنزع فتيل العدوان.

وبالنسبة إلى «بول»، تسير جميع الأمور كما لو أنه ينبغي عليه أن يكره إنساناً ما كي يحب إنساناً آخر. إن لدى كل واحد منا دافع موت مدمر، وإن إحدى الوسائل للتخلص من دافع الموت الداخلي هذا تكمن في تصديره إلى الخارج على إنسان ما. وهكذا يقيم بعض الأفراد شرخاً بين «الأخيار» و «الأشرار»، وليس من المستحسن أن نكون في معسكر الأشرار طبعاً.

ولكي يستطيع الفاسد أن ينسب الكمال إلى غرام جديد، فهو يحتاج إلى أن يسقط العيوب على الشريك السابق الذي أصبح كبش فداء. لا بد من تدمير كل ما يعيق علاقة الحب الجديدة، لأنه يشكل مادة إزعاج. وهكذا فلكي يكون هناك حب، يجب أن تكون هناك كراهية في مكان آخر، فالعلاقة الغرامية الجديدة تبنى على كراهية الشريك السابق.

وكثيراً ما نجد هذا السياق عند لحظة الانفصال، إلا أنه غالباً ما تتلاشى الكراهية شيئاً فشيئاً مع تلاشي صورة الكمال عن الشريك الجديد. لكن «بول» الذي يتمتع بصورة مثالية عن الحياة الزوجية والأسرية يقوم، على العكس من ذلك، بتعزيز هذا السياق بغية حماية أسرته الجديدة. أما شيلا فهي تشعر، بصورة واعية أو

لا واعية، بأن هذه الكراهية تحمي علاقتها مع «بول»، فلا تفعل شيئاً لإنهائها بل تقوي هذه الظاهرة التي تحمي علاقتها الزوجية.

وبنوع من السذاجة الطبيعية، تعتقد «آنا» أن الحب يجعل الإنسان سعيداً وكريماً على أفضل حال، فهي لم تفهم إذن أن «بول» يحب في مكان آخر، وتعتقد فقط أن رفض «بول» لها يعود لأنها لم تكن جيدة معه بما فيه الكفاية، أي لم تكن متوافقة مع ما ينتظره منها. وعلى العكس من ذلك، فإن الحب لدى الفاسدين يجب أن يكون منفصلاً ومحاطاً بالكراهية.

الانفصال

تستخدم التصرفات الفاسدة عند حوادث الطلاق أو الانفصال عادة، والأمر يتعلق بسلوك دفاعي لا نستطيع اعتباره مرضياً بالكامل، فالتأثير المدمر يأتي من كون هذا السلوك متكرراً من طرف واحد فقط.

عندما يتم الانفصال تتفاقم الحركة الفاسدة التي كانت مستترة قبل ذلك الوقت، وينفجر العنف الخفي إذ يشعر الفاسد النرجسي أن فريسته تفر منه، ولا ينقطع العنف بعد الانفصال بل يستمر عبر الروابط الباقية: عبر الأطفال مثلاً. ويرى «لومير» أن بعض التصرفات الانتقامية بعد الانفصال أو الطلاق يمكن أن تندرج في هذا الإطار كما لو أن الفرد، لكي لا يكره نفسه، يصب كراهيته كلها على إنسان آخر كان جزءاً منه في السابق[1]. وهذا ما يسميه الأمريكيون stalking أي «الترصُّد»، وهو فعل الأحباء والأزواج القدامى الذين لا يريدون ترك فريستهم، فيحاصرون شريكهم السابق بحضورهم الدائم، ينتظرونه لدى خروجه من عمله ويتصلون به هاتفياً ليل نهار بعبارات تهديد مباشر أو غير مباشر.

وتأخذ الدول «الترصد» على محمل الجد، فتتأهب لسن قوانين حماية مدنية ضد العنف الزوجي المباشر، لأن من المؤكد أن هذا الترصد يمكن أن يقود إلى عنف جسدي مهما كانت ردة فعل الضحية ضعيفة.

١- لومير، الحياة الزوجية وموتها، باريس ١٩٧٩.

إن حوادث الطلاق من فاسد نرجسي، بغض النظر عمن يتخذ مبادرة الانفصال، تكون عنيفة ويتبعها دعاوى قضائية بشكل دائم تقريباً، إذ يحافظ الفاسدون على العلاقة عبر الرسائل المسجلة والمحامين والعدالة، فيستمر الحديث عن هذا الزواج في المرافعات علماً بأنه لم يعد له وجود بالفعل، ويكون الغضب شديداً كلما كان دافع التسلط قوياً، ولا يحسن الضحايا الدفاع عن أنفسهم بشكل جيد، وبصورة خاصة إذا شعروا أنهم المبادرون في الانفصال كما يحدث غالباً، ويدفعهم شعورهم بالذنب إلى أن يكونوا كرماء آملين بذلك التخلص ممن يضطهدهم.

نادراً ما يعرف الضحايا استخدام القانون، في حين يعرف المعتدي كيف يقوم بالمرافعات الضرورية. وفي فرنسا يمكن أن ينظر في الطلاق بسبب الخطأ عندما يكون هناك ادعاء من أحد الزوجين، ولكن كيف يمكننا كشف المناورات الذكية التي تلعب على حبل تجريم الآخر؟ ينبغي على طالب الطلاق أن يثبت الوقائع التي يتذرع بها سنداً في دعواه، فكيف يمكن إثبات التلاعب الفاسد؟

وليس من النادر، بعد أن يدفع الفاسد شريكه إلى الخطأ، أن يستفيد لاحقاً من هذا الانتقال إلى الفعل للحصول على طلاق لصالحه. وبصورة مبدئية لا يمكن أن يقر الطلاق لمجرد أخطاء الزوج عندما يكون لها ما يبررها في سلوك الزوج الآخر، وفي الواقع أن القضاة يخافون من أن يكونوا هم أنفسهم عرضة للتلاعب، كما أنهم لا يعلمون من يتلاعب بمن، مما يجعلهم يحترسون فيتركون هذه المواقف العنيفة الفاسدة على حالها.

تهدف المناورة الفاسدة إلى زعزعة الآخر وجعله يشك في نفسه وفي الآخرين، ومن أجل ذلك يستبيح الشريك كل شيء: التضمين والكذب واللامعقول، ولكي لا يستسلم لأي تأثر، يجب أن يكون واثقاً من نفسه ومن القرارات التي يتخذها وألا يؤنبه ضميره على اعتداءاته، وهذا ما يجبره على أن يكون يقظاً دوماً في اتصالاته مع الزوج السابق.

انفصل «بيير» و «إليان» بعد سنتين من العيش المشترك وثلاثة أطفال.
تقدمت «إليان» بطلب الطلاق شاكية من عنف زوجها. وقد عبر «بيير» عما سيكون عليه واقع السنوات القادمة أمام القاضي: «من الآن فصاعداً، سيكون هدفي الوحيد في الحياة إزعاج «إليان»!».

منذ ذلك اليوم رفض أي اتصال مباشر معها، فكان الاتصال يتم عن طريق البريد المسجل أو عن طريق المحامين. إذا أجابت على الهاتف عندما يتصل بالأطفال، يقول لها ببساطة: «إعطني الأولاد»، وإذا التقيا مصادفة في الشارع، لا يرد على تحيتها بل يترك نظراته تخترقها كما لو أنها شفافة. إنه يعدمها بنظراته من دون كلام، فيجعلها تفهم أنها لم تعد موجودة وأنها لا شيء.

وكما هو الحال غالباً لدى الأزواج المطلقين من هذا النوع، يحصل تحرش ماكر عبر المراسلات المتعلقة بالأطفال وتنظيم الإجازات والصحة والتعليم. إن كل رسالة يكتبها تشكل عدواناً صغيراً غير مؤذ في الظاهر لكنه مزعزع.

ورداً على رسالتها التي تخبره بإعادة تخمين النفقة، أجاب قائلاً: «لا بد من أن أتحدث مع المحامي نظراً لعدم نزاهتك المعهودة». وعندما أرسلت له رسالة مسجلة (كي تجبره على الجواب)، رد قائلاً: «لا بد أنك مجنونة وغير نزيهة كي ترسلي رسالة مسجلة كل ثمانية أيام!».

وحين أرسلت له تسأله عن توزيع العطل في نهاية شهر أيار - مايو أجاب: «أول عطلة في هذا الشهر هي ٧ و٨، ومع الأخذ بالحسبان ما حصل سابقاً، فقد أشار المحامي علي أن أحذرك رسمياً بأنني سأتقدم بشكوى عدم إحضار الأولاد إذا لم تحترمي التقويم!».

كانت هذه الرسائل تقود «إليان» إلى أن تتساءل: «ماذا فعلت؟»، ومع أنها تعتقد أنها لم تفعل شيئاً يستوجب اللوم، لكنها تبحث عما إذا كانت هنالك أمور أساء «بيير» تفسيرها ولم تلاحظها هي. في البداية كانت تبرر سلوكها، ثم انتبهت إلى أنها كانت تبدو مذنبة كلما كانت تبرر نفسها.

ردت «إليان» بالعنف على كل هذه الاعتداءات غير المباشرة، وبما أن «بيير» كان بعيد المنال، كان عنفها يظهر أمام الأطفال الذين يرونها تبكي وتصرخ كالمجنونة.

أرادت «إليان» ألا تلام على أي شيء، لكن «بيير» كان يراها مذنبة في كل شيء، لقد أصبحت كبش الفداء، فهي المسؤولة عن الانفصال ونتائجه كلها، وليست تبريراتها سوى جهود عبثية ومثيرة للشفقة.

من المستحيل على «إليان» أن تجيب على كل تلميحات «بول» لأنها لا تعرف مرجعية له. لا يوجد تبرير ممكن، فهما يفترضان أنها مذنبة في شيء ما، علماً بأن هذا الشيء غير موجود في الواقع. وإذا تكلمت إلى أهله وأصحابه تجدهم يقللون من أهمية الأمر: «سوف يهدأ. الأمر غير خطير».

يرفض «بيير» أي اتصال مباشر مع «إليان»، فلا يجيب إذا كتبت له لتخبره بأمر مهم يتعلق بالأطفال، وإذا اختارت أن تتصل به هاتفياً، إما أن يغلق الخط: «لا أرغب في أن أكلمك»، أو أن يشتمها بلهجة باردة. وبالمقابل إذا اتخذت قراراً من دون أن تعلمه، يخطرها فوراً، عبر رسالة مسجلة أو عبر المحامي، أنه لا يوافق على هذا القرار وأنه سيتصرف لاحقاً بحيث يستطيع إفشال الأمر عبر إقناع الأطفال، وبهذه الطريقة يشل «بيير» «إليان» في قراراتها المتعلقة بالأطفال، فهو لا يظهرها زوجة سيئة فحسب، بل يريد أن يظهرها أماً سيئة أيضاً، ولا يهمه إن كان هذا التصرف يؤدي إلى زعزعة الأطفال أيضاً.

تتردد «إليان» حول طريقة أخذ رأي «بيير» من دون خلاف عند كل قرار مهم يتعلق بالأطفال، ثم تتوصل إلى أن ترسل له رسالة تزين كل كلمة فيها، لا يجيب فتأخذ القرار لوحدها. وفيما بعد تصلها رسالة مسجلة: «تم ذلك بناء على رغبتك ومن دون أن تأخذي رأيي وتخطريني به. من المناسب تذكيرك بأني أمارس السلطة الأبوية على أطفالنا الثلاثة، وبالتالي لا تستطيعين اتخاذ أي قرار من دون استشارتي. ويتم هذا الخطاب نفسه أمام الأطفال الذين ما عادوا يعرفون من ذا الذي يقرر بالنسبة لهم. وبصورة عامة تفشل جميع هذه المشاريع.

وبعد بضع سنوات من الانفصال، توجب عليها أن تتخذ قراراً مهماً بخصوص أحد الأطفال، وعندما كتبت إليه لم يجبها كالعادة، وحين قررت أن تهتف له أدركت فوراً أن لا شيء قد تغير:

- أعتقد أنك قرأت رسالتي، هل أنت موافق؟

- لا أستطيع أن أفعل أي شيء مع أم مثلك. يجب ألا أحاول لأنك ستتصرفين بحيث تسير الأمور كما تريدين، فأنت تفعلين ما تريدين، والأطفال يفعلون ما تريدين! على أيّ حال لا يمكن إصلاحك فأنت لصة كاذبة تمضي وقتها بشتم الآخرين، لا يهمك سوى ذلك، وهذا ما تعرفين القيام به.

- أنا لا أشتمك، بل أسألك بهدوء إذا كان بإمكاننا أن نفعل شيئاً بخصوص الأطفال معاً.

- لم تشتمي لأن الفرصة لم تسنح لك حتى الآن، لكن ذلك لن يطول فأنت لم تتغيري ولن تتغيري، لست سوى ق...، نعم ق...، ليس هناك من كلمة أخرى.

- أنت من يشتم إذن!

- أنا أقول الحقيقة فقط، وللعلم أنت لا تتطورين ولست جديرة بأن تدرسي نفسك. لا مجال لأن أوافق على قرارك. أنا غير موافق أبداً، كما أنني لا أوافق على طريقة تربية الأطفال، ولا أوافق على من يقوم بتربيتهم، ولا أوافق حتى على طريقة لبسهم.

- مهما كان اعتقادك، الأمر يتعلق بأطفالنا، فماذا تقترح؟

- أنا لا أقترح شيئاً إذ لا يمكن الوصول لأي شيء معك. لا شيء يتغير لأنك لن تتغيري. أعتقد أن من الأفضل أن أتحدث مع الآخرين وليس معك لأنك غير قابلة للإصلاح، ولست قادرة على معرفة ما تقولين، فأنت تقولين أي كلام كان!

- ولكن يجب أن نتخذ قراراً يتعلق بالأطفال!

- عليك أن تخاطبي الآلهة، إذ ينبغي أن يتحدث المرء مع نظرائه! أنا لا أملك أرقامها لأنني لم أعتد الاتصال بها! لم يعد لدي ما أقول.

سوف أفكر وربما أعطيك جواباً. وفي جميع الأحوال أرى أن هذا القرار غير مناسب!

- ولكنك تحكم بصورة مسبقة على كل شيء!

- نعم! إذ لا يمكن لشيء أن يتم معك، ثم إنني لا أريد أن أناقشك، فأنت لا تهمينني ولا يهمني ما تقولين، وداعاً سيدتي!».

حين أدركت المنحى الذي سيأخذه الحديث، قامت «إليان» بتسجيل المكالمة، وحين لم تستطع أن تصدق أذنيها، قصدت الطب النفسي مع تسجيلها، فهي لم تتوصل لأن تعرف ما إذا كانت هي المجنونة لأنها تشعر بمثل هذا العنف، أو إذا كان «بيير» لا يزال يرغب بإعدامها بعد مضي خمس سنوات على الانفصال.

كانت «إليان» محقة عندما سجلت هذه المكالمة مما زودها بالمسافة الكافية لأن تنظر إلى مشكلتها بموضوعية. وعلى غرار جميع ضحايا مثل هذا التحرش، لم تصدق أن من الممكن أن يكرهها إلى هذه الدرجة من دون سبب وجيه. وفي هذه المكالمة نرى أن «بيير» يستبيح كل شيء من أجل أن يصك الموقف، بما في ذلك الشتائم والاستهزاء. إنه يحاول أن يثبت عدم كفاءة «إليان» فيجعلها مسؤولة سلفاً عن إخفاق أي إجراء، وبناء على ذلك يصك الباب أمام أي تغيير، ولو كان الأمر يتعلق بالأطفال، والسبب من دون شك أن أي تغيير قد يفضي إلى زعزعته هو أيضاً. ويبدو الحسد ظاهراً، إن «بيير» يحسد «إليان» لأنه يتصورها بطريقة طفلية في صورة الأم كلية القدرة (يفعل الأولاد ما تريدين). أم قادرة جداً لدرجة أنها تخاطب الآلهة، وهو لم يقل ذلك كصورة بيانية، بل كتعبير عن حالة من الهذيان.

عندما سمعتُ هذه العبارات العنيفة الملفوظة بنبرة جامدة، لم أستطع سوى أن أنصح «إليان» بالاحتراس، إذ أدركت أن هذه الكراهية لن تتوقف مطلقاً، فالأمر يتعلق بسياق مستقل، ما إن يطلق له العنان حتى يستمر في قائمة من الإدانات المختلفة، فالعقل والتعقل لا يبدلان شيئاً فيه.

يمكن للقانون فقط يضع حداً للعنف لأن الفاسد النرجسي يحرص على الاحتفاظ بمظهر الشرعية. وبالطبع ليس للتسجيل أيّ قيمة قانونية لأن من الممنوع تسجيل المكالمات الخاصة من دون موافقة المعني بذلك، وهذا مؤسف لأن العنف الفاسد يظهر على الهاتف جلياً، فلا نظرات ولا أشياء محسوسة، وبذلك يستطيع المعتدي أن يستخدم الكلام، باعتباره سلاحه المفضل، كي يجرح من دون أن يترك أثراً.

يشكل رفض الاتصال المباشر السلاح الأمثل بالنسبة للفاسدين إذ يجد الشريك الآخر نفسه مجبراً على أن يطرح الأسئلة ويجيب عليها في آن واحد. وبما أنه يتقدم مكشوفاً، يقترف أخطاء يقوم المعتدي بتضخيمها مسدداً بذلك على عجز الضحية.

إن اللجوء إلى الرسائل المسجلة في التضمين أو التلميح مناورة ذكية تزعزع بلا أثر، وإن القارئ من الخارج (الطبيب النفساني أو القاضي) لا يستطيع بناء على هذه الكتابات إلا أن يتصور مجرد خطاب متبادل فيه مشاحنة مبتذلة بين زوجين سابقين، في حين أن الأمر لا يتعلق بأي خطاب، إنما هو عدوان من طرف واحد حيث المعتدى عليه ممنوع من الدفاع وردة الفعل.

وهذه الاعتداءات الفاسدة تأتي لتزعزع الأسرة، فلا يستطيع الأطفال والشهود أن يتصوروا أن هذا العدوان من دون سبب، فالضحية تتعرض إليه حتماً بسبب شيء ما. وفي حالة «إليان»، ومع أنها تحافظ على علاقات ممتازة مع أطفالها، إلا أن كل رسالة تصلها تجلب معها التوتر والعدوانية: «يكون مزاجك سيئاً دوماً عندما تصلك رسالة من أبي!». وفي الوقت نفسه يكون الأطفال أنفسهم محترسين في كل موقف قد يستوجب رسالة مسجلة، وكأنها رسالة ملغومة تأتي لتثير العنف عن بعد. ويستطيع المعتدي أن يزعم أن لا علاقة له بشيء وأن يديه نظيفتان وأن هذه هي غلطة زوجته السابقة المجنونة التي لا تعلم كيف تتحكم بنفسها وكيف تربي أطفالها.

توقفت قصة «إليان» و «بيير» عند هذه النقطة حالياً، لكنها قصة لن تنتهي لأن الفاسد لا يترك فريسته مطلقاً. فهو متأكد أنه على حق، فلا هم ولا ندم، ويجب على

الشخصيات المستهدفة ألا تخطئ مطلقاً، وألا يكون لها عيب ظاهر تحت طائلة رؤية هجمة جديدة تنهمر عليها.

ظلت «إليان» فترة طويلة حتى أدركت أن هذا الموقف غير ناجم عن خلافات لاحقة للانفصال العاطفي، لكنه ناجم عن سلوك مرضي لدى «بيير» يسبب سلوكاً مرضياً لديها، هي أيضاً. وبما أنه لا يوجد حوار ممكن بينهما، فقد انقاد كل منهما إلى هذه الدارة المتفجرة التي تدمرهما وتدمر الأطفال أيضاً، وفي هذه اللحظة لا بد من تدخل خارجي لإيقاف سياق التدمير.

كانت «إليان» تتساءل طويلاً عن مسؤوليتها عن هذا الوضع، وقد أدركت الآن أن «بيير» لا يفعل سوى أن يعكس ما عانى منه في طفولته وما رآه في أسرته الخاصة، وأنها هي نفسها قد صعب عليها أن تخرج من مهمة إصلاحه. لقد جذبها «بيير» على أنه طفل صغير تعيس يحتاج إلى المواساة، فوقعت في شرك من أغواها.

العنف الفاسد في الأسرة

يشكل العنف الفاسد في الأسرة دوامة جهنمية من الصعب إيقافها لأنها تجنح للانتقال من جيل لآخر. إننا أمام معاملة نفسية سيئة تهرب من تيقظ المحيط وتخلّف أضراراً متنامية. وتتستر سوء المعاملة هذه بقناع التربية أحياناً، فحين تحدثت «أليس ميلر»[1] عن سوء التربية فضحت أضرار التربية التقليدية التي تهدف إلى تحطيم إرادة الطفل بغية جعله كائناً وديعاً ومطيعاً، فلا يستطيع الأطفال أن يردوا، إذ تخرسهم سلطة البالغين وقوتهم المحطِّمة وقد تفقدهم وعيهم[2].

وتعتبر الاتفاقية الدولية لحقوق الطفل من قبيل سوء معاملة الأطفال نفسياً:

- العنف اللفظي.
- التصرفات السادية والمهينة.
- الرفض العاطفي.

١ـ أليس ميلر، من أجل سعادتك، ترجمة جان إيتوريه، دار أوبييه للنشر، باريس ١٩٨٤.

٢ـ فيرنشي، اختلاط اللغة بين الطفل والبالغين، مجلة التحليل النفسي، العدد٤، باريس ١٩٨٥.

- الطلبات المفرطة وغير المتناسبة مع عمر الطفل.

- الأوامر والتعليمات المتناقضة أو المستحيلة.

ويمكن لهذا العنف المؤذي دوماً أن يكون غير مباشر فيصيب الأطفال برشات خفية أو أنه يسدد بصورة مباشرة على طفل محدد بغية إنهائه.

العنف غير المباشر

يوجه هذا العنف في الغالب إلى الشريك بغية تحطيمه، وعندما لا يكون هذا الشريك موجوداً ينتقل إلى الأطفال، فالأطفال ضحايا لأنهم موجودون ها هنا ولأنهم يرفضون التخلي عن الوالد المستهدَف، وبذلك يعتدى عليهم على أنهم أطفال الآخر. إنهم يتلقون جل العدوان الموجه للشريك الآخر لمجرد كونهم شهوداً على صراع لا يعنيهم. وفي المقابل حين يعجز الشريك المجروح عن التعبير عن نفسه أمام المعتدي، يسكب على أطفاله، هو أيضاً، جام العدوان الذي لم يستطع تفريغه في مكان آخر. وإزاء قيام أحد الوالدين باغتياب الآخر لا يكون أمام الأطفال أي إمكان آخر سوى الانعزال، فيفقدون بذلك قدرتهم على التفرد والتفكير المستقل.

وبالتالي يحمل كل واحد منهم قسطاً من المعاناة يقوم بتفريغها في الداخل إن لم يستطع تفريغها في الخارج. إنها عدوى الكراهية والتدمير، إذ لا يستطيع الظالم أن يحد من انتشار المرض فتنتقل الكراهية من الشريك السابق المكروه إلى الأطفال فيصبحون الهدف الذي يراد تدميره.

اعتاد والدا «ناديا» حتى طلاقهما على أن يضعوا أولادهم بعضهم ضد بعض مستخدمين بذلك عنفاً خفياً، ففي هذه الأسرة يتم نشر الغسيل علناً ولكن بطريقة ماكرة، وتتفوق الأم في استخدام الجمل العدوانية والتلميح، فتترك آثاراً سامة في ذاكرة الأطفال عبر هجمات غير مباشرة.

منذ رحيل زوجها تعيش وحيدة مع ابنتها الصغرى «ليا»، وتتهم أبناءها الآخرين بأنهم متواطئون مع والدهم. هنالك مؤامرة ضخمة تتركز على «ليا» وعليها هي نفسها جزئياً. وعندما أرسلت «ناديا» هدية إلى «ليا» في عيد ميلادها، أجابت الأم: «أنا وأختك نشكرك!». إنها

تشرك «ليا» في حقدها وارتيابها وتعزلها عن باقي الأسرة لدرجة أن «ليا» استاءت من كون إخوتها وأخواتها يستمرون في رؤية والدها.

تشتكي هذه الأم من أبنائها باستمرار، تقدم إطراء وتتبعه بما يلغيه فوراً، تنصب شراكها دوماً طامحة إلى انتصار صريح، وتضع منظومة تجريم تترصد الأطفال تقريباً.

وعندما أهدتها «ناديا» وشاحاً في عيد الميلاد، أجابت «شكراً على وشاحك الذي يناسب طوله لأن يكمل وشاحي!» و «إلى الآن هديتك أول هدية تلقيتها من أبنائي!»، وعندما انتحر صهرها: «على كل حال كان ضعيفاً ومن الأفضل أنه رحل!».

عندما ترى «ناديا» أمها أو تسمعها يتكون لديها انطباع بأنها تحلم، وتنظر إلى كل عدوان على أنه تطفل فتشعر أنها بحاجة لأن تحمي نفسها لتحافظ على سلامتها، ومع كل هجمة جديدة ينمو عنفها الخاص فترغب في تحطيم والدتها كي تكف عن كونها كلية القدرة وعن تجريم جميع الناس، مما يستدعي آلاماً في المعدة وتشنجات هضمية لديها. وحتى عن بعد، عبر البريد أو الهاتف، تشعر كأن ذراعاً تلسكوبية تأخذ بتلابيبها لتؤذيها.

ومهما كانت أسباب هذا السلوك فهو غير مقبول وغير مبرر، لأن التلاعب الفاسد يولد اضطرابات خطيرة لدى الأطفال كما هو الأمر لدى البالغين، كيف يمكنك أن تفكر بشكل سليم عندما يقول لك الوالد شيئاً ويقول لك الوالد الآخر عكس ذلك تماماً؟ فإذا لم يقم بالغ آخر بإزالة هذا الالتباس فقد يقوده إلى تدمير ذاتي حتمي، فنحن نجد غالباً لدى البالغين الذين تعرضوا لفساد أحد الوالدين عندما كانوا أطفالاً، على غرار ما نجده لدى ضحايا ارتكاب المحرمات، نوبات أنوركسية وبوليمية أو سلوكيات أخرى إضافية.

تشكل التلميحات والملاحظات الفاسدة تكييف سلبي وغسيل دماغ، إذ لا يشتكي الأطفال من معاملتهم بصورة سيئة، بل على العكس نجدهم في بحث دائم

عن عرفان بعيد المنال لوالد صاد، فهم يستبطنون الصورة السلبية عن ذاتهم (أنا لا شيء!)، ويقبلونها كما لو كانوا يستحقونها.

أدرك ستيفان قبل اكتئابه بأنه يشعر بنفسه فارغاً عاجزاً عن القيام بأي شيء إذا لم يكن هناك تحفيز خارجي كبير، وتجلى عجزه بصورة خاصة في استخدام مواهبه المهنية الحقيقية، وليخفي هذا الفراغ وهذا السأم راح يأخذ المخدرات بانتظام معترفاً في قرارة نفسه بسوء تصرفه.

كان ستيفان طفلاً ثرثاراً ديناميكياً مرحاً مسروراً وتلميذاً ناجحاً حتى سن الفتوة، إذ فقد عفويته بعد طلاق والديه وهو في سن العاشرة. في تلك اللحظة شعر بنفسه مرفوضاً في كلا المنزلين، وبما أن أخاه قرر أن يبقى مع أمه وجد نفسه مضطراً لأن يعيش مع أبيه فكان رهينة هذا الطلاق.

أبوه رجل بارد مستاء ومتعَب دوماً يفتقر لأيِّ لمسة حنان ويستخدم السخرية والتهكم والكلام الجارح، لا يستفيد من الحياة ولا يترك الآخرين يستفيدون منها. إن ستيفان لا يفصح عن أي شيء لوالده فهو مجرد شبح أمامه، وعندما تركه أسرَّ في نفسه «لقد ارتحت ومر الأمر بسلام».

لا يزال ستيفان خائفاً من غضب أبيه حتى بعد سن البلوغ «لو كنت الوحيد كذلك لقلت بأنني أهذي ولكن أي شخص يفضل عدم النقاش معه أو يقول أي كلام ليتفادى النزاع معه». يجد ستيفان نفسه بصورة دائمة في موقف دفاعي، فترتعد فرائصه حين ينهال أبوه عليه بالشتائم.

وبصورة عامة يعترف ستيفان بأنه يذعن للسلطة بسهولة لأنه لا يطيق النزاعات، وحتى هذا العمر يدرك بأنه إذا كف عن الخضوع لوالده فستكون القطيعة، القطيعة عنيفة، وإلى الآن لا يجد نفسه كفؤاً ليواجهه.

يجد الوالد تحت تصرفه شيئاً حياً جاهزاً وقابلاً للتلاعب فيحمِّله الإذلال الذي تحمله هو سابقاً أو الذي لا يزال يتحمله، فلا يطيق أيَّ بهجة لدى الطفل ويلومه على كل ما يفعل أو يقول، فكأن هناك ضرورة لأن يجعله يدفع ثمن معاناته هو.

لا تطيق أم «دانيال» أن ترى أبناءها سعيدين في حين أنها تعيسة في حياتها الزوجية، فهي تكرر لمن أراد أن يسمع: «الحياة فطيرة خـ.. ينبغي تناول القليل منها كل يوم!»، وتبين أن وجود الأطفال يمنعها من الحياة، ومع أنها لا ترغب في وجودهم إلا أنها تجد نفسها مضطرة لكي تضحي بنفسها من أجلهم.

تكون سيئة المزاج دوماً فتوجه لكل منهم جملاً صغيرة جارحة، ومن أجل تقوية شخصية أبنائها اخترعت لعبة عائلية تقوم على السخرية من أحدهم أثناء العشاء بشكل منهجي، وعلى من يجلس على كرسي الاتهام أن يظهر رابط الجأش، مما يشكل خدوشاً متكررة مؤلمة بيد أنها ليست خطيرة بما يكفي للحديث عنها. وفضلاً عن ذلك لا يثق الأطفال بأن هذه الجروح الصغيرة إهانة متعمدة فقد تكون مجرد رعونة.

وهي تمضي الوقت في الكلام السيئ عن الواحد أو الآخر بطريقة مموهة وغير مباشرة، وتتناول دائماً موضوعات تجعل أحد أبنائها يحتقر أخيه أو أخته فتثير بذلك الخصومة وسوء الفهم فيما بينهم.

تقول عن «دانيال» أنه لا يصلح لشيء ولن يصل إلى شيء في حياته، وعندما يفصح عن رأيه تزجره بألفاظ جازمة وقاطعة. ولا يزال «دانيال» يخشى ألفاظ أمه حتى وهو بالغ، فهو لا يستطيع الدفاع عن نفسه أمامها «لا يمكن للمرء أن يهاجم أمه!»، وهو يتشبث بحلم متكرر يأخذ فيه كتف أمه ويهزها قائلا «لماذا أنت خبيثة معي؟».

من السهل جداً التلاعب بالأبناء، إذ يفتش هؤلاء دائماً عن إيجاد الأعذار لمن يحبون، فهم متسامحون بلا حدود ومستعدون لأن يعذروا والديهم على أي شيء، ومستعدون لأن يقبلوا تحمل مسؤولية خطأ غيرهم ولأن يحاولوا معرفة سبب تعاسة أحد والديهم.

أخبرت سيلين والدها بأنها اغتصبت وأنها تقدمت بشكوى، وإذ تم القبض على الجاني بفضل برودة أعصابها فلا بد من أن يكون هناك دعوى. كانت أول ردة فعل لدى أبيها بأن قال لها: «يستحسن ألا تخبري والدتك عن ذلك، يا للمسكينة، سيشكل ذلك هماً إضافياً لها!».

تشكو «فكتوار» بصورة دائمة من آلام في بطنها تعطيها الحجة لأن تبقى متمددة على السرير طوال اليوم مما يجنبها أيّ ممارسة جنسية، وكتفسير لعزلتها قالت لابنها: «كنت جنيناً ضخماً مزق أحشائي!».

وبما أن زوجة المعتدي «وبالعكس» تتعرض للتأثير نفسه فهي لا تستطيع إلا نادراً أن تساعد أبناءها وتسمع معاناتهم من دون أن تبرر للمعتدي وتنصب نفسها محامية للدفاع عنه. يلمح الأبناء باكراً هذا التواطؤ الفاسد ولكنهم لا يستطيعون تسميته نظرا لارتباطهم بوالديهم. ويتفاقم الأمر عندما يرغب الوالد الآخر في حماية نفسه فيبتعد تاركاً الطفل يواجه الرفض والاحتقار وحيداً.

اعتادت أم «آجاث» أن تجعل أبناءها مسؤولين عن كل تعاستها، وفي الوقت نفسه تغسل وتمحو أي أثر للتجريم، فهي تتكلم بطريقة هادئة فيبدو العدوان كأنه مجرد ثمرة خيالهم. لا شيء يقال في هذا الطمي الأسري: «لا، لم يحصل شيء، أنت تتفوهين بترهات!».

تزول آثار العنف من الذاكرة ولا يبقى سوى ذكرى غائمة، فأم «آجاث» لا تسعى للحديث بل تتملص فتتكلم بصورة غير مباشرة، وتقنع أولادها بأن يكونوا إلى جانبها، إذ تشتكي من زوجها الذي هجرها، مما يزعزع «آجاث» فلا تتيقن من حقيقة شعورها الخاص.

يعرف الأبناء أن أمهم تحتفظ في سريرها بعلبة مليئة بصور تعود إلى طفولتهم الأولى. وقد ادعت الأم أنها رمتها، وذات يوم تجرأت «آجاث» على أن تسأل عما حصل لهذه العلبة، كان الحديث عن العلبة طريقة للخروج من القبضة وتجرؤ على الشك بالمسلمات التي تفرضها الأم التي أجابت حينذاك: «لا أدري، سوف أرى... ربما!».

أحست «آجات» أنها يتيمة، لديها والدان ولكن لا شيء يحصل مع أي منهما. لا تجد كتفاً حنوناً تستند إليه، وينبغي عليها دوماً أن تحتمي من ضربات قادمة وأن تبرر نفسها إزاء كل شيء.

العنف المباشر

يدل العنف المباشر على رفض أحد الوالدين للطفل بصورة واعية أو لا واعية.، فيبرر الوالد تصرفه بهدف تربوي يصب في مصلحة الطفل، وفي حقيقة الأمر أن هذا الولد يضايقه فيسعى لتدميره من الداخل كي يصون نفسه.

إن التدمير حقيقي والضحية فقط هي التي تستطيع أن تلحظه. يكون الطفل تعيساً بيد أنه يفتقر لما يستطيع أن يشكو منه بصورة موضوعية، فلا يعبر إلا بمجرد حركات أو كلمات عادية، يزعمون أنه مختبئ في جلده غير أن هناك إرادة حقيقية لإنهائه.

ينظر إلى الطفل المساء معاملته على أنه ظالم فيقال إنه مخيب للأمل ومسؤول عن صعوبات الوالدين «هذا الولد صعب، يفعل كل شيء ويكسر كل شيء وما إن أدير ظهري حتى يرتكب الحماقات!» فلا وجود لهذا الطفل في الخيال الأبوي.

إنه مزعج إما لأنه يشغل مكاناً خاصاً في معضلة الوالدين (ولد غير مرغوب فيه أو سبب زواج لم يكن ليتم لولاه مثلاً) أو لأنه يشكل اختلافاً (إعاقة أو تأخر دراسي). إن مجرد وجوده يثير نزاع الوالدين ويقويه فهو الهدف الذي يسدد عليه والذي لا بد من تقويم رذائله كي يستقيم.

يصف «برنار لمبير»[1] بصورة ممتازة هذا الرفض الذي ينهمر أحياناً على ضحية بريئة: يشكل اللا حب في بعض العائلات منظومة تدمير تنهمر على الطفل فتنهيه، فهو ليس مجرد غياب الحب بل عنف ثابت لا يتحمله الطفل فحسب بل يستبطنه لدرجة أننا نصل إلى دوامة مضاعفة، إذ تقوم الضحية بترحيل العنف الممارس عليها إلى تصرفات تدل على الرغبة في تدمير الذات.

ها نحن أولاء مأخوذون بدوامة عبثية، فعندما يُعَنَّف الطفل لأنه ليس على ما يرام أو لأنه أخرق يصبح أكثر خرقاً وأكثر بعداً عن رغبة الوالد، فلا يحتقر الطفل إذن

١ـ لمبير، اللاحب، منشورات سوي، باريس ١٩٨٩.

لأنه أخرق بل يصبح أخرق لأنه احتُقِر، والوالد الصاد يجد بالضرورة (بولا في السرير أو درجة سيئة في المدرسة) تبريراً للعنف الذي يشعر به، غير أن وجود هذا الطفل وليس سلوكه فحسب هو الذي يطلق العنان لهذا العنف.

ومن الطرق المبتذلة للتعبير عن هذا العنف الفاسد تلقيب الطفل بلقب مضحك، حيث لم تستطع سارة أن تنسى بعد خمسة عشر عاماً أن والديها كانا يلقبانها «سلة القمامة» لأن شهيتها كانت كبيرة بحيث تلتهم جميع الأطباق، فهي بوزنها الزائد لا تتوافق مع الطفلة المثالية التي كانا يحلمان بها، وبذلك فقد شرعا في تحطيمها بدلاً من أن يساعداها في تنظيم شهيتها.

ويحصل في الغالب أن يكون لدى الطفل شيء زائد عن طاقة أبيه أو أمه، حينذاك نقمع أفضل ما لدى الطفل كي لا تظهر نواقصنا، فتأخذ التوكيدات صيغة خبرية: «أنت سيئ في كل شيء!» مما يفضي بالطفل لأن يصبح أبله أو انفعالياً بحيث يصبح لدى الوالد حجة صحيحة ليسيء معاملته. وهكذا يطفئ الوالد لدى الطفل شرارة الحياة فيحطم إرادته ويخرب روحه النقدية بحيث لا يستطيع الحكم على والده.

وفي جميع الأحوال يشعر الأطفال بأنهم ليسوا متوافقين مع رغبة ذويهم أو أنهم غير مرغوب فيهم بكل بساطة، فهم مسؤولون عن خيبة أملهم وعن إخجالهم وعن كونهم ليسوا على المستوى المطلوب، فيعتذرون عن ذلك لأنهم يريدون إصلاح نرجسية ذويهم. يا له من جهد ضائع!

تفتقر «آريل» للثقة في نفسها مع علمها بأنها موهوبة في مهنتها. ومن جهة أخرى يصيبها غثيان ودوار وتسرع في القلب تعزوها لضيق نفسي.

كان لديها صعوبة في التفاهم مع والديها ولاسيما مع أمها التي تربطها بها علاقة صعبة، إذ تعطيها الأم انطباعاً بأنها لا تحبها، ولكن «آريل» تجد لها العذر وتظن أن كونها البكر يعرضها لأن تكون على المستوى الأول لتحرش الأم.

وعن علاقتها بأمها تقول «آريل» إنها غير معقولة، إذ تسمع منها كلاماً لا تفهمه ولا تعرف كيف تتقيه. ذات يوم قال لها أحد ما بأنها كانت

سبب خلاف والديها، حينذاك شعرت بنفسها مذنبة لدرجة أنها كتبت إليهما تبرر نفسها.

وبصورة دائمة لديها انطباع أن أمها تمارس عليها تكييفاً سلبياً كغسيل الدماغ بغية الحط من قدرها. وبلغتها الفاسدة تنطوي كل كلمة تقولها الأم على التباس يصلح لتفخيخ البنت. إن «هيلين» تعرف كيف تستخدم شخصاً ثالثاً في إشعال الصراع أو أنها تقلب الموقف بمهارة عبر السخرية، وهي تتكلم كما لو أنها الوحيدة التي تعلم، وعبر التضمين تقود «آريل» لأن تذنب نفسها حكماً، فهي محترسة دوماً وتتساءل عما إذا كانت تفعل ما يجب فعله كي تعجب أمها.

ذات يوم وجدت «آريل» على طاولة أمها بطاقة كانت قد أرسلتها لها في عيد ميلادها، فرأت أن أمها قد وضعت خطاً تحت التاريخ وكتبت في الأسفل «لم تصل هذه البطاقة في الوقت المحدد بل بتأخير يوم واحد!»، وبناء على ذلك استنتجت «آريل»: «مهما فعلت فأنا مخطئة!».

للفساد أضرار بالغة في الأسر فهو يقطع الروابط ويحطم كل تفرد من دون أن ننتبه له، إذ يتقن الفاسدون التزوير فيلمِّعون عنفهم بحيث يتوصلون غالباً لتقديم صورة جيدة عنهم، ويمكن لمسار التحقير أن يتم عبر دفع شخص ثالث هو الوالد الآخر عموماً فيتبناه دون دراية منه.

تحب «شانتال» ابنها «آرثر» على عكس والده «فنسان» الذي يترك زوجته تتكفل بالطفل «إنه دور النساء!»، وعندما تمضي وقتاً طويلاً في العناية به يسخر قائلاً «أنت تغنجينه!»، يقول هذه العبارة غير المؤذية ظاهرياً بنبرة تجعلها تحس بالخطأ حتى لو أجابت بأن هذا طبيعي تماماً.

ذات مرة أخرى بينما كانت تغير حفاظ «آرثر» وهي تغني له وتقبله على بطنه، شرح لها «فنسان» وهو على عتبة الباب أن كثيراً من الأمهات ينتهجن سلوك انتهاك المحرمات مع أطفالهن وأنهن يهيجنهم وهم في

المهد فأجابته «شانتال» مازحة بأن هذه الملاحظة غير مناسبة، غير أنها منذ ذلك اليوم فقدت شيئاً من عفويتها مع الطفل عندما يكون «فنسان» بجوارها.

يتسم «فنسان» بمبادئ تربوية صارمة: يجب عدم التجاوب مع نزوات الأطفال، فينبغي تركهم يبكون إذا ما تم إطعامهم وتغيير «حفاظاتهم» بشكل صحيح، ويجب عدم تعديل المحيط من أجل الطفل إذ يكفي ضربه على أصابعه حتى يتعلم ألا يلمس شيئاً، فكان أن بدأ «آرثر» يصبح عنيفاً مع أنه طفل وديع وسهل التربية.

أصبح «آرثر» طفلاً جميلاً ممتلئ الوجه فراح أبوه يناديه «الخنزير السمين»، مما أثار حنق «شانتال»، وعلى الرغم من طلباتها وتوسلاتها ظل يناديه هكذا حتى وهو يلاطفه «أنت التي تتضايقين، أما هو فلا ينزعج، انظري إنه يبتسم!»، لقد أصبح هذا اللقب اعتياديا لدى «فنسان» على الرغم من احتجاج أشخاص آخرون من العائلة أو الأصدقاء.

وبالتالي أصبح «آرثر» يواجه بعض الصعوبات في تعلم النظافة، فكان يبول في سرواله حتى سن الحضانة، وظل يعاني من سلس البول طوال الليل لفترة طويلة بعد ذلك، مما كان يثير «فنسان» الذي ينهال عليه ضرباً على قفاه، ولكنه كان يظهر حنقه بصورة خاصة أمام «شانتال» التي تخاف من غضبه البارد فتمسك زمام المبادرة حتى أنها وصلت لتضربه على قفاه هي أيضاً، ثم شعرت بالذنب ولامت «فنسان» على كونه قاسياً جداً مع ابنه، فأجابها ببرودة «أنت من ضربه، أنت العنيفة إذن!»، فذهبت إلى غرفة الولد وأخذته بين ذراعيها وراحت تواسيه، وفي حقيقة الأمر أنها كانت تواسي نفسها.

ولأننا لا نستطيع تصفية الطفل جسدياً، نتصرف بحيث نلغي وجوده ونحطمه نفسياً، وبذلك نستطيع أن نحتفظ بصورة جيدة لأنفسنا حتى لو فقد الطفل عَرَضاً كل وعي بقيمته الذاتية، «عندما يكون التعسف مألوفاً والقنوط فردياً يبلغ الموت حدوده

عبر الشعور بعدم الوجود، فلأننا لا نستطيع أن نقتل الطفل جسدياً من الناحية الاجتماعية ونظراً لضرورة وجود غطاء شرعي لذلك - وبغية الاحتفاظ بصورة جيدة عن الذات التي هي غاية غايات النفاق - نتدبر اغتيالاً نفسياً فنتصرف بحيث يصبح الطفل لا شيء. نجد هنا حقيقة ثابتة تقوم على عدم وجود أثر أو دم أو جثة وهكذا يكون القتيل حياً وكل شيء طبيعياً تماماً»[1].

وحتى عندما يكون عنف الأهل أكثر وضوحاً، لا نستطيع اللجوء إلى القضاء لأننا لا نستطيع الحصول على الدلائل دوماً.

على الرغم من زعم والدي جوليت بأنهما يحبانها، ظهر بجلاء أنه لم يكن لهذه الطفلة أن تعيش فهي تضايقهما وهما لا يرغبان بها. إنها المسؤولة عن كل شيء منذ ولادتها: إذا لم تكن عاقلة فهذه غلطتها، وإذا كان ترتيب المنزل صعباً فهذه غلطتها أيضاً، يتم تعنيفها بشدة على كل شيء تفعله. إذا بكت يلومانها على دموعها ويصفعانها: «هكذا تعرفين كيف تبكين!»، وإذا لم ترد: «الدنيا انطباع بأنك لا تفهمين ما يقال!».

لدى والدها رغبة بألا تكون موجودة، فحين كانت في التاسعة من عمرها نسيها عندما كان في رحلة، وحين عثر قرويون عليها وأخطروا الشرطة برر الأب نفسه قائلاً: «ماذا تريدون أن أفعل؟ هذه الطفلة صعبة فهي تمضي وقتها في الاختباء!».

لم تتعرض جوليت للضرب بصورة واضحة وهم يطعمونها ويكسونها بشكل جيد ولو لم تكن كذلك لكانت الخدمات الاجتماعية قد تكفلت بها، ومع ذلك يبدو في كل لحظة أنها ما كان يجب لها أن تعيش. وقد سعت أمها الخاضعة لزوج متسلط إلى التعويض عن ذلك وإلى أن تحمي ابنتها، فقد قاومت ما استطاعت مهددة أحياناً بالرحيل مع ابنتها، ولكن كونها لا تعمل ولا تستطيع تأمين مصدر للعيش ظلت مرتبطة بهذا الرجل الصعب.

١- لمبير، الطفل واللا حب. منشورات لاربر أوميليه، ١٩٨٩.

بيد أن جولييت تحب أباها على الرغم من العنف الذي تتعرض له، وعندما سئلت عما يتم في المنزل أجابت «أمي تثير المشكلات دوماً وتقول بأنها ستهجر البيت!».

ويلجأ الأطفال الذين يتعرضون للاعتداءات الفاسدة إلى آليات تقوم على طمر المشكلات في أغوار النفس بغية حماية أنفسهم فيصبحون حاملين لنواة نفسية ميتة. إن كل ما لم يقم الإنسان بتصريفه في الطفولة يظهر في تصرفات الفرد دوماً في سن البلوغ.

وهكذا تكتمل دوامة العنف ولو لم يصبح جميع الأطفال الذين أسيء معاملتهم آباء فاسدين فيما بعد، إذ يمكن لكل واحد منا أن يصدّر للآخرين عنفه الداخلي. وتبين لنا «أليس ميلر»[1] أن الأطفال أو الضحايا ينسون مع الوقت العنف الذي تعرضوا له - يكفي نزع إرادة المعرفة منهم - ولكنهم يصدّرون هذا العنف على الذات أو على الآخرين.

ولا ينقل الآباء لأولادهم صفات إيجابية من قبيل الشرف واحترام الآخرين فحسب بل يمكن أن يعلموهم الحذر وانتهاك القوانين والقواعد تحت غطاء الشطارة. إنه أسوأ قانون، ففي الأسر التي يسود فيها الفساد قد نجد جَدّاً ظالماً معروفاً من الجميع يأخذ صورة البطل بفضل مهارته، ولا يخجلون منه لأنه انتهك القانون بل لأنه لم يكن حاذقاً بما يكفي لعدم إلقاء القبض عليه.

المحرّم الخفي

وإلى جانب العنف الفاسد الذي يقوم على تحطيم شخصية الطفل، نصادف عائلات يسود فيها جو غير صحي يقوم على نظرات مبهمة ومداعبات طارئة وتلميحات جنسية، ففي هذه العائلات لا يتم احترام الفوارق بين الأجيال بدقة، وليس هناك من حدود ما بين المبتذل والجنسي، ولا يتعلق الأمر بارتكاب حقيقي للمحرمات بل بما سماه «راكامييه» «الحراموي»[2]: «الحراموي جو نشم فيه رائحة المحرَّم من دون أن يحصل»، وهذا ما سميته «المحرَّم الناعم»، حيث لا نجد ما يمكننا أن نشتكي منه إلى القضاء نظراً لأن العنف الفاسد موجود هنا من دون دلائل واضحة.

١ـ ميلر، معاناة الطفل الصامتة، الترجمة الفرنسية، أوبييه، باريس ١٩٨٨.

٢ـ راكامييه، الحرام والحراموي، منشورات كولاج، باريس ١٩٩٥.

أم تروي لابنتها ذات الاثني عشر عاماً عجز زوجها الجنسي وتقارن قدراته بقدرات عشاقها.

أب يطلب من ابنته أن يستخدمها غطاء فيصطحبها وتنتظره في السيارة عندما يذهب لرؤية عشيقاته.

أم تطلب من ابنتها ذات الأربعة عشر عاماً أن تفحص لها أعضاءها التناسلية لترى إذا ما كان هنالك احمرار «على كل حال نحن نسوة ونعرف بعضنا».

أب يغوي رفيقات ابنته ذات الثمانية عشر عاماً ويداعبهن بحضورها.

تحمل هذه المواقف جواً من تواطؤ غير صحي لا يتم فيه احترام الحدود بين الأجيال، فلا يترك الأطفال في مكانهم بل يستدرجهم البالغون ليكونوا شهوداً على حياتهم الجنسية. وفي الغالب تُقدَّمُ هذه الاستعرائية على أنها طريقة حديثة في العيش «على الموضة»، فلا تستطيع الضحية أن تدافع عن نفسها فإذا احتجت يقال لها: «كم أنت متزمتة!». إنها ملزمة إذن بأن تخدع نفسها وتقبل، تحت طائلة الجنون، مبادئ شعرت بأنها غير صحية أول الأمر. ومن المستهجن أن يترافق هذا الموقف الليبرالي أحياناً مع مبادئ تربوية صارمة من قبيل الحفاظ على عذرية الفتاة. إن العنف الفاسد يمنع الضحية من أن ترى الأشياء بوضوح ويحول بالتالي دون قدرتها على إنهائه.

قد تكون العلاقة الفاسدة في قوام الحياة الزوجية ذلك أن الشريكين قد اختار كل منهما الآخر، في حين أنها ليست في أساس العلاقة في المؤسسة. وحتى لو كان السياق مختلفاً، إلا أن الأمر يتعلق مع ذلك بآلية مشابهة. وهكذا يمكننا أن نستعين إذن بالنموذج الظاهر في الحياة الزوجية لفهم بعض السلوكيات التي تتم في المؤسسة.

ففي المؤسسة ينجم العنف والتحرش عن التقاء الفساد مع الرغبة في السلطة. فقلما نجد فيها حالات الفساد الكبيرة المدمرة، لكننا نجد حالات فساد يومية صغيرة لا تولى الاهتمام الكافي.

وفي عالم العمل والجامعات والمؤسسات تكون أساليب التحرش أكثر قولبة مما هي عليه في الدائرة الخاصة. وهي ليست أقل تدميراً، حتى لو كان الضحايا قد تعرضوا لها لفترة أقصر طالما أنهم يختارون الرحيل في الغالب (الانقطاع المرضي أو الاستقالة) كي يحافظوا على سلامتهم. وفي الدائرة العامة أيضاً (في عالم العمل والسياسة والشركات) تم فضح هذه الأساليب لأول مرة على يد ضحايا تعاضدوا فيما بينهم، مثل عاملات مصنع «ماريفلو» اللواتي أخطرن العالم بأن الحالة التي كن يعشنها لم تكن لتطاق.

التحرش في المؤسسة

ما المقصود؟

يقصد بالتحرش في مكان العمل كل سلوك متعسف يظهر بصورة خاصة في تصرفات وأقوال وأفعال وحركات وكتابات يمكن أن تنال من شخص ما في شخصيته وكرامته وسلامته البدنية أو النفسية، معرضة بذلك وظيفته للخطر أو مفسدة جو العمل.

وعلى الرغم من أن التحرش في العمل ظاهرة قديمة قدم العمل نفسه، إلا أنه ظل حتى بداية هذا العقد حيث تم تعريفه على أنه ظاهرة تدمر جو العمل وتنقص إنتاجيته وتشجع التغيب عبر الأضرار السيكولوجية التي تستجرها. وقد درست هذه الظاهرة بصورة خاصة في البلاد الأنجلو سكسونية وبلاد الشمال حيث نعتت بكلمة mobbing - المشتقة من كلمة mob التي تعني: جماعة، رهط، دهماء، ومنها فكرة الإزعاج - وقد بحث «هنز ليمن»[1] الباحث في سيكولوجيا العمل والممارس في السويد في هذا السياق الذي وصفه بالرعب السيكولوجي «psychoterreur» لدى مجموعات مهنية مختلفة منذ نحو عشر سنوات. وفي العديد من البلدان بدأت الآن النقابات وأطباء العمل وصناديق التأمين ضد المرض تهتم بهذه الظاهرة.

وفي فرنسا طرحت في السنوات الأخيرة مسألة التحرش الجنسي في المؤسسات وفي وسائل الإعلام، وهو التحرش الوحيد الذي يأخذه التشريع الفرنسي بالحسبان، علماً بأنه لا يشكل سوى أحد مظاهر التحرش بالمعنى الواسع للكلمة.

١- ليمن، Mobbing، الترجمة الفرنسية، منشورات سوي، باريس ١٩٩٦.

تجمع هذه الحرب السيكولوجية في مكان العمل ظاهرتين:

- التعسف في استخدام السلطة الذي سرعان ما ينكشف والذي لا يقبل به الأجراء بالضرورة.

- التلاعب الفاسد الأكثر دهاءً في التخفّي والذي يسبب أضراراً بالغة.

يبدأ التحرش بشكل خفي وينتشر بمكر، إذ لا يستاء منه الأشخاص المعنيون ولا يكترثون للمعاكسات والوخزات للوهلة الأولى، ثم تتضاعف هذه الهجمات فتضيِّق الخناق على الضحية بانتظام وتضعها في حالة دونية، وتجعلها خاضعة لمناورات معادية مذلة لفترة طويلة.

ونحن لا نموت من كل هذه الاعتداءات بصورة مباشرة، ولكننا نفقد قسماً من ذاتنا، فنعود كل مساء متعبين منهكين ذليلين، فيصعب علينا النهوض من جديد.

ومن الطبيعي أن تظهر النزاعات في حياة فريق العمل، ولا يمكن لملاحظة جارحة تقال في لحظة غضب أو مزاج سيئ أن تكون مهمة لا سيما إذا ما تبعها اعتذار. إن تكرار إغاظة الآخر وإذلاله من دون أي جهد لتخفيفها هو ما يشكل الظاهرة المدمرة.

عندما يظهر التحرش يكون مثل آلة تدور ويمكنها أن تسحق كل شيء. إنها ظاهرة مرعبة لأنها لا إنسانية، فلا تبكيت ضمير ولا شفقة. ويفضل المحيط المهني أن يبقى على الحياد جبناً أو أنانية أو خوفاً. وعندما توجد هذه الصيغة من العلاقة المتبادلة المدمرة وغير المتكافئة، تأخذ بالاتساع إذا لم يتدخل شخص من الخارج بقوة. وفي الواقع أننا نميل إلى المبالغة في تقييم الوضع الذي نعيش فيه عند الأزمات، فالمؤسسة الصارمة تصبح أكثر صرامة، والموظف المكتئب يصبح أكثر اكتئاباً، والعدواني أكثر عدوانية، الخ. كما أننا نضاعف ما في أنفسنا، فيمكن لموقف متأزم أن يحفِّز الفرد ويقوده لأن يعطي أفضل ما لديه بغية إيجاد الحلول، في حين يجنح موقف عنف فاسد لتخدير الضحية التي لا تبدي مذّاك إلا أسوأ ما لديها.

يتعلق الأمر بظاهرة دائرية. فلا فائدة من أن نبحث عمن كان في أصل النزاع، حتى أنه يتم نسيان أسبابه. وإن توالي تصرفات المعتدي المتعمدة بغية إثارة الجزع لدى

الضحية يولد لديها موقفاً دفاعياً مما يدفع المعتدي للقيام باعتداءات جديدة، وبعد وقت ما من تطور النزاع تتشكل مظاهر رهابية متبادلة: إن رؤية الشخص المكروه يثير حنقاً بارداً لدى المعتدي، كما أن رؤية المضطهِد تثير ظاهرة الخوف لدى الضحية. إنه منعكس شرطي هجومي أو دفاعي، إن خوف الضحية يفضي إلى تصرفات مرضية تستخدم حجة لتبرير العدوان عليها بأثر رجعي، فهي تتصرف على الأغلب بطريقة حانقة ومشوشة، ومهما اجتهدت، ومهما فعلت، فإن المضطهد يعيد الضربة عليها بحيث تهدف مناورته إلى الإيقاع بها ودفعها إلى ارتكاب الخطأ وإلى حالة من التشوش التام.

وحتى لو كان التحرش أفقياً (زميل يعتدي على زميل آخر)، فإن القيادة لا تتدخل، فهي ترفض أن ترى ما يتم أو أنها تترك الأمور تسير على هواها، وهي لا تنتبه للمشكلة أحياناً إلا عندما ترد الضحية بطريقة مرئية جداً (أزمة عصبية، بكاء...) أو عندما يزداد انقطاعها عن العمل. وفي حقيقة الأمر يتدهور النزاع لأن المؤسسة ترفض أن تتدخل فيه: «أنتم كبار بما يكفي لتسوية مشكلاتكم بأنفسكم!»، حينذاك لا تشعر الضحية بوجود من يدافع عنها، بل تشعر بخداع أولئك الذين يشهدون هذا العدوان ولا يتدخلون فيه، ونادراً ما تطرح القيادة حلاً مباشراً، وجوابها بالأحرى: «سنرى فيما بعد»! وفي أفضل الأحوال لا يصل الحل المطروح إلى أكثر من النقل إلى عمل آخر دون أخذ موافقة الطرف المعني. لو كان أحد ما يتدخل بشكل سليم في لحظة ما من سياق التحرش لتوقف هذا السياق.

من المستهدَف؟

وعلى العكس، ليس الضحايا في أول الأمر أشخاصاً ضعفاء أو مصابين بأي مرض على الرغم من سعي المعتدين لإشاعة مثل الاعتقاد، إذ من الشائع أن يحصل التحرش، على النقيض من ذلك تماماً، عندما ترد الضحية على استبداد الرئيس وترفض أن تستسلم للاستعباد، إن ما يحددها هدفاً يسدد الفاسد عليه إذن هو قدرتها على مقاومة السلطة على الرغم من الضغوطات الكبيرة.

قبل أن يصبح التحرش ممكناً، يقوم الفاسد بالانتقاص من قيمة الضحية انتقاصاً تقبل به مجموعة العمل ثم تتبناه، وهذا الانتقاص يبرر لاحقاً الخشونة التي تعامل بها الضحية ويقود إلى الاعتقاد بأنها تستحق ما يحصل لها.

وليس الضحايا مع ذلك أناساً يتهربون من العمل، بل نجد بينهم على العكس من ذلك شخصيات مهووسة تبدي «حضوراً مرضياً»، فهؤلاء العاملون الذين لديهم هم مرضي في بلوغ الكمال يسخرون أنفسهم بالكامل للعمل ويرغبون في أن يكونوا معصومين عن الخطأ، فهم يظلون في مكاتبهم لوقت متأخر ولا يترددون في المجيء للعمل في عطلة نهاية الأسبوع بل يذهبون للعمل أيضاً حتى لو كانوا مرضى. وفي هذا الشأن يستخدم الأمريكان عبارة «مدمن العمل» workaholic ليظهروا أن الأمر يتعلق بنوع من التعلق. ولا يرتبط هذا التعلق فقط باستعداد طبيعي لدى الضحية بل هو بصورة خاصة نتيجة سطوة المؤسسة على العاملين.

ومن آثار الفساد على حماية الأشخاص في المؤسسة أن المرأة الحامل لا تستطيع أن تحصل على إجازة، فما إن تعلن موظفة متفانية في العمل عن حملها حتى تتم عملية التحرش، فهذا يعني بالنسبة لرب العمل: إجازة أمومة، انصراف مبكر في المساء كي تحضر طفلها من الحضانة، غياب بسبب مرض الطفل... بالاختصار يخشى ألا تكون هذه الموظفة المثالية تحت تصرفه بالكامل.

وما إن تحصل عملية التحرش حتى يتم وصم الضحية، فيقال أنها صعبة المراس سيئة المزاج أو أنها مجنونة، فيتم تحميلها مسؤولية نتيجة الصراع حتى أنه يتم نسيان ما كانت عليه أو ما يمكن أن تكون عليه في ظرف آخر. والشخصية التي تتعرض للتحرش لا يمكنها أن تقدم أقصى قدرتها، فهي شاردة وغير فاعلة وعرضة للانتقاد حول نوعية عملها مما يسهل الاستغناء عنها نتيجة عدم الكفاءة أو نتيجة خطأ مهني.

وإن الحالة الخاصة للذهانيين الصغار الذين يزعمون أنهم ضحايا يجب ألا تعمينا عن وجود ضحايا حقيقيين للتحرش، فالذهانيون أشخاص مرعبون عنيدون يدخلون بسهولة في نزاع مع محيطهم لا يقبلون أي نقد ويشعرون بأنهم مرفوضون بسهولة. وبعيداً عن كونهم ضحايا هم معتدون بالإمكان يمكننا الاستدلال عليهم من طباعهم الصارمة وغياب الشعور بالذنب.

من يعتدي على من؟

ليس سلوك مجموعة ما محصلة لسلوكيات أفرادها، فالمجموعة كيان جديد له سلوكياته الخاصة. وقد أقر «فرويد» ذوبان الأفراد في المجموعة ورأى فيه مماثلة مضاعفة، أفقية بالنسبة إلى الرهط (المجموعة) وعمودية بالنسبة إلى الرئيس.

زميل يعتدي على زميل آخر

تجنح المجموعات إلى تماثل الأفراد وبالكاد تطيق الاختلاف (امرأة في مجموعة رجال، رجل في مجموعة نساء، لوطية، تباين عرقي، ديني أو اجتماعي). ففي بعض الهيئات المهنية المخصصة تقليدياً للرجال ليس من السهل على المرأة أن تفرض احترامها عند وصولها للعمل في هذه الهيئة. إذ يقابلونها بنكات سمجة وحركات فاحشة وازدراء لكل ما يمكن أن تقول، ورفض لأخذ عملها بالحسبان. ويبدو ذلك على أنه «تزريك»، فيضحك الجميع بما فيهم النساء الحاضرات، إذ ليس أمامهن من خيار آخر.

أصبحت «كاتي» مفتشة في الشرطة بموجب مسابقة خارجية، وهي تأمل أن تنجح في عملها وتستطيع الانخراط في فرقة الألغام على الرغم من أن النساء لا يمثلن إلا نسبة السبع في ملاك الشرطة. وما إن حصل أول سوء تفاهم مع أحد زملائها حتى أقفل النقاش قائلاً لها: «أنت مجرد ثقب يسير على قدمين!»، مما أضحك الزملاء الآخرين إلى حد المبالغة، أما هي فلم تستسلم بل غضبت واحتجت، وانتقاماً منها قاموا بعزلها وبمحاولة الانتقاص من قيمتها بالنظر إلى المفتشات الأخريات: «هؤلاء نساء كفوءات لا يتصنّعن!»، وعندما يطلب منهم التدخل، يتحرك الجميع ولا يشرحون لها شيئاً، وحين تطرح الأسئلة عليهم «أين؟ متى؟ كيف؟ في أي إطار قانوني؟» لا يجيبونها: «أنت لا تحسنين التصرف على كل حال، ينبغي عليك أن تظلي هنا وتصنعي القهوة»!

كما أنها لم تنجح في الحصول على موعد مع رئيسها كي تناقش الأمر معه، كيف تنطق بشيء لا يريد أن يسمعه أحد؟ ينبغي عليها أن تخضع أو تقاوم المجموعة، وحين تفقد أعصابها يقال بأنها مزاجية، وقد أصبحت هذه السمة تلازمها في كل تنقلاتها.

وبعد أن انتهى دوامها ذات مساء تركت سلاحها كالعادة في درج ذي مفتاح. وعندما وجد الدرج مفتوحاً في اليوم التالي، تم توجيه ملاحظة إليها. كانت تعلم أن شخصاً واحداً بإمكانه أن يفتح درجها، لذا طلبت أن تقابل المفوض بغية طرح الأمور بتفاصيلها، فاستدعاها مع زميلها المشتبه به وتحدث عن عقوبة تأديبية، وأثناء الحديث «نسي» المفوض أن يتحدث عن المشكلة التي اجتمعوا من أجلها وراح يوجه لها نقداً مبهماً يتعلق بعملها، ثم ضاع التقرير.

وبعد عدة شهور، وعندما وجدت صديقها وزميلها منتحراً برصاصة في رأسه لم يأت أحد لمواساتها، بل أخذوا يتهكمون على رخاوتها حين أخذت إجازة مرضية لبضعة أيام «ألستِ من عالم الرجال!».

تبدو عدة مؤسسات غير قادرة على حمل أفرادها على احترام حقوق الفرد الدنيا، وتسمح للتمييز العنصري والجنسي أن يتطورا بداخلها.

وأحياناً يكون سبب التحرش شعور بالحسد تجاه فرد يملك شيئاً لا يملكه الآخرون (جمالاً، شباباً، غنىً، تميُّزاً في المعاملة)، وهذه هي الحالة أيضاً لدى الشباب الحاصلين على الشهادات العليا والذين يشغلون مركزاً يكونون بموجبه رؤساء على من لا يتمتعون بنفس المستوى العلمي.

سيسيل امرأة جميلة وطويلة عمرها خمسة وأربعون عاماً، متزوجة من مهندس معماري وأم لثلاثة أطفال. وقد ألزمتها الصعوبات المهنية التي يواجهها زوجها لأن تبحث عن عمل لتسديد أقساط الشقة. واحتفظت من تربيتها البرجوازية بأناقة الملبس ولباقة التعامل وسهولة استخدام اللغة. ومع ذلك، وكونها لا تحمل مؤهلاً علمياً، فقد عينت في وظيفة

هامشية تقوم على تصنيف الملفات بأجر زهيد. منذ وصولها إلى المؤسسة قام زملاؤها بعزلها، وراحوا يكثرون من ملاحظاتهم البسيطة المزعجة: «لا يمكن لمن تحصل على مرتبك أن ترتدي مثل هذه الملابس»! وزاد في تنشيط هذا السياق مجيء رئيسة جديدة وهي امرأة جافة وحسودة، فسحبت منها المهمات الأخيرة التي كان لها مقابل مادي ما، فوجدت نفسها مجرد خادمة ذليلة. وعندما كانت تحاول أن تحتج، يجيبونها: «للسيدة متطلباتها وهي لا تريد أن تمارس الأعمال الوضيعة»! وليست سيسيل متأكدة مما يحصل لها كون ثقتها بنفسها معدومة، وقد حاولت في البدء أن تظهر حسن نيتها بقبولها أسوأ المهمات، ثم راحت تذنّبُ نفسها: «إنها غلطتي، لا بد من أنني لم أكن ماهرة»! وفي المرات النادرة التي غضبت فيها، كانت رئيستها تسترعي انتباهها بطريقة باردة إلى أنها مجرد امرأة مزاجية.

حينئذ صمتت سيسيل واكتأبت، وفي البيت لم يسمع زوجها شكواها كون عملها لا يؤمن سوى أجر مساعد بسيط. أما طبيبها العام الذي شكت له تعبها وإحباطها ونقص اهتمامها فقد كنس المشكلة بسرعة واصفاً لها «بروزاك»، وفيما بعد دهش من عدم فاعلية وصفته ولما يئس من الأمر وجهها إلى طبيب نفسي.

ويمكن أن يعود مصدر الاعتداءات بين الزملاء إلى العداوات الشخصية المرتبطة بتاريخ أحدهم، أو إلى التنافس حين يحاول الواحد أن يجعل لنفسه قيمة على حساب الآخر.

منذ عدة سنوات ترتبط «دونيز» بعلاقة سيئة مع زميلة لها في العمل كانت عشيقة زوجها السابق. وقد قادها هذا الموقف غير المريح إلى أول اكتئاب. ولتهرب من هذا اللقاء طلبت عملاً آخر لكن طلبها لم ينجح. بعد ثلاث سنوات. وفي أعقاب تغيير إداري، وجدت «دونيز» نفسها تحت أمرة هذه المرأة مباشرة، فراحت هذه تذلها يومياً مزدرية

عملها وساخرة من أخطائها، فبدأت تشك بقدرتها على الكتابة والحساب واستخدام الحاسب الآلي. وبمقابلها لم تجرؤ «دونيز» على أن تدافع عن نفسها وراحت ترد بالانطواء على نفسها مضاعفة أخطاءها، مما عرَّض عملها للخطر. وحاولت أن تقابل رئيس رئيستها كي تحصل على نقل، فقيل لها بأنه تم إجراء اللازم، ولم يتغير أي شيء.

ثم انقطعت عن العمل بموجب إجازة مرضية بسبب الجزع والاكتئاب. خارج نطاق العمل يتحسن حالها ولكنها تعاود السقوط ما إن تستأنف العمل. ولمدة عامين ظلت تتنقل بين الإجازة المرضية والسقوط. وقام طبيب العمل المعالج بكل ما يمكنه لحل المشكلة لكن الإدارة لم ترد أن تعرف أي شيء. ومن واقع شكواها وكثرة غيابها المرضي اعتبرت «مشوشة عقلياً». لا يوجد حل بالنسبة لها. فانقطاع «دونيز» عن العمل يمكن أن يستمر حتى العجز، ولكن تقرير الخبرة أشار إلى أن الطبيب المستشار لدى الضمان الاجتماعي قد اعتبر حالتها تسمح لها باستئناف عملها.

وكي لا تعود إلى هذا المكتب الذي تعاني فيه الأمرِّين نظرت «دونيز» في تقديم استقالتها، ولكن ماذا تعمل وهي في الخامسة والأربعين ومن دون مؤهلات؟ إنها تتحدث الآن عن الانتحار.

وتبدو المؤسسات خرقاء إذ يصعب عليها أن تسوس النزاعات بين الزملاء. ويحصل أن تأتي مساندة الرئيس لأحدهم لتعزز من هذا السياق: فيكون هناك همهمات تتحدث عن المحاباة أو الحظوة الجنسية.

وإن عدم كفاءة الرؤساء الصغار تعزز في الغالب من هذا السياق أيضاً. وفي الواقع أن عدداً كبيراً من الرؤساء ليسوا مديرين ناجحين، ففي فريق ما يتم اختيار المسؤول الكفء على الصعيد المهني ولا يختار من يجيد الإدارة بشكل أفضل. ومن جهة أخرى، وحتى لو كان المسؤولون أكفاء جداً، فهم لا يعرفون

كيف ينشطون المجموعة ولا ينتبهون للمشكلات الإنسانية التي تفرضها مسؤولياتهم. زد على ذلك أنهم إذا انتبهوا لها، فهم غالباً ما يخافون منها ولا يجيدون التدخل. وإن عدم الكفاءة هذه عامل مقوٍ لحصول التحرش لأنه عندما يكون المتحرش زميلاً فيجب أن يكون أول طرف يستنجد به هو المسؤول الأعلى أو المستوى الأعلى. وإذا لم يكن هناك جو من الثقة فمن المستحيل طلب العون من الرئيس. عندما يجنح كل واحد لأن يختبئ وراء الآخرين لا بسبب عدم الكفاءة بل بسبب اللامبالاة أو الجبن.

مرؤوسون يعتدون على رئيسهم

إن هذه الحالة نادرة جداً، فقد يكون الرئيس شخصاً قادماً من الخارج فتستهجن الجماعة أسلوبه وطريقته، في حين لا يقدم هو أي جهد في سبيل التكيف معها أو في سبيل فرض شخصيته، وقد يكون الرئيس زميلاً قديماً تمت ترقيته من دون أخذ رأي الهيئة. وعلى كل حال، عندما لا تأخذ الإدارة بالحسبان، وبما فيه الكفاية، رأي الملاك الذي سيعمل هذا الرئيس معه.

وتتعقد المشكلة حين لا يكون هناك تصور مسبق لأهداف الهيئة وحين تطال مهمات الشخص الذي ترقّى مهمات أحد مرؤوسيه.

كانت «موريال» سكرتيرة مساعدة لمدير مجموعة كبيرة، ثم حصلت على وظيفة ذات مسؤولية أعلى في هذه المجموعة بسبب عملها الدؤوب ودروسها المسائية في «السنام» SNAM على مدار عدة سنوات.

عندما استلمت وظيفتها وجدت نفسها فوراً عرضة لعداوة السكرتيرات اللاتي عملت معهن لعدة سنوات خلت، فهن لا يقمن بإيصال البريد لها، ويُضيعنَ الملفات، ويتصنتن على مكالماتها التلفونية الخاصة، ولا يقمن بإيصال الرسائل لها... اشتكت «موريال» لرئيسها الذي أجابها بأنها إذا لم تفرض احترامها على السكرتيرات فهذا يعني أنها لا تستحق أن تكون كادراً، ثم تم اقتراح نقلها لوظيفة ذات مسؤوليات أدنى.

رئيس يعتدي على المرؤوس

إن هذا الموقف شائع جداً حالياً في سياق يتم فيه إقناع العاملين بأن عليهم أن يكونوا مستعدين لقبول أي شيء بغية الاحتفاظ بعملهم، فتترك المؤسسة فرداً يدير مرؤوسيه بطريقة مرعبة أو فاسدة لا تكترث لها متذرعة بالتنظيم، وتكون النتائج ثقيلة جداً على المرؤوس.

- ربما يكون الأمر مجرد تعسف في استخدام السلطة: رئيس يستفيد من موقعه بطريقة مبالغ فيها ويتحرش في المرؤوسين خوفاً من أن يفقد السيطرة عليهم، وهذه هي سلطة صغار المسؤولين.

- وربما يكون مناورة فاسدة لفرد يحتاج لتحطيم الآخرين كي يرفع من قدره، أو أنه يحتاج إلى تحطيم فرد يختاره كبش فداء كي يشعر بوجوده هو. وسوف نرى كيف يمكن تفخيخ العامل بالأساليب الفاسدة.

كيف يتم منع الضحية من ردة الفعل

إن الخوف من البطالة لا يفسر لوحده إذعان ضحايا التحرش، إذ يستخدم المتحرشون من أرباب العمل والرؤساء الصغار الطامحين إلى السلطة المطلقة، أساليب فاسدة تقيِّد الضحايا نفسياً وتمنعهم من ردة الفعل. وقد استخدمت هذه الأساليب نفسها الشبيهة بالأشراك في معسكرات الاعتقال ولا تزال ضرورية في الأنظمة الشمولية.

فمن أجل المحافظة على السلطة والتحكم بالآخر، تستخدم أساليب تافهة تصبح عنيفة أكثر فأكثر إذا قاوم الموظف. ففي المرحلة الأولى يُسْحَبُ منه أي حس نقدي بحيث لا يعلم بعد ذاك مَن على خطأ ومن على صواب، فيتم إجهاده وإهانته ومراقبته وتوقيته كي يظل محترساً بصورة دائمة، ولاسيما أنهم لا يقولون له شيئاً يجعله يفهم ما يحصل، فيصبح مطيعاً أكثر ولا يفصح عن عدم قدرته على التحمل. ولا تتغير الأساليب مهما كانت نقطة البداية وأياً كان المعتدي: لا يتم تحديد المشكلة بل يتم التصرف بطريقة مبهمة كي يتم استبعاد الشخص بدلاً من حل المشكلة. ويتم تعزيز هذا السياق على يد الجماعة التي تشهد أو حتى تساهم في هذه الظاهرة.

ويمر التحرش في المؤسسة بعدئذ في مراحل مختلفة تشترك بنقطة واحدة هي رفض الاتصال.

رفض الاتصال المباشر

لا يتم تحديد النزاع ولكن يتم تحريكه يومياً بمواقف تقوم على الازدراء، إذ يرفض المعتدي أن يفسر موقفه. إن هذا الرفض يشل الضحية التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها، مما يتيح استمرار العدوان، فحين يرفض المعتدي تحديد النزاع ومناقشته، يمنع بذلك نقاشاً قد يفضي إلى حل، ففي سجل الاتصال الفاسد يجب منع الآخر من التفكير والفهم وردة الفعل.

إن التملص من الحوار طريقة ماهرة لتعزيز النزاع عبر تسجيله في حساب الآخر. إنها طريقة تقول، من دون كلام، إن الآخر لا يهمني أو حتى إنه غير موجود. وبما أنه لم يقل شيئاً فعلاً، يمكن لوم الضحية على كل شيء.

ويتعزز النزاع أيضاً عندما يكون لدى الضحية ميل لتذنيب نفسها: «ماذا فعلت له؟ على ماذا يلومني؟».

عندما يكون هناك لوم يكون ضبابياً أو غير دقيق مما يفسح المجال لكل التفسيرات ولكل أشكال سوء الفهم. وفي أحيان أخرى يكون اللوم بصيغة لامعقولة بغية تفادي أي جواب: «يا صغيرتي العزيزة، أقدرك عالياً، لكنك لاشيء!».

وبهذا لا تفضي كل محاولات التفسير إلا إلى لوم مبهم.

الازدراء

لا يتم العدوان بشكل صريح، مما قد يتيح إمكانية الجواب، بل يمارَس بطريقة مستورة في قاموس الاتصال اللا شفاهي: تنهدات مفرطة، هز الكتفين، نظرات مزدرية، أو حتى في الصمت والتضمين والتلميحات المزعزعة أو العدائية والملاحظات الفظة... وبذلك يمكن زرع الشك في قدرات العامل المهنية عبر التشكك في كل ما يقول أو يفعل.

وطالما أن هذه الاعتداءات ليست مباشرة، فمن الصعب على الضحية أن تدافع عن نفسها. كيف يمكننا أن نصف نظرة مليئة بالكراهية؟ كيف يمكننا أن نروي

التضمين أو الصمت؟ حتى أن الضحية نفسها تشك أحياناً في إدراكاتها فلا تكون واثقة من عدم مبالغتها في إحساساتها. وبذلك يقودها المعتدي لأن تشك في نفسها. وإذا كان العامل يعاني من نقص في الثقة بنفسه، مهما كان هذا النقص صغيراً، فإن هذه العبارات تجد صدى لها لديه وتفضي إلى أن يفقد الثقة بنفسه بشكل كامل وإلى أن يكف عن الدفاع عن نفسه.

يقوم الازدراء أيضاً على عدم النظر للآخر، على عدم إلقاء التحية عليه، وعلى الحديث عنه كما لو أنه شيء (لا أحد يحدِّث الأشياء!)، وعلى أن تقول لشخص آخر أمام الضحية: «أرأيت، لا بد من أن يكون المرء متخلفاً كي يرتدي مثل هذه الملابس!»، وفي ذلك نفي لوجود الضحية في عدم توجيه الكلام إليها، أو في الإفادة من غيابها خمس دقائق لوضع ملف على طاولتها عليه تعليمات مكتوبة بدلاً من طلب العمل منها بشكل مباشر.

إنها أيضاً انتقادات غير مباشرة مخفية وراء مزحات أو نكات أو سخرية، فيمكن أن يقال بعد ذلك: «إنها مزحة ولا أحد يموت من مزحة!» إنها لغة فاسدة، فكل كلمة تخفي سوء فهم يرتد على الضحية المحددة.

إساءة السمعة

يكفي لذلك زرع الشك في رؤوس الآخرين: «ألا تعتقد أن...». ويمكن بعد ذلك بخطاب مغلوط يقوم على مزيج من التضمين والصمت إشاعة سوء فهم يستغله المعتدي لمصلحته.

وبغية هزم الآخر نذله، نسخر منه ونجعله أضحوكة حتى يفقد الثقة بنفسه، ثم نطلق عليه لقباً مضحكاً ونسخر من عجز أو عاهة لديه، ونستخدم النميمة والكذب والتضمين العدائي، ونتصرف بحيث تدرك الضحية ما يحصل من دون أن تستطيع أن تدافع عن نفسها إزاء ذلك.

وتأتي هذه المناورات من زملاء حسودين يريدون أن يتملصوا من موقف مربك فيجدون من الأسهل عليهم إلقاء الخطأ على الآخر، أو تأتي أيضاً من مديرين يظنون بأنهم يحفِّزون العاملين عبر انتقادهم بصورة دائمة وعبر إذلالهم.

وحالما تنفجر الضحية أو تثور أو تكتئب، يجد المعتدي ما يبرر التحرش: «هذا لا يدهشني، إن هذا الشخص مجنون حقاً»!

العزل

عندما نقرر أن نحطم العامل نفسياً ينبغي أولاً عزله عبر تفكيك تحالفاته الممكنة كي لا يستطيع الدفاع عن نفسه، فعندما يكون المرء وحيداً يصعب عليه كثيراً أن يتمرد، وبصورة خاصة إذا ما اعتقد أن الجميع ضده.

وعبر الإيحاءات أو التفضيل المعلن للبعض، يمكن إثارة الغيرة وجعل الناس بعضهم ضد بعض فيتم زرع الشقاق فيما بينهم، ويقوم الزملاء الحسودين في زعزعة الضحية مما يمكّن المعتدي الحقيقي من أن يقول إن الأمر لا يعنيه ولا دخل له فيه البتة.

عندما يتم الإقصاء من الزملاء، فهذا يعني أن يأكل المرء وحيداً في مطعم المؤسسة وألا توجه إليه الدعوة عندما يكون هناك وليمة...

وعندما يأتي العدوان من المسؤول الأعلى تحرم الضحية المحددة تدريجياً من أيّ معلومة، فتصبح معزولة ولا تدعى للاجتماعات. وتعرف مستقبلها في المؤسسة من خلال مدونة الخدمة، وفيما بعد توضع على الرف ويتم الحجر عليها، فلا تعطى عملاً في حين يغوص زملاؤها فيه، ولا يسمح لها مع ذلك بقراءة جريدتها أو بالخروج باكراً.

وقد حصل في مؤسسة كبيرة مؤممة أن وُضع كادر إداري يراد التخلص منه، من دون إخطار، في مكتب جميل منعزل، من دون مهمة ولا اتصال، مع هاتف لا يرتبط بأي خط. وبعد مرور زمن على هذا النظام فضّل هذا المدير أن ينتحر.

إن الحجر يولد الإجهاد أكثر بكثير مما تولده زيادة العمل، ويصبح مدمراً بسرعة. ويجد المديرون سهولة باستخدام هذه المنظومة لحمل شخص لم يعودوا بحاجة إليه على الاستقالة.

القهر

وهذا يقوم على أن يعهد إلى الضحية مهمات عبثية أو وضيعة. هكذا وجدت «دونيز» نفسها، وهي الحاصلة على شهادة «الميتريز»، تلصق المظاريف في مكان ضيق وسيئ التهوية.

كما يقوم أيضاً على تحديد أهداف يستحيل بلوغها مما يلزم الضحية بالبقاء لوقت متأخر في المساء، وبالعودة في عطلة نهاية الأسبوع لترى أخيراً هذا التقرير العاجل جداً مرمياً في الزبالة.

ويمكن أن تكون الاعتداءات جسدية أيضاً، ولكن بطريقة غير مباشرة: إهمال يوقع حوادث، أشياء ثقيلة تسقط على أقدام الضحية كما لو كان الأمر بمحض المصادفة.

دفع الآخر إلى الخطأ

هنالك طريقة ماهرة جداً لازدراء أحد ما تقوم على دفعه إلى الخطأ كي يمكن انتقاده أو الحط من قدره، بل كي يشكل صورة سيئة لنفسه. إنه من السهل جداً، بموقف احتقار أو إثارة، اقتياد شخص محرَّض إلى الغضب أو إلى تصرف عدائي مرئي من الجميع، مما يمكّن المعتدي من أن يقول لاحقاً: «أرأيتم هذا الشخص المجنون يشوش الدائرة تماماً».

التحرش الجنسي

ليس التحرش الجنسي سوى خطوة إضافية على التحرش الأخلاقي. وهو يعني الجنسين ولكن معظم الحالات الموصوفة أو المدافع عنها تتعلق بنساء يعتدي رجال عليهن، وفي الغالب يكون المعتدي هو الرئيس الأعلى.

ولا يتعلق الأمر بحصول المعتدي على حظوة ذات طبيعة جنسية بقدر ما يتعلق بتأكيد سلطته وباعتبار المرأة على أنها أداته (الجنسية). يعتبر المعتدي المرأة التي يتحرش بها جنسياً كأنها «تحت اليد»، إذ ينبغي عليها أن تقبل، بل عليها أن تفرح، وأن تشعر برفعة الشأن كونها قد «تم اختيارها». ولا يفكر المعتدي بأن المرأة التي يطمع فيها تستطيع أن تقول لا. وإذا فعلت ذلك من جهة أخرى، فسوف تعاني من الاعتداء والإذلال جراء ذلك. وليس من النادر أن يقول المعتدي إنها هي التي أغرته وإنها كانت موافقة على ذلك بل طالبة له.

لقد تم وصف أنواع مختلفة من المتحرشين - ويشترك الجميع في تصور مثالي عن الدور الذكوري المسيطر وفي مواقف سلبية إزاء النساء والحركة النسوية - وقد تم تحديد أصناف مختلفة من التحرش الجنسي[1]:

- التحرش المحدد على أساس الجنس، والذي يقوم على معاملة المرأة بصورة مختلفة لمجرد أنها امرأة مع ملاحظات وتصرفات تقوم على التمييز الجنسي.

- السلوك الذي يقوم على الإغراء.

- الابتزاز الجنسي (الوحيد الذي يعاقب عليه في فرنسا).

- الاهتمام الجنسي غير المرغوب فيه.

- الإكراه الجنسي.

- العدوان الجنسي.

منذ عام ١٩٧٦ ينظر النظام القضائي الأمريكي إلى التحرش الجنسي على أنه تمييز جنسي في حين أنه لا ينظر إليه في فرنسا على أنه جريمة إلا إذا احتوى على ابتزاز واضح تحت طائلة التسريح من العمل.

وفي استطلاع في الولايات المتحدة[2]، روى ٢٥٪ إلى ٣٠٪ من الطلاب أنهم كانوا ضحايا لحادثة واحدة على الأقل من حوادث التحرش الجنسي من قبل الأساتذة في الجامعة (تعليقات جنسية، نظرات موحية، مداعبات أو ملاحظات جنسية غير مناسبة).

بداية التحرش

إذا كان الفاسدون الكبار نادرين في المؤسسات، فهم خطيرون مع ذلك بسبب قدرتهم على الجذب وموهبتهم في جر الآخر إلى خارج حدوده.

إن الصراع على السلطة بين الأفراد المتنازعين مشروع إذا كان الأمر يتعلق بتنافس يجد كل واحد له فرصة فيه. ومع ذلك هناك بعض الصراعات غير مشروعة تماماً، وهذا ما يحصل في الصراع مع الرئيس الأعلى أو عندما يجعل فرد ضحيته في

١ـ فيتزجيرالد، التحرش الجنسي، منشورات جامعة ولاية نيويورك، ألباني.

٢ـ ماكيني و مارولز، ١٩٩١، ذكره بنيار في مجلة «الإجرام والطب العقلي»، باريس ١٩٩٧.

وضعية عاجزة كي يعتدي عليها لاحقاً من دون أن يلقى أي عقاب ومن دون أن تستطيع أن ترد على العدوان.

التعسف في استخدام السلطة

إن العدوان واضح هنا، وهو عدوان رئيس أعلى يحطّم الخاضعين لسلطته، وغالباً ما يكون ذلك وسيلة «الرئيس الصغير» الذي يبحث عن إيجاد قيمة لنفسه، فمن أجل أن يعوّض عن هشاشته الخاصة يحتاج لأن يسيطر، ويكون الأمر سهلاً بقدر ما يخاف المرؤوس من التسريح فلا يكون أمامه أي خيار آخر سوى الإذعان. وتبرر مسيرة المؤسسة، تلك المسيرة الحسنة المزعومة، تبرر كل شيء: دوام طويل غير قابل للنقاش، عمل إضافي ملح، متطلبات متناقضة.

إن الضغط على المرؤوسين بطريقة منهجية هو مع ذلك أسلوب غير فعال وقليل المردود لأن زيادة الإجهاد يمكن أن يحدث أخطاء مهنية ويقود إلى إجازات مرضية، واليد العاملة السعيدة هي الأكثر إنتاجية. وعلى الرغم من ذلك فإن الرئيس الصغير أو الإدارة يتصوران خطأً أنهما من خلال هذا الضغط يحصلان على المردود الأقصى.

وبصورة مبدئية لا يتم اللجوء إلى التعسف السلطوي ضد فرد بعينه، فالأمر يتعلق ببساطة بتحطيم الأضعف، ويمكن أن ينتقل في المؤسسات عن طريق التسلسل من أعلى مسؤول إلى أصغر رئيس.

إن تعسف الرؤساء في استخدام السلطة موجود منذ الأزل، لكنه غالباً ما يكون مقنّعاً في الوقت الحاضر، إذ يتحدث الرؤساء عن الاستقلالية وروح المبادرة لدى العاملين لكنهم لا يطلبون منهم في حقيقة الأمر سوى الخضوع والإذعان. ويعيش العاملون تحت وطأة هاجس يتعلق بتهديد استمرارية المؤسسة وبإمكانية التسريح وبالتذكير الدائم بالمسؤولية، أي بتجريمهم المحتمل.

تعمل «إيف» في تسويق منتجات مؤسسة أسرية منذ عام. إن إيقاع العمل سريع في هذه المؤسسة ولا تحسب الساعات الإضافية. وعندما يكون هناك معارض في عطلة نهاية الأسبوع، يطلب من العاملين الحضور إلى المكتب في الساعة الثامنة صباح يوم الاثنين.

رب العمل مستبد وغير مسرور البتة، فعلى الجميع أن يمتثلوا لإشارة من إصبعه أو غمزة من عينه. وإذا لم يجد كادره على أهبة الاستعداد يبدأ بالصراخ. وليس هنالك من وسيلة للدفاع: «عليك أن تنسحب إن لم تكن مسروراً»! هذه الاعتداءات الشفاهية تشل «إيف». ففي كل مرة تحس بأن الكيل يكاد أن يطفح مما يستوجب منها أن ترتدي مشداً على المعدة وأن تتناول المهدئات. وحين أتعبها الإنهاك حاولت أن تستعيد قواها عبر قضاء عطلة نهاية الأسبوع في النوم، ولكن نومها كان مضطرباً وقليل الفاعلية.

وبعد فترة ثقيلة مهنياً، تزايدت لديها أزمات الجزع، وراحت تنهمر دموعها من دون سبب، ولم تعد تأكل أو تنام، فمنحها طبيبها إجازة مرضية بسبب الاكتئاب. ولدى عودتها استقبلت ببرودة من زملائها الذين شككوا في حقيقة مرضها، ولم تجد مكتبها ولا حاسبها، إنما وجدت جو الرعب الذي تعرفه: توبيخ ظالم، صراخ، مهمات مخزية قياساً لمستوى كفاءتها، انتقادات منهجية لمردود عملها.

لم تجرؤ على أن تقول أي شيء وراحت تبكي في دورات المياه. في المساء تكون منهكة، وفي الصباح ما إن تدخل مكان العمل حتى تشعر بأنها مذنبة حتى لو لم تكن قد اقترفت أي ذنب لأن كل واحد في هذه المؤسسة في حالة من الاحتراس الدائم ومراقبة الذات.

تصف «إيف» عملها كأنه مصنع إجهاد، إذ يشكو جميع زملائها من أعراض جسدية نفسية: آلام في الرأس، آلام في الظهر، التهاب في القولون، أكزيما، ولكنهم كالأطفال المرعوبين لا يجرؤون على الشكوى مباشرة من رب العمل الذي لا يبدي أي اهتمام في أي حال من الأحوال.

بعد ستة أشهر من انقطاع «إيف» عن العمل تلقت طلباً لمقابلة تمهد للتسريح، وقد جاء ذلك إثر غياب يوم كانت تشعر فيه بالتعب أثناء معرض. كانت هذه الرسالة مِفْصَلاً بالنسبة لها، فلأول مرة شعرت

بالغضب والظلم وسوء نية رب العمل حيث قررت ألا تستسلم. وقد تصرفت على الرغم من شعورها بالذنب: «أتساءل لأيّ درجة قد تسببت في المشكلة».

لقد لجأت إلى الاستشارة وذهبت إلى المقابلة مصحوبة بمستشار عاملي من خارج المؤسسة. كان السبب الرئيس المقدم هو انعدام الثقة نظراً لإجازاتها المرضية المتعددة ولعدم إخطار رب العمل فوراً. سجَّل المستشار أن غيابها الأخير كان أثناء معرض في عطلة نهاية الأسبوع حين لا يمكن الاتصال برب العمل. ولا شيء مما قدمه رب العمل مسبقاً يمكن أن يشكل سبباً جدياً للتسريح. قال رب العمل بأنه سيفكر إذ لديه الوقت الكافي لذلك قبل أن يرسل كتاب التسريح.

ولكي يستطيع المرء أن يدافع عن نفسه بصورة فاعلة، ينبغي عليه أن يكون واثقاً من حقه، لذلك استفسرت «إيف» عن جميع حقوقها. وعرفت الأخطاء التي يجب ألا تقترفها أيضاً. ولو لم تصطحب المستشار معها أثناء المقابلة، لكان رب العمل قد أرعبها كما كان يفعل دوماً، قبل أن يمنحها «فرصة أخيرة» بلهجة ولي النعمة.

راحت «إيف» تنتظر كتابها الذي لم يأت مما جعلها تتابع عملها وتشعر ببعض السرور، ولكن جو الإجهاد كان ثقيلاً بحيث أنها لم تعد تنام وأخذت تشعر بالإنهاك. ومنذ المقابلة أصبح وضعها مزعجاً أكثر من ذي قبل، ففي كل يوم تتلقى فاكسات عليها تأنيب بسيط. وقال زملاؤها لها: «ما كان عليك أن تفعلي ذلك، فقد أججت غضبه»! وتوجب عليها أن تبرر نفسها إزاء كل شيء، وأصبحت حذرة بحيث راحت تحتفظ بصورة عن المراسلات المهمة. كما توجب عليها ألا تقترف خطأ وألا تجعل نفسها في الموقف الخطأ. وفي ساعة الغداء كانت تأخذ أوراقها الشخصية معها حتى أن زملاءها أخذوا يسخرون من ذهانها: «تذهبين إلى الغداء مع حقيبتك كتلميذة المدرسة»! وراح البعض منهم يرمي لها الملفات على مكتبها من دون أيّ كلمة. وإذا

احتجت يكون الجواب: «هل لديك مشكلة؟» وراحت «إيف» تتغابى كطفلة صغيرة كي لا تثير السخرية، أما رب العمل فكان يتجنبها ويرسل تعليماته لها كتابياً.

وبعد شهر استأنف إجراءات التسريح لأن موقف «إيف» لم يتغير على حد زعمه. وهذه المرة بما أن من الثابت بوضوح عدم وجود حجة للتسريح سوى أنه لا يطيقها، فاوض مستشار العمال على التسريح لأسباب اقتصادية، فوقّع رب العمل مذكرة تفاهم خوفاً من أن تلجأ «إيف» إلى محكمة العمل.

وبعد رحيلها علمت «إيف» أن خمسة من زملائها منهم ثلاثة كوادر سيرحلون أيضاً، أحدهم قدم استقالته لأنه وجد عملاً أفضل في مكان آخر، أما الأربعة الآخرون فقد استقالوا بكل بساطة وذهبوا من دون أيّ ميزة.

المناورات الفاسدة

عندما يدخل فرد فاسد إلى مجموعة، يميل إلى أن يحيط نفسه بالعناصر الأكثر طاعة من بين المجموعة ويقوم بإغوائهم. وإذا استعصى فرد على عملية التجنيد هذه تقوم المجموعة برفضه وتجعل منه كبش فداء، وهكذا تنشأ علاقة اجتماعية بين أعضاء المجموعة تقوم على تناول الشخص المعزول بالنقد المشترك عبر الهرج والمرج. وهكذا تقع المجموعة تحت تأثير الفاسد وتتبعه في الوقاحة وقلة الاحترام. ولا يفقد الأفراد بذلك أي حس أخلاقي فحسب بل يفقدون أي حس نقدي كونهم يرتبطون بفرد عديم الذمة.

لقد درس «ستانلي ميلغرام»، الاختصاصي الأمريكي في علم النفس الاجتماعي، ظواهر الخضوع للسلطة[1] ما بين عامي ١٩٥٠ و١٩٦٣. ويقوم منهجه على ما يلي: «يأتي شخص إلى المختبر النفسي حيث يطلب منه تنفيذ سلسلة من الأعمال تتنافى تدريجياً مع ضميره، ويكمن السؤال في معرفة إلى أيّ درجة سيتبع هذا

١- ميلغرام، الخضوع للسلطة، الترجمة الفرنسية، كالمن ليفي، باريس ١٩٧٤.

الشخص أوامر من يختبره قبل أن يرفض تنفيذ الأعمال المحددة». والنتيجة أنه مال للاعتقاد بأن «الناس العاديين المفتقرين لأيّ عداوة يقومون بمهمتهم بكل بساطة ويمكن لهم أن يصبحوا وكلاء لسياق تدميري فظيع». وقد تناول «كريستوف دوجور»[1] هذه الفرضية من جديد فتحدث عن ضرر الابتذال الاجتماعي، ففي الحقيقة هناك أفراد يحتاجون لسلطة عليا كي يشعروا بشيء من التوازن، ويفيد الفاسدون من هذه الوداعة فيستخدمونها لإلحاق الألم بالآخرين.

يكمن هدف الفاسد في الحصول على السلطة والاحتفاظ بها بأيّ وسيلة كانت، ولكنه يكمن أيضاً في إخفاء عدم كفاءته. ولذلك ينبغي عليه أن يتخلص من أي إنسان يشكل عائقاً أما صعوده أو يكون مدركاً لتصرفاته تماماً، فلا يكتفي بالهجوم على شخص هش كما في حالة التعسف السلطوي بل يقوم بخلق الهشاشة لدى الآخر كي لا يستطيع الدفاع.

ويولّد الخوف سلوكاً مذعناً، بل خضوعاً لدى الشخص المسدَّد عليه، ولدى الزملاء الذين يسمحون بذلك ولا يريدون أن يروا ما يتم بجوارهم. إنها سيادة الفردية: «كلٌ لنفسه»، إذ يخشى المحيط، إذا أظهر تضامنه مع الشخص المعتدى عليه، من أن يتم وسمه وأن يجد نفسه في عرية التسريح التالية. ففي المؤسسة يجب عدم إثارة الضجيج والتحلي بالروح «البيتوتية» وعدم الظهور بمظهر المتميز.

ويجمل الفيلم الأمريكي «السباحة مع أسماك القرش»، وهو من إخراج «جورج هوانج» (١٩٩٥)، مختلف أنواع الإهانات والتعذيب النفسي الذي يمكن لرب عمل أناني أن يوجهه لعامل طموح مستعد لقبول أي شيء كي يكون ناجحاً في عمله. نراه يشتم موظفيه، يكذب بلا وازع من ضمير، يصدر أوامر متناقضة، يترك عاملاً تحت تصرفه ليل نهار، ويبدل الأنظمة كي يبقيه في حالة احتراس دائم. وقد تم إخطار الكادر الوظيفي بذلك «لا ينصح بالضرب تحت الحزام فحسب بل يكافأ عليه». كل ذلك عبر الاستمرار باستمالة المتطوع الجديد وإغرائه عبر التلويح له بالترقية: «أسعدني. اصمت، استمع وسجِّلْ. ليس لديك مخ. آراؤك الشخصية لا قيمة لها. ما تفكر به عديم الفائدة. وما تشعر به عديم الفائدة أيضاً. أنت في خدمتي. أنت هنا كي تصون مصالحي

١- دو جور، المعاناة في فرنسا، منشورات سوي، باريس ١٩٩٨.

وتتجاوب مع حاجاتي... لا أريد أن أقتلك بل أريد أن أساعدك لأنك إذا قمت بعملك إذا أصغيت ووعيت فسوف يمكنك أن تحصل على ما تريد».

ويتصرف الفاسد بشكل أفضل في المؤسسة غير المنظمة وذات البنية السيئة و «المكتئبة»، إذ يكفيه أن يجد ثغرة يحفرها كي يروي ظمأه للسلطة.

والتقنية نفسها دوماً: يتم استخدام نقاط ضعف الآخر واقتياده لأن يشك في نفسه بغية تهديم دفاعاته، فعبر سلوك الازدراء الماكر تفقد الضحية ثقتها بنفسها تدريجياً، وأحياناً تكون مشوشة لدرجة أنها قد تبرر سلوك من يعتدي عليها: «أنا لا شيء. لن أصل لشيء. لست بالمستوى المطلوب»! وبهذا الشكل يتم التدمير بطريقة ماهرة جداً بحيث تدفع الضحية نفسها لارتكاب الخطأ.

تعمل «مريام» مصممة في مصلحة عامة في أوج ازدهارها، مبدئياً هي المسؤولة الوحيدة عن إبداعاتها، ولكن كل شيء يتعلق بمدير هو الناطق المباشر باسم المدير العام. إنها تنهمك بعملها كلياً إذ تشعر بأنها مسؤولة عنه، فتعمل حتى في عطلة نهاية الأسبوع وتمضي ليالي بيضاء غير مدفوعة الأجر. ولكن منذ أن أعلنت عن استقلاليتها وانشغالها في مستقبل مشاريعها، أعيدت إلى مكانها.

حين تقدم مشروعاً، يقوم المدير بتعديله على هواه من دون إخطارها بذلك، على الرغم من كونه غير مختص في التصميم. وعندما تطلب تفسيراً يجيبها بوقاحة وبابتسامة عريضة: «انظري يا «مريام» ليس لذلك أيّ أهمية»! راحت «مريام» تشعر بغضب داخلي نادراً ما استطاعت التعبير عنه: «لقد اشتغلت ثلاثة أيام على هذا المشروع وها هو ذا يمسح كل شيء ببضع ثوان من دون أن يكلف نفسه عناء التفسير. إنهم يريدون أن أرغب في تقديم التصاميم لمن يتجاهل عملي»!

ليس هنالك من وسيلة للحديث عن كل هذا. كل شيء يتم في الصمت، فمقابل هذا المدير لا يجرؤ أي موظف على أن يفصح عما يعتقد، فالجميع يخافون من نوياته. الحل الوحيد هو التملص دوماً إذ يسود جو من انعدام الثقة فيتساءل كل واحد إلى أين سيصل. إنه يلجأ عبر صيغ

السخرية أو التهكم إلى أن يجعل كل واحد متوافقاً مع ما يتوقعه، وعندما يأتي، ينقبض الجميع على الفور كما لو أنهم قد ضبطوا متلبسين في الخطأ، وبغية تفادي الغم والهم لجأ معظم الموظفين إلى أن يراقبوا أنفسهم.

أمام كثرة العمل وافق المدير على أن تجند مساعداً لها، وعلى الفور سعى لزرع الشقاق بينهما، فلا يصغي عندما تعبّر «مريام» عن رأيها في مشروع هي المسؤولة عنه، ويستدير نحو مساعدها هازا كتفيه: «وأنت لديك رأي أفضل من دون شك»؟

يطلب من «مريام» أن تضاعف جهدها دوماً وبالسرعة المطلوبة، وإذا طلب منها شيئاً تجده غير مناسب وترفضه لأن لديها فكرة سامية عن تصميمها، يقوم بتذنيبها ويقول لها إنها صعبة المراس. فينتهي بها الأمر لأن تقبل رأيه.

وعندما تقاوم يحصل لها إجهاد بحيث تشعر بألم في البطن عندما تقف. وفي مكان العمل تشعر بأنها مخنوقة كما لو أنها في الرمق الأخير.

يريد مدير «مريام» أن يتحكم بكل شيء ولا يرغب في تقاسم السلطة. وبدافع الحسد كان ينسب لنفسه تصاميم «مريام». عندما تحصل هذه الطريقة في الإدارة، يتمتع رب العمل بالسلطة المطلقة. ويرتاح بعض الأشخاص لوضعية الطفل هذه فتصبح النزاعات بين الزملاء حينذاك مشاجرات بين إخوة وأخوات. كانت «مريام» تقاوم، لكنها لا تتمادى في ذلك لأنها لا تريد أن تفقد عملها. بيد أنها أصبحت مجروحة تفتقر إلى الحافز على العمل: «أصبحت أفهم كيف يمكن أن يصل المرء إلى القتل، لأنني بسبب عجزي كنت أشعر بعنف داخلي فظيع»!

إذا كان بعض أرباب العمل يعاملون موظفيهم على أنهم أطفال، فإن بعضهم الآخر يعتبرونهم «أشياءهم» التي يستخدمونها بلا رحمة. وإذا كان الأمر يتعلق بالإبداع كما هو الحال هنا، فإن الإصابة تصيب الشخص بصورة مباشرة تماماً، فيتم بذلك إطفاء روح التجديد والمبادرة لدى الموظف. ومع ذلك فإذا كان الموظف مفيداً أو ضرورياً

فلا بد من شله ومنعه من التفكير والشعور بأنه قادر على العمل في مكان آخر ولا بد من جعله يعتقد أنه لا يناسب لأكثر من وظيفته في المؤسسة. وإذا قاوم يتم عزله، وهكذا يتم المرور عليه دون إلقاء السلام ودون النظر إليه كما يتم تجاهل اقتراحاته ورفض أي اتصال معه. ثم تأتي فيما بعد الملاحظات الفظة والجارحة، وحين لا تكفي يتم اللجوء إلى العنف.

وعندما ترد الضحية وتحاول أن تتمرد تحل العداوة الصريحة محل العداوة الخفية، وتبدأ حينئذ مرحلة التدمير المعنوي الذي يتصف بالرعب النفسي. هنا كل الوسائل مناسبة بما فيها العنف الجسدي لتحطيم الشخص المحدد. ويمكن أن يفضي ذلك إلى الإعدام النفسي أو إلى الانتحار، وفي هذا العنف تغيب مصلحة المؤسسة عن نظر المعتدي الذي يريد موت ضحيته تحديداً.

وبالإضافة إلى البحث عن السلطة هناك في العملية الفاسدة خصوصاً متعة عارمة في استخدام الآخر شيئاً أو دمية، فالمعتدي يحشر الآخرَ في وضعية عاجزة كي يتم تحطيمه لاحقاً من دون عقاب، ولكي يحصل على ما يريد لا يتردد في استخدام جميع الوسائل حتى لو تم ذلك على حساب الآخرين، فيبدو له مشروعاً أن يقوم بتحقير الآخرين كي يتسنى له تقدير نفسه تقديراً عالياً، فلا وجود لأي احترام للآخرين. واللافت هنا هذه العداوة التي لا حدود ولا أسباب لها وهذا الغياب الكامل لأي تعاطف مع الأشخاص المحشورين في أوضاع لا تطاق. إن من يوجه العنف إلى الآخر يعتبر أنه يستحقه وأنه لا يحق له الشكوى. وبذلك تصبح الضحية مجرد شيء مزعج لا هوية لها، فلا يتم الاعتراف لها بأي حق في الإحساس أو الانفعال.

ومقابل هذا العدوان الذي لا تفهمه، تكون الضحية وحيدة كما هو الأمر في جميع المواقف الفاسدة لأن هناك جبناً وتواطؤاً من المحيط الذي يخشى أن يصبح بدوره هدفاً أو أنه يستمتع بطريقة سادية من مشهد هذا الدمار.

ومن الممكن دوماً عند النزاع في إطار العلاقة الطبيعية وضع حد لشمولية الآخر بغية فرض نوع من توازن القوى، في حين أن المتلاعب الفاسد لا يطيق أدنى معارضة لسلطته فيحول علاقة النزاع إلى كراهية لدرجة الرغبة في تدمير الخصم.

تعمل لوسي في التسويق لمؤسسة أسرية صغيرة منذ عشر سنوات، وقد تعلقت بهذه المؤسسة كونها شاركت في تأسيسها، وكان إيجاد الزبائن في البداية يمثل تحدياً حقيقياً.

كان رب العمل أبوياً سامياً مداهناً، لكنه سرعان ما أصبح طاغية مستبداً عندما ازدهرت مؤسسته، فلم يعد يلقي التحية عند وصوله ولا ينظر إلى موظفيه عندما يوجه الأوامر، يطلب أن تبقى أبواب المكاتب مفتوحة ويصدر التعليمات قبل الاجتماع بخمس دقائق، الخ... إن كل هذه التفاصيل الصغيرة تستنزف الموظفين لأنها تجعلهم في حالة احتراس دائم. وكي يسود بشكل أفضل راح يشجع القيل والقال ويغذي الصراعات، يتملق المطيعين ويعارض من يقاومونه. وكي تقاوم لوسي ما شعرت به على أنه استحواذ على السلطة، جنحت إلى أن تبقى جانباً، فاعتبر موقفها تمرداً عليه.

ينقلب كل شيء عندما يوظف فتاة جديدة في التسويق، إذ يظهر إعجابه الشديد بالقادمة الجديدة مع معاملة تقوم على محاباة ظاهرة أمام الجميع. وإزاء هذا الظلم الصارخ الذي يجعل المؤسسة تقوم على إغواء مشبوه، ترتاب القادمة الجديدة وتفضل الرحيل، فيستوقفها رب العمل ويقنعها ويخبر الجميع أن سبب هذا الالتباس يعود إلى غيرة لوسي.

فحين يثير رب العمل الخصومة بين المرأتين، يعتقد أن كلاً منهما سوف تعتدي على الأخرى مما يتيح له أن يتحكم بهما بسهولة.

وانطلاقاً من ذلك أصبحت لوسي معزولة ولم تعد تصلها الأخبار كما لم تعد تشعر بالامتنان لعملها ولا شيء يسير على ما يرام. وأُشيع في كل مكان أنها غير كفوءة، وعلى الرغم من إدراكها أنها بارعة في التسويق إلا أنها أصبحت تشك في قدراتها. كما أصبحت مجهدة ومضطربة لكنها اجتهدت على عدم إظهار ذلك خوفاً من أن يستخدم ضدها. وابتعد الموظفون الآخرون عنها لأن من يكون قريباً جداً منها يتم ازدراؤه على الفور.

وعلى غرار الكثيرين من ضحايا التحرش الأخلاقي تأخرت لوسي في القيام بأيّ ردة فعل، ذلك أنها كانت قد وضعت لاشعورياً رب عملها في مرتبة الأب.

وذات يوم سمعته يشتمها أمام زميلة لها فطلبت مقابلته:

- لقد شتمتني فماذا تعيب عليَّ؟

- أنا لا أخاف من أحد، اذهبي!

- لن أذهب قبل أن أعرف ما الذي تعيبه علي.

فقد رب العمل حينذاك برودة أعصابه، فسيطر عليه الغضب وراح يقلب المكتب ويكسر كل شيء حوله: «أنت لست كفوءة، وقد تعبت من خبثك»!

لقد لعب رب العمل ورقة العنف معتقداً أنها سوف تستسلم، فقلب الأدوار وجعل من نفسه ضحية ومن الموظفة معتدياً.

لم تستطع لوسي أن تفهم الازدراء والكراهية اللذين اكتشفتهما في نظراته ذلك أنها كانت تشعر لفترة طويلة أنه يحميها، ولكن العنف الجسدي كان مفْصَلاً فقررت أن تقدم شكوى، وحاول زملاؤها ثنيها عن ذلك: «توقفي، سوف يثير لك المتاعب. سوف ينتهي بأن يهدأ»! أصرت على موقفها واتصلت بمحاميها لتعرف الإجراءات التي ستتبعها. فتقدمت بشكوى إلى الشرطة وهي ترتجف وتبكي. ثم ذهبت إلى طبيب أصدر لها تقريراً بالعجز الكلي المؤقت وهو يعادل قانونا الانقطاع عن العمل لمدة ثمانية أيام. وفي نهاية السهرة ذهبت إلى المكتب لتأخذ حقيبتها.

إن التقدم بالشكوى هي الوسيلة الوحيد لوضع حد للرعب النفسي. ولكن لا بد لذلك من الشجاعة أو لا بد من أن يكون المرء قد طفح به الكيل لأن ذلك يعني قطع الصلة مع المؤسسة نهائياً. زد على ذلك أنه ليس من المؤكد آن تقبل الشكوى وأن تفضي الدعوى المرفوعة إلى نهاية إيجابية.

المؤسسة التي تتعامى عن الفساد

ليس هذا النوع من السلوك ممكناً إلا إذا كانت المؤسسة تتعامى عنه أو تشجعه. هنالك إدارات تحسن اتخاذ إجراءات تعسفية عند عدم كفاءة الموظف أو عندما يكون مردوده غير كافٍ، لكنها لا تحسن تأنيب موظف لا يحترم موظفاً آخر أو يزعجه، فهي «تحترم» خصوصية الأفراد فلا تحشر أنفها فيه معتبرة أن الموظفين كبار بحيث يمكنهم التصرف لوحدهم، ولكنها لا تحترم الفرد في ذاته.

حين تكون المؤسسة متواطئة، يخلق الفساد موظفين متنافسين، غير فاسدين بحد ذاتهم، ولكنهم يفتقرون لنقاط العلام ويقتنعون بما يراد لهم، فلا يصدمهم معاملة فرد بطريقة مهينة، ولا يعرفون الحد الفاصل بين «التزريك» للموظف بغية تحفيزه وبين التحرش به، فهذا الحد الفاصل الذي يجهلونه يقوم على احترام الآخر، بيد أنه يتم نسيان معنى هذه العبارة الواردة في إعلان حقوق الإنسان في سياق حمّى التنافس المتعدد الاتجاهات.

إن تهديد البطالة يسمح بتركيز العجرفة والوقاحة في طريقة الإدارة. وتصبح البرودة والفظاظة هي القاعدة في منظومة تنافس ضارٍ، فالتنافس يعتبر سليماً مهما كانت الوسائل المستخدمة فيه، والخاسر مطرود. ولا يستخدم الأفراد الذين يخشون الصدام أساليب مباشرة من أجل الاستحواذ على السلطة، بل يتلاعبون بالآخر بطريقة وقحة أو سادية بغية إخضاعه، فيقدمون بذلك صورة رائعة لأنفسهم عبر تحقير الآخرين.

وفي سياق كهذا، يمكن لشخص متلهف للسلطة أن يستخدم الغموض المحيط كي يحطم خصومه المحتملين من دون أي شعور بالذنب. وهكذا يمكن لفرد واحد منفلت من رقابة المؤسسة أن يتلاعب ويحطم أفراداً آخرين من دون شعور بالذنب بغية الاستحواذ على السلطة والاحتفاظ بها.

ويمكن لبعض السمات التي تميز المؤسسة أن تسهل حصول التحرش.

وما لم يجادل به أي اختصاصي أن الصراعات تندلع بسهولة أكبر في مجموعات العمل الخاضعة للضغوطات. إن أشكال العمل الجديدة التي تهدف إلى نمو ازدهار

المؤسسات، إذ تهمل العناصر البشرية، تولد الإجهاد وتخلق بذلك الشروط المناسبة للتعبير عن الفساد.

إن الإجهاد في الأصل ظاهرة فسيولوجية لتكيف الجسد مع العدوان أياً كان، فهو عند الحيوانات رد فعل من أجل البقاء، إذ يكون لديها أمام العدوان خيارٌ بين الهرب أو المواجهة، أما بالنسبة للموظف فمثل هذا الخيار غير موجود. وعلى غرار جسد الحيوان، يقوم جسده برد الفعل في ثلاث مراحل: تنبيه، مقاومة، فإنهاك. ولكن هذه الظاهرة الفسيولوجية فقدت معناها الأول المرتكز على الاستعداد الجسدي لتأخذ معنى يرتكز على التكيف الاجتماعي والنفسي، إذ يطلب من العاملين مضاعفة العمل وسرعة الإنجاز وتعدد المواهب، فقد ذكر أطباء العمل في «بورج أن برس»، في تقريرهم السنوي لعام ١٩٩٦، وفي سياق تحليلهم لنتائج المرونة على العاملين في المسالخ ما يلي: «من الصحيح أن هناك أعباء اقتصادية قاهرة في قطاع هذا النشاط، ولكن بالنظر عن كثب، لوحظ في بعض المسالخ معاناة أكبر من تلك قياساً إلى القهر الاعتيادي في طلب سرعة الإنجاز وزيادة ساعات العمل زيادة مفرطة، وتنامي الانتقاص من كرامة العاملين من دون الانتباه لذلك».

لا يزال الإجهاد في العمل والكلفة الاقتصادية لنتائجه على الصحة ظاهرة غير محددة في فرنسا، فلا يعترف بالإجهاد مرضاً مهنياً ولا سبباً مباشراً للانقطاع عن العمل، ومع ذلك فإن أطباء العمل والأطباء النفسانيين يلاحظون زيادة في الاضطرابات الجسدية النفسية وفي الإفراط في تناول الكحول والعقاقير النفسية المرتبطة بضغط العمل الهائل.

إن عدم تنظيم المؤسسة يسبب الإجهاد دوماً، سواء أكان الأمر يتعلق بسوء تحديد الأدوار (إذ لا نعرف من يفعل كذا ومن المسؤول عن كذا) أو بمناخ تنظيمي غير مستقر (إذ يتم تعيين أحدهم في منصب ولا يعرف إن كان سيستمر فيه) أو بغياب الشورى (يتم اتخاذ القرار من دون موافقة الأشخاص المعنيين). إن ثقل بعض الإدارات أو المؤسسات ذات التسلسل الوظيفي المفرط يسمح لبعض الأفراد المتلهفين للسلطة بالانقضاض على أفراد آخرين من دون أي شعور بالذنب.

بعض المؤسسات «عصارات ليمون»، تعزف على الوتر العاطفي وتستخدم كوادرها فتطلب منهم المزيد وتلوّح لهم بالكثير. وحين ينخفض مردود عامل منهك يتم

التخلص منه من دون وازع من ضمير. إن عالم العمل عالم يقوم على التلاعب لأقصى درجة، وحتى لو لم يتم استخدام العاطفة من حيث المبدأ، إلا أنه ليس من النادر، بغية تحفيز العاملين، أن تقيم المؤسسة علاقة تتجاوز كثيراً العلاقة التعاقدية الطبيعية التي يمكن أن تربط العامل برب العمل، فيطلب من العاملين أن ينخرطوا جسداً وروحاً في عملهم في منظومة نعتها عالما الاجتماع «نيكول أوبير» و «فنسان جولجاك»[1] «بالإدارتية» إذ تحولهم إلى «عبيد ذهبي»، فمن جهة يطلب منهم الكثير مع كل نتائج الإجهاد الناجمة عن ذلك، ومن جهة أخرى ليس هنالك من أي اعتراف بجهدهم وشخصيتهم، وبذلك يصبحون بيادق يمكن استبدالها. وفضلاً عن ذلك فقد عملت بعض المؤسسات على ألا يبقى الموظف في منصبه لفترة طويلة حيث يمكنه أن يتحلى بكفاءة كبيرة، وبذلك يظلون في حالة دائمة من الجهل والدونية، فكل أصالة أو مبادرة شخصية تثير الإزعاج. وهكذا يتم إخماد كل حماس وكل إعداد مهني، ويعامل العاملون كأنهم تلاميذ غير منضبطين، فلا يستطيعون أن يضحكوا أو أن تنفرج أساريرهم من دون أن يتم تذكيرهم بالنظام، وأحياناً يطلب منهم أن يقدموا نقداً ذاتياً في الاجتماع الأسبوعي، وهكذا يتم تعريض مجوعات العمل إلى إذلال عام.

ويعزز هذا السياق أن بعض العاملين الذين يتمتعون بمستوى دراسي مماثل أو أعلى من مستوى رؤسائهم معينون في الوظائف الدنيا، فلا يكون أمام الرئيس سوى ممارسة المزيد من الضغط حتى لا يستطيع العامل أن يضطلع بعمله أو يرتبك فيقع في الأخطاء. وتقضي الظروف الاقتصادية القاهرة أن يطلب الكثير من العاملين دوماً مع إيلائهم اهتماماً متناقصاً. هناك إذن عدم تقدير للشخص وإمكاناته، فلا أهمية للفرد ولا أهمية لتاريخه وكرامته ومعاناته.

وبمقابل هذه العملية التي يتم فيها تحويل الفرد إلى «شيء» أو إلى إنسان آلي، يشعر معظم العاملين في المؤسسات الخاصة بأنهم في وضع من الهشاشة بحيث لا يستطيعون فعل أي شيء غير الاحتجاج في قرارة أنفسهم وطأطأة الرأس بانتظار مجيء أيام فضلى. وعندما يظهر الإجهاد مصحوباً بالأرق والتعب وقابلية الإثارة، كثيرا ما يرفض العامل الإجازة المرضية التي يقترحها الطبيب خوفاً من انتقام رب العمل منه لدى عودته.

١- أوبير وجولجاك، ثمن التميز، منشورات سوي، باريس ١٩٩١.

هناك عدة طرق للتخلص من عامل مزعج حتى لو لم يجدوا فيه ما يعيبونه عليه:

- تغيير بنية المؤسسة الذي يفضي إلى إلغاء وظيفته: يمكن القيام حينئذ بالتسريح لأسباب اقتصادية.

- يتم تكليفه بمهمة صعبة ثم يبحثون عن نقاط الضعف كي يستطيعوا تسريحه لاحقاً لارتكابه الأخطاء.

- يمكن التحرش به نفسياً بحيث يجعلونه ينفجر ويقودونه، ولِمَ لا، لأن يقدم استقالته بنفسه.

وحتى لو كان ذلك بصورة لا واعية، يحصل التحرش عندما يصبح العامل هشاً لسبب خارجي، فإذا ما تشكل انطباع بأن العامل قد أصبح أقل فائدة للمؤسسة لأسباب شخصية (كالطلاق مثلاً)، يأخذون يعيبون عليه بطريقة ماكرة أشياء لم يكونوا يعيبونها عليه في السابق بحق أو من دون حق، فلا يقبلون منه ما كانوا يقبلونه سابقاً لأنهم يشعرون بأن هذا الشخص قد انخفضت جاهزيته، فيصبح من يقومون بهذا التحرش على قناعة بأن هذا الشخص غير كفء فعلاً.

إن استخدام نقاط ضعف الآخر سلوك يتم اللجوء إليه عادة بل يقيَّم عالياً في عالم السياسة والأعمال، فيتم التباهي في النجاح ضمن «سلة السرطانات» أو «عالم أسماك القرش».

«أوليفييه» شريك من كبار المساهمين في مكتب محاماة كبير شهد تطوراً عظيماً منذ نشوئه، حتى أن عدداً من الخريجين الشباب قد دخلوا فيه مؤخراً آملين في إحراز نجاح سريع. أما «فرانسوا»، وهو صديقه القديم، وأحد كبار المساهمين أيضاً، فلم تكن له ممارسات واضحة دائماً. ولم يدخل «أوليفييه» في دسائسه التي لا يوافق عليها، لكنه لم يرد أن يعرض لهكذا سبب شراكتهما للخطر لأنها بالنسبة إليه ضمانة النجاح.

سمع ذات يوم مساعديه يذكرون شائعة مفادها أن أحداً ما يريد رأسه وبأنه سيواجه متاعب مع عاملين مستائين في خصومة كان «فرانسوا» سبباً لها. سأل «فرانسوا» عن ذلك فأجابه مهاجماً: «إذا كنت ستتكسر فلتتكسر، أنا لست على اطلاع على أي شيء»!

إن «أوليفييه» يعلم منذ البدء أن هذا الرجل لا يحترم أحداً، فهو يستخدم الآخرين ملوحاً لهم بالسلطة ويتصرف بحيث يغذي الصراعات بين صغار المساهمين ليظل هو واقفاً. وهكذا يسود في المكتب جو من الصراع الخفي غير الصحي، وإذ شعر أحد المساعدين الشباب بذلك فضل الرحيل لأنه يعلم أن القادمين الجدد هم الأكثر تعرضاً للخطر عند اندلاع الصراع.

ولكي يزعزع «أوليفييه» كان «فرانسوا» يغلق الملفات ويعهد بها إلى مساعدين أقل تأثيراً. وفي البداية لم يدافع «أوليفييه» عن نفسه بشكل جيد فلم يستطع أن يعتقد أن زميله القديم في الكلية الذي يعرف مع ذلك أساليبه المتشنجة في الإدارة يمكنه أن يتصرف معه على هذا النحو، ولم يقم «أوليفييه» بأيّ ردة فعل إلا عندما أدرك أن «فرانسوا» يغرف من المال المشترك دون أن يطلعه على ذلك.

المؤسسة التي تشجع الأساليب الفاسدة

يمكن للمؤسسة أن تصبح هي بحد ذاتها منظومة فاسدة عندما تكون الغاية تبرر الوسيلة وعندما تكون جاهزة لفعل أي شيء، بما في ذلك تحطيم الأفراد بغية الوصول إلى أهدافها. في هذه الحالة يستخدم الكذب في تحقيق النفوذ عبر سياق فاسد وحتى على صعيد تنظيم العمل.

وفي منظومة اقتصادية تنافسية لا يضطلع العديد من المديرين بالمواجهة ولا يتمسكون إلا بمنظومة دفاعية مدمرة فيرفضون الاهتمام بالعناصر الإنسانية ويتهربون من مسؤولياتهم ويمارسون الإدارة بالكذب والخوف، فيمكن حينذاك أن تستخدم المؤسسة بكل دراية أساليب فرد فاسد بغية الحصول على أفضل مردود. وهذا ما تم في مصنع «ماريفلو» وهو مؤسسة صغيرة للملابس الجاهزة من «موربيهان».

جميع العاملين في هذا المصنع هم من النساء بما فيهم رب العمل المدير العام. الرجل الوحيد هو المدير. وهذا الرئيس الصغير يحتقر ويذل ويجرح ويشتم العاملين

بحجة زيادة المردود. أما أساليبه فهي: التحرش بالعاملات لرفع وتيرة العمل وحساب دقائق التوقف عن العمل وتوجيه الشتائم، وكل ذلك يتم بالتواطؤ مع المرأة التي تشغل منصب المدير العام والتي تعرف أساليبه ولا تجد فيها ما يقال.

انتهى الأمر بالعاملات إلى إعلان الإضراب، ولكن حتى قبل اندلاع الصراع الذي استمر لستة أشهر، صورت كاميرات برنامج «ستريبتيز» (القناة الفرنسية الثالثة) هذا المصنع وركزت على المدير. وعلى الرغم من علمه بأنه تم تصويره، لم يغير في أساليبه المهينة، فهو يجدها مشروعة تماماً. ولم يقم بمراجعة نفسه لحظة واحدة. وعندما اندلع الإضراب في ٩ كانون الثاني ١٩٩٧، خرجت ٨٠ عاملة من أصل ١٠٨ يطالبن باستقالة المدير الذي وجد عملاً في مصنع آخر أكبر من هذا المصنع بمرتين على الرغم من قيام وسائل الإعلام بفضح أساليبه الفاسدة.

إن السلطة سلاح رهيب عندما تكون في يد فرد أو منظومة فاسدة.

«كليمانص» امرأة جميلة شابة حاصلة على شهادة عليا في التسويق من مدرسة تجارية. في نهاية دراستها لم تجد فرصة أمامها سوى إبرام عقد لمدة محددة ثم أصبحت عاطلة عن العمل. وهكذا فقد جاءها الفرج الكبير عندما عينت مسؤولة التسويق والاتصال في شركة في أوج ازدهارها، وكان رب العمل المدير العام هو الذي يشغل هذا المنصب قبلها. كانت الكادر النسوي الوحيد تحت أمرة أحد الشركاء في البدء، ثم رحل هذا الشريك فأصبحت تحت أمرة الرئيس المباشرة.

منذ هذه اللحظة راح يعنِّفها: «لا فائدة من شغلك»! «وكأنك لا تعرفين شيئاً عن التسويق»! لم يحصل أن كلمها أحد بهذه الطريقة، لكنها لم تجرؤ على أن تقول أي شيء خوفاً من أن تفقد هذه الوظيفة التي تهمها مع ذلك.

عندما تقدم مقترحات ينسبها لنفسه ثم يلفت انتباهها لكونها عديمة الفائدة لأنها تفتقر إلى المبادرة. وإذا احتجت يغضب: «عليك أن تخرسي وتنفذي»! ولم يحصل قط أن طلب منها أي طلب بصورة مباشرة، بل

يضع لها ملفاً على الطاولة مع ملاحظة صغيرة للتنفيذ. ولم يمدحها قط على نتائجها الباهرة كما أنه لم يقم بتشجيعها.

راح موظفو التسويق في المؤسسة، ومعظمهم من الرجال الذين يتشبهون بالرئيس، يكلمونها بطريقة سيئة ويتفادونها. وبما أن الأبواب لم تكن مغلقة كان كل واحد يتجسس على الآخر مما جعل الدفاع عن النفس أمراً صعباً للغاية.

ذات يوم جازفت بالحديث إلى رئيسها، لم يجب بشيء وراح ينظر بعيداً وكأنه لم يسمع شيئاً، وعندما أصرت تظاهر بالغباء: «لم أفهم ما تقولين»!

وفي حين أن مهنتها تقوم أولاً على الاتصال، منعت من أن تزعج الناس بالتحدث إليهم بصورة مباشرة، ينبغي الاتصال عبر البريد الإلكتروني حصراً.

في هذه المؤسسة يتم إغلاق أجهزة الهاتف والحاسب برموز. ولدى عودتها من إجازة مرضية لبضعة أيام وجدت رموزها متغيرة وتوجب عليها أن تنتظر سكرتيرة قريبة من الرئيس لتتكرم بفتح جهازها، فاحتجت:

- كان عليك أن تعيدي الأمور إلى ما كانت عليه بعد استخدامك لجهازي.

- لا تزعجيني! لا أعلم من تظنين نفسك إذ يعلم الجميع أنك ذهانية!

علمت لاحقاً أن اتصالات هاتفية مهمة قامت هذه السكرتيرة بإخفائها عنها بأمر من الرئيس. وتبع ذلك تراشق بالبريد الإلكتروني بين «كليمانص» وهذه السكرتيرة، وكانت تؤخذ صورة عن هذا التراشق للرئيس الذي تجاهل «كليمانص» عمداً واكتفى بأن طمأن السكرتيرة التي كانت قلقة جراء إزعاجه.

وشيئاً فشيئاً فقدت «كليمانص» ثقتها بنفسها، وبدأت تشك في تصرفاتها: «ماذا فعلت كي يعاملني على هذا النحو»؟ وأخذت تشك في كفاءاتها المهنية علماً بأنها الخريجة الحاصلة على المرتبة الأولى في

المدرسة. أصبح نومها مزعجاً وراحت تخاف من مجيء صباح يوم الاثنين حيث ينبغي عليها العودة إلى العمل، وأصابتها الشقيقة وكانت تغرق بدموعها عندما تقص يومها لزوجها في المساء، كما فقدت كل حماس، فلم تعد ترغب في الخروج وفي رؤية أصدقائها.

تتواطأ المؤسسات مع تعسف بعض الأفراد حين ينتج ربحاً ولا يسبب تمرداً، فتحطم العاملين عوضاً عن أن تفتح مواهبهم.

وفي فيلم «تحرش» لـ «باري ليفنسون» نرى كيف يمكن للمؤسسة أن تجعل محاولة تدمير فرد لآخر ممكنة. تدور القصة في مؤسسة سياتل المتخصصة في صناعة القواطع الإلكترونية. وعند دمجها مع شركة تجارية متخصصة في صناعة البرامج، توجب تعيين مسؤول، فحصلت «ميريديت»، وكانت «ديمي مور» تلعب هذا الدور، على ترقية غير متوقعة على حساب «توم» (وقد لعب «ميخائيل دوجلاس» هذا الدور) الذي يتمتع بخبرة أعلى ومهنية وكفاءة تؤهله لهذا المنصب. قد نعتقد أن «ميريديت» سوف تتلذذ بنصرها بهدوء... قطعاً لا، ذلك أنها كانت تطلب رأس خصمها لأنها تطمع في انتزاع سعادة الآخرين. «توم» رجل سوي ينعم بالسعادة مع زوجته اللطيفة وطفليه الساحرين. «ميريديت»، وكانت عشيقته سابقاً، لم تستطع أن تأخذ منه هذه السعادة فاختارت أن تحطمه مستخدمة الجنس سلاحاً إذ قدمت له تمهيدات رفضها، فانتقمت منه عبر اتهامها له بالتحرش الجنسي، إن الاعتداء الجنسي مجرد وسيلة لإذلال الآخر ولمعاملته على أنه شيء من الأشياء بغية تحطيمه في نهاية المطاف، وإذا لم يكن الإذلال الجنسي كافياً فسوف تجد طرقاً أخرى للإجهاز على ضحيتها.

في هذا الفيلم نجد الصراع من أجل السلطة الذي يسم العدوان الذي يقوم به فاسد نرجسي، كما نجد الحاجة للاستحواذ على سعادة الآخر، وإن لم يكن ذلك ممكناً، نجد الحاجة لتحطيم هذه السعادة. ومن أجل ذلك يتم استخدام عيوبه بل يتم خلقها في حال عدم وجود القدر الكافي منها.

وسواء أكانت نقطة الانطلاق تعود إلى صراع الأشخاص أو أنها تنجم عن سوء تنظيم المؤسسة، فإن على المؤسسة ذاتها إيجاد الحل، فإذا حصل التحرش فهذا يعني أنها هي التي سمحت به. ففي هذا السياق لا بد من مجيء لحظة مؤاتية للتدخل وإيجاد

الحلول. ولكن المؤسسات، باستثناء الحالات الشاذة، قلما تعير انتباهها للعامل البشري وللبعد النفسي لعلاقات العمل، على الرغم من أنها أخذت تعيِّن مديرين للموارد البشرية.

ومع ذلك يجب عدم الاستهانة بالنتائج الاقتصادية للتحرش في المؤسسة، فالنتيجة الطبيعية لإفساد جو العمل نقص كبير في فاعلية فريق العمل ومردوده، إذ تصبح إدارة الصراع الشغل الشاغل للمعتدين والضحايا وأحياناً للشهود الذين لم يعد بإمكانهم التركيز على مهماتهم. وهكذا يمكن لخسارة المؤسسة أن تبلغ نسباً كبيرة عبر تدني نوعية العمل من جهة وعبر زيادة التكاليف وكثرة التغيب عن العمل من جهة أخرى.

وقد يحصل أن تنقلب الظاهرة، فتصبح المؤسسة حينذاك ضحية من يديرونها، فينهبها اللصوص الذين يكمن همهم الوحيد في الاستمرار ضمن منظومة يجدون لأنفسهم قيمة فيها.

ينجم التحرش عن صراع ما بصورة دائمة. ويبقى أن نعلم فيما إذا كان هذا الصراع يتأتى من طباع الأشخاص المعنيين أو أنه يعود لبنية المؤسسة ذاتها. ولا تتحول جميع النزاعات إلى تحرش، فمن أجل أن يحصل مثل هذا التحرش لا بد من تضافر مجموعة عوامل: نزع الصفة الإنسانية عن علاقات العمل، شمولية المؤسسة، وتساهل أو تواطؤ مع الفرد الفاسد.

وفي أماكن العمل ينبغي على من يملك القرار (رؤساء المؤسسات والكوادر والمساعدين) أن يختاروا معاً رفض التحرش وعدم السماح له بأن يتم وأن يحرصوا على احترام الشخصية الإنسانية أياً كان مستواها. وحتى مع عدم وجود أي قانون يتناول مشكلة التحرش الأخلاقي، ينبغي عليهم أن يضطلعوا بمهمة فرض احترام الأفراد واستبعاد أي تمييز يتم على أساس العرق أو الجنس داخل المؤسسة. وينبغي على النقابات التي تكمن مهمتها في الدفاع عن العاملين أن تضع من ضمن أهدافها حماية فعالة ضد التحرش الأخلاقي والإصابات الأخرى التي تصيب الفرد في شخصه.

ويجب عدم الإقلال من أهمية مشكلة التحرش بجعلها قدراً حتمياً على مجتمعنا، فهي ليست نتيجة الأزمة الاقتصادية الحالية بل هي خلاصة نزعة متساهلة في التنظيم.

الباب الثاني

العلاقة الفاسدة و أبطالها

الإغواء الفاسد

من الحالات السريرية الموصوفة، نستطيع أن نفهم أن علاقة التحرش تتشكل عبر مرحلتين، الأولى هي الإغواء الفاسد، والثانية هي العنف الظاهر.

وقد تستغرق المرحلة الأولى التي دعاها «راكامييه» «غسل الدماغ»[1] عدة سنوات، فهي تتم تدريجياً خلال أولى فترات العلاقة عبر سياق يقوم على الإغواء. إنها مرحلة تحضيرية تكون الضحية أثناءها مزعزعة وتفقد الثقة بنفسها تدريجياً.

يتعلق الأمر أولاً بإغوائها ثم بالتأثير عليها كي تصبح تحت اليد في نهاية المطاف، وبذلك تحرم من الحرية تماماً.

يقوم الإغواء على الجذب الذي لا يقاوم بل على الإفساد والإغراء أيضاً بالمعنى القانوني للكلمة، إذ إن الغاوي يتملص من الواقع ويتصرف بالخفاء والمباغتة. إنه لا يهاجم البتة بأسلوب المواجهة بل بشكل غير مباشر بغية الاستحواذ على رغبات الآخر، هذا الآخر الذي يعكس له صورة رائعة عن نفسه كونه مفتوناً به. يتم الإغواء الفاسد باستخدام غرائز الآخر التي تحميه. وهذا الإغواء نرجسي، فهو يقوم على البحث لدى الآخر عن الموضوع الفريد الذي يسحره، ألا وهو الصورة المحببة عن الذات. وبإغواء أحادي الاتجاه، يسعى الفاسد النرجسي لأن يسحر دون أن يؤخذ بالسحر. ويرى «بودريار»[2] أن الإغواء يجانب الواقع ويتلاعب بالمظاهر، فهو ليس طاقة، بل ينتمي إلى نسق الدلالات والطقوس واستخداماتها الشيطانية. فالإغواء النرجسي يثير التشوش، ويطمس الحدود بين ما هو «هو» وبين ما هو «آخر». ولسنا هنا في سجل الاستلاب - كما هو الأمر في الحب المثالي

١- راكامييه، الفكر الفاسد وغسل الدماغ، منشورات أبسيجيه، باريس ١٩٩٢.

٢- بودريار، في الإغواء، منشورات دانويل، باريس، ١٩٧٩.

حيث نرفض أن نرى عيوب ونواقص الآخر بغية المحافظة على تأجج العاطفة - بل في سجل الإلحاق بهدف التحطيم، إذ ينظر لوجود الآخر على أنه وجود مهدد وليس وجوداً مكملاً.

يقوم التأثير على دفع الآخر، من دون إبداء الأسباب، إلى أن يفكر ويقرر ويتصرف بشكل مخالف لما كان سيحصل فيما لو تصرف بصورة عفوية. ولا يمكن للشخص الذي يتعرض لهذا التأثير أن يقبل ذلك بصورة مسبقة. ويتم رسم سياق التأثير فيه تبعاً لحساسيته ولنقاط ضعفه عبر الإغواء والتلاعب بصورة رئيسة. وكما هو الأمر في كل تلاعب، تقوم المرحلة الأولى على جعل الآخر يعتقد أنه حر، حتى لو كان الأمر يتعلق بفعل غادر يحرم ذاك الذي يتعرض له من الحرية. إن الأمر لا يتعلق هنا بسجال بين طرفين متساويين، بل بعملية إكراه، مع منع الآخر من الانتباه لهذه العملية ومنعه من النقاش والمقاومة. وهكذا يتم سحب القدرات الدفاعية من الضحية مثلما يتم سحب كل حس نقدي وبذلك تُستبعد أيّ إمكانية على التمرد. هنا نجد جميع المواقف التي يمارس فيها فرد تأثيراً مفرطاً ومبالغاً فيه على فرد آخر من دون علمه. وفي الحياة اليومية يتم تشويشنا وزعزعتنا والتلاعب بنا بصورة دائمة، وفي كل مرة نكون غاضبين ممن احتال علينا، لكننا نكون خجلين من أنفسنا بصورة خاصة. لا يتعلق الأمر هنا «بخداع» مادي بل «بخداع» معنوي.

إن التأثير هو السيطرة الفكرية والمعنوية في علاقة تقوم على الهيمنة. والسلطة تجبر الآخر لأن يمشي تابعا مما يعني امتثالاً وإذعاناً. وهذا يشمل احتمالاً زجراً وتهديداً مقنعين، فإن نجعل الآخر يقبل شيئا ما مكرهاً، فهذا يعني إقراراً بأننا لا نعترف به مساوياً لنا. ويمكن أن يصل التأثير إلى أسْرِ فكر الآخر كما هو الأمر في غسل حقيقي للدماغ. وفي التصنيف الدولي للأمراض العقلية ذُكر، من بين الأحداث القابلة لأن تفضي إلى مظاهر انفصام الشخصية، الأشخاص الذين تعرضوا لمناورات طويلة من الإقناع القسري من قبيل غسيل الدماغ والتقويم الإيديولوجي والتمذهب الإلزامي.

ولا يوجد التأثير إلا في مجال العلاقة: إنه السيطرة الفكرية أو المعنوية بل هيمنة فرد على فرد آخر وتأثيره فيه[1]. وهكذا تؤخذ الضحية في شرك العنكبوت، فتكون تحت التصرف مقيدة نفسياً ومخدرة بحيث لا تشعر بالتحطيم.

١- دوري، علاقة التسلط، مجلة التحليل النفسي الجديدة، العدد ٢٤، غاليمار، باريس ١٩٨١.

هناك ثلاثة أبعاد أساسية للتأثير:

- فعل تملك يقوم على نزع الآخر ملكيته.
- فعل سيطرة يتم فيه إبقاء الآخر في حالة خضوع أو تبعية.
- فعل وسم حيث يراد ترك دمغة ظاهرة على الآخر.

وينطوي التأثير على مركّب مدمر أكيد لأنه يجعل رغبة الآخر محايدة ويبطل أيّ خصوصية لديه. وشيئاً فشيئاً ترى الضحية مقاومتها وقدراتها على المواجهة مقوّضة، فتفقد أيّ إمكانية على النقد، وتصبح متواطئة مع من يضطهدها كونها ممنوعة من ردة الفعل ومصعوقة تماماً. ولا يشكل هذا قبولاً بأي حال من الأحوال، ذلك أنها وقد تحولت إلى شيء من الأشياء لم تعد تستطيع أن تتمتع بتفكير خاص، بل ينبغي عليها أن تفكر كما يفكر المعتدي، فهي لم تعد «آخر» بصورة كاملة كما لم تعد صديقاً مماثلاً، إنما عليها أن تذعن من دون موافقة بل من دون مشاركة.

وفي استراتيجية الفاسد يجب عدم تحطيم الآخر في البداية، بل إخضاعه شيئاً فشيئاً وتركه تحت اليد، فالمهم هو الاحتفاظ بالسلطة والتحكم. وليست المناورات مؤذية في البدء لكنها تصبح أكثر عنفاً إذا قاوم الشريك، فإذا كان هذا الشريك مطيعاً جداً لا تبدو اللعبة مثيرة، إذ لا بد من أن يكون هناك القدر الكافي من المقاومة كي يرغب الفاسد في متابعة العلاقة، على ألا تكون المقاومة عنيفة لدرجة شعوره بأنه مهدد، فهو الذي ينبغي عليه أن يدير اللعبة، وليس الآخر سوى شيء وعليه أن يبقى شيئاً، قابلاً للاستخدام وليس شيئاً متفاعلاً.

وتروي جميع الضحايا صعوبة في التركيز على نشاط ما عندما يكون بجوارها مضطهدها الذي تبدو عليه سيماء براءة كاملة بالنسبة للملاحظ من الخارج، فهناك تفاوت كبير بين أريحيته الظاهرة وجزع الضحايا ومعاناتهم. وفي هذه المرحلة يشكون من شعور بالاختناق وعدم مقدرتهم على فعل أي شيء لوحدهم، ويروون إحساسا بعدم توفر حيّزٍ للتفكير لديهم.

إنهم يخضعون في البداية بغية بث السرور في الشريك أو بغية إصلاحه لأنهم يعتقدون أنه تعيس. وفيما بعد يخضعون خوفاً. ويتم قبول الخضوع في البدء، وبصورة

خاصة بالنسبة للأطفال، على أنه حاجة من أجل العرفان، فهو أفضل من أن يتم التخلي عنهم. وبما أن الفاسد يعطي القليل ويطلب الكثير، يحصل ابتزاز صريح أو على الأقل شك ممكن: «إذا بدوت أكثر طاعة فقد يقدرني أخيراً ويحبني». لا نهاية لهذا البحث لأن الآخر لا يشبع. وعلى العكس من ذلك تماماً، فإن هذا البحث عن الحب والعرفان يفجر حقد وسادية الفاسد النرجسي.

ومن مفارقة الحال أن الفاسدين يستخدمون تأثيراً قوياً بقدر ما يصارعون ضد الخوف من سلطة الآخر - وهو خوف هذياني نسبياً عندما يشعرون بأن هذا الآخر متفوق عليهم.

إن مرحلة التأثير فترة تنعم الضحية فيها بالهدوء إذا كانت مطيعة، أي إذا استسلمت للدخول في شرك العلاقة العنكبوتي. إنها مرحلة التأسيس لعنف مموه ينقلب تدريجياً إلى عنف موضوعي. ولا يمكن أن يحصل أي تغيير أثناء هذه المرحلة، فكل شيء جامد. والخوف الذي يشعر به كلا البطلين من الآخر يجنح لأن يطيل هذه الحالة غير المريحة:

- الفاسد معاق إما بسبب الخوف من الآخر أو بسبب استقامة داخلية مرتبطة بتاريخه الشخصي تمنعه من الانتقال إلى الفعل بصورة مباشرة.

- والضحية معاقة بسبب التأثير الحاصل والخوف الناجم عنه ورفضها لأن ترى نفسها مبعدة.

أثناء هذه المرحلة يحافظ المعتدي على توتر لدى الآخر يعادل حالة من الإجهاد الدائم.

وليس التأثير ظاهراً عموماً بالنسبة للملاحظين من الخارج الذين يتعامون عنه حتى لو شهدوا بعض تجلياته. ولا تبدو التلميحات المزعزعة على حقيقتها لمن لا يعرف السياق والتضمين، فأثناء هذه المرحلة تتم عملية العزل. والموقف الدفاعي الذي تحشر به الضحية يقودها لتصرفات تخدش المحيط، فتصبح شرسة أو نوّاحة أو موسوسة. وفي جميع الأحوال تفقد عفويتها. ولا يفهم المحيط ذلك فينزلق في الحكم على الضحية سلباً.

إن هذه العملية تستقي صيغة خاصة في الاتصال تقوم على المفارقات والكذب والتهكم والسخرية والازدراء.

الاتصال الفاسد

يتشكل التسلط عبر استخدام أساليب توهم بالاتصال، وهو اتصال خاص لا يتم بغية التواصل مع الآخر بل من أجل إبعاده ومنعه من الرد. ويهدف هذا الاتصال المشوه إلى استخدام الآخر إذ لا بد من التلاعب به لفظياً بغية التشويش عليه كي يستمر بعدم فهم أي شيء مما يجري. إن هذا التعتيم على المعلومات الصحيحة أساسي من أجل تثبيت الضحية في حالة العجز التام.

ولو كان العنف خفياً ومستتراً وغير لفظي، فإنه يتسرب مع ذلك عبر الصمت والتضمين والتحفظ فيصبح باعثاً للضيق والجزع.

رفض الاتصال المباشر

ليس هناك من اتصال مباشر قطعاً لأن المرء «لا يتناقش مع الأشياء». إن الفاسدين يراوغون عندما يطرح سؤال مباشر عليهم، وبما أنهم لا يتكلمون نظنهم عقلاء أو حكماء. إننا ندخل في عالم فيه القليل من الاتصال اللفظي، مجرد ملاحظات بلمسات صغيرة مزعزعة. لا يتم تحديد أي شيء فكل شيء يتم عبر التضمين. يكتفي الفاسد بزفرة أو هزة كتف فتحاول الضحية أن تفهم: «ماذا فعلت له؟ ماذا يعيب فيَّ؟»، وبما أنه لا يقول أي شيء فقد يكون يعيب عليها أي شيء كان.

إن إنكار المعتدي لوجود المشكلة يشل الضحية التي لا تعرف كيف تدافع عن نفسها، وهكذا يتم العدوان عبر عدم تحديد المشكلة وإنكار وجود النزاع وبالتالي رفض حله. لو كان النزاع مفتوحاً لكان النقاش ممكناً ولأمكن إيجاد الحلول، غير

أن الاتصال الفاسد يقتضي منع الآخر من التفكير والفهم وردة الفعل قبل كل شيء. إن التهرب من الحوار طريقة ماهرة لتقوية النزاع، عبر إسناد مسؤوليته إلى الآخر، والضحية لا تملك الحق في أن تكون مسموعة، ولا يهتم الفاسد بروايتها للوقائع فهو يرفض أن يصغي لها.

إن رفض الحوار طريقة تقول من دون كلام أن الآخر لا يهمك أو أنه غير موجود. في الحوار العادي مع الناس يمكننا توجيه الأسئلة إن لم نفهم، أما حوار الفاسد فهو مراوغ وغير واضح ويؤدي إلى نفور متبادل، إنه يسير على حافة الوضوح من دون أن يكون هناك وضوح.

وليس من النادر أن تلجأ الضحية إلى كتابة الرسائل أمام رفض الاتصال اللفظي المباشر، فهي تكتبها بغية الحصول على تفسير للرفض الذي تلاحظه، وحين لا تحصل على جواب تكتب من جديد وتبحث في سلوكها هي عن سبب ذلك، ويمكن أن تنتهي بالاعتذار عما قد تكون قد فعلته بصورة واعية أو لا واعية، وبذلك تقوم بتبرير موقف المعتدي عليها.

وقد يستخدم المعتدي هذه الرسائل ضد الضحية نفسها، وهكذا بعد مشهد عنف حصل إثر اتهام ضحية لزوجها بالكذب والخيانة، لجأ الزوج إلى تقديم رسالتها الاعتذارية السابقة إلى المخفر: «انظروا، إنها تعترف بأنها عنيفة».

وفي بعض المؤسسات ينظر إلى الضحايا الذين يحتمون خلف رسائل مسجلة على أنهم ذهانيين.

وحين يأتي الرد يكون جانبياً وبارداً، فقد أرسلت امرأة إلى زوجها رسالة مشحونة بالعاطفة والانفعال: «قل لي عما لا تطيقه بي فتكرهني بحيث لا يكون على فمك سوى الازدراء والشتائم والبصاق؟»، أجابها الزوج جواباً علمياً: «سأشرح لك أن هذه الوقائع غير موجودة. كل شيء قابل للتغيير. ليس هناك من سند يؤيد كلامك، وليس هناك من حقائق واضحة».

إن الاتصال هو الذي يتم على جميع مستويات التعبير، ويكون المعتدي متوتراً مشدود الجسم أمام هدفه: «ما إن يدخل معلمي إلى المؤسسة حتى ينظر إلي بطريقة تجعلني أتساءل عن الذنب الذي اقترفته».

تشويه اللغة

عندما يتصل الفاسد بضحيته، يكون صوته بارداً رتيباً وخالياً من أيّ نبرة عاطفية، صوت يجعل الآخر جامداً وقلقاً، فهو يلامس الازدراء أو السخرية في موضوعات تبدو غير مؤذية ظاهرياً، وحتى الملاحظ من الخارج يجد أن نغمة الصوت بحد ذاتها تتضمن لوماً خفياً وتلميحات وتهديدات مبطّنة.

إن من كان هدفاً لفاسد في السابق يعرف تماماً تلك النبرة الباردة التي تجعله يحترس والتي تثير الخوف لديه، فليس للكلمات بحد ذاتها أيّ أهمية: المهم هو نبرة الصوت، ويصف الأطفال الذين كانوا ضحايا لأب فاسد تغير نبرة الصوت قبل العدوان بصورة ممتازة: «أثناء تناول العشاء أحياناً، وبعد أن يكون أبي قد خاطب أخواتي بكلام لطيف، كان صوته يصبح بارداً فأعلم على الفور بأنه سوف يتوجه لي بكلمة جارحة».

ولا يرتفع صوت المعتدي حتى أثناء العنف المتبادل إذ يترك الآخر يعاني وحيداً، وهذا ما يؤدي إلى زعزعته: «من الثابت أنك تعانين من الهيستيريا فأنت دائمة الصراخ».

وفي الغالب لا يبذل الفاسد جهداً ليكون نطقه واضحاً، فتراه يتمتم بشيء ما عندما يكون الآخر في الغرفة الأخرى، وحين يطلب الآخر منه أن يكرر ما قاله يكون من السهل عليه أن يعيب عليه أنه لا يسمع.

إن خطاب الفاسد ضبابي ملتبس وغير محدد، فيستطيع بذلك أن يتفادى أي لوم: «أنا لم أقل ذلك قط!»، إنه يمرر رسالته مستخدماً التلميح من دون أن يتورط بصورة مباشرة، فهو يقول جملاً غير مترابطة منطقياً في خطاب متناقض، وقد يبدأ جملة ولا يكملها فيتركها معلقة بحيث يساء فهمها وتتعدد تفسيراتها أو أنه يتفوه بجمل غامضة يرفض توضيحها، وهكذا يجيب صهر على طلب خدمة تافهة تطلبها حماته:

«- لا! هذا غير ممكن!

- لماذا؟

- يجب أن تعرفي!

- لا أفهم.

- حاولي أن تفهمي!».

تقال هذه العبارات العدائية بنبرة طبيعية وهادئة تثير الآخر وتجعله يعاني وحيداً ثم نراه يفتش عما يمكن أن يكون قد قاله أو فعله أي أنه يشعر بالذنب، ونادراً ما تفشل هذه الاستراتيجية لأن المرء لا يفتقر إلى الشعور بالذنب إلا إذا كان هو نفسه فاسداً.

ولا تظهر التلميحات المزعزعة بصورة واضحة، فهذه أم تقول لابنتها التي تحاول عبثاً أن ترزق بطفل: «اسمعي، أنا أهتم بأولادي كما أريد وأنت تهتمين بأولادك كما تريدين!». يظن المرء أن هذه الملاحظة زلة لسان ولا سيما إذا تبعها ارتباك أو ندم أو اعتذار، وفي حقيقة الأمر أن هذه الأم رمت حصاة جديدة في البئر بلا وازع من ضمير.

وهناك أسلوب لفظي اعتيادي آخر يقوم على استخدام لغة تقنية محكمة مجردة بغية جر الآخر إلى موضوعات لا يفهم فيها شيئاً ولا يجرؤ على أن يسأل عنها خوفاً من أن يبدو غبياً.

يهدف هذا الخطاب البارد النظري البحت لمنع السامع من التفكير وردة الفعل، ويتحدث الفاسد بلهجة علمية بحيث يعطي انطباعاً بالمعرفة حتى لو كان يقول أي كلام، إذ يستخدم جزافاً عبارات تقنية من دون الاهتمام بمعناها الحقيقي، وفيما بعد يقول الآخر: «لقد خدعني بكلامه ولا أعلم لماذا لم أرد عليه».

المهم في خطاب الفاسد الشكل لا المضمون، إنه يقوم على الكذب ويتظاهر بالعلم: يجيب زوج زوجته بلهجة علمية حين تطلب الحديث عن حياتهما الزوجية: «إنك صورة نموذجية للنساء اللواتي يعانين من عقدة الخصاء ويسقطن على الرجال رغبتهن في امتلاك القضيب!».

إن هذه التفسيرات النفسية البربرية تنجح في تضليل الآخر الذي نادرا ما يستطيع أن يقلب الموقف لصالحه، وغالباً ما يذكر الضحايا أن حجج المعتدي غير مترابطة بحيث إنها تثير الضحك، ولكنهم يغضبون مع ذلك من هذا القدر من سوء النية.

وهناك أسلوب فاسد آخر يقوم على تسمية نوايا ضحيته وكشف أفكارها كما لو كان يعرف ما تفكر به أكثر منها: «أعرف جيداً أنك تكرهين الناس وتبحثين عن وسيلة لعدم مصادقتهم».

الكـذب

نـادراً مـا يـستخدم الفاسـد الكـذب المباشـر لكنـه يـستخدم مزيجـاً مـن الـصمت والتضمين من أجل أن يحصل سوء فهم لدى الآخر يستطيع الفاسد أن يستغله لمصلحته لاحقاً.

يقـول الـكاتـب الـصيتي «سـون تـسي» في كتابـه «فـن الحـرب» الـذي كتبـه نحـو القرن الخامس قبل الميلاد: «فن الحرب هو فن الخدعة، فحين تظهـر بـشكل معـاكس لما أنت عليه، تزداد فرصك في النصر»[1].

تدل الجمل الناقصة التي يتفوه بها المعتدي والتي تقوم على المفارقات على الخـوف من ردة فعل الآخر، إن الفاسد يفصح من دون كلام ويرجو أن يفهـم الآخـر الرسـالة مـن دون أن يقوم بتسمية الأشياء. وفي الغالب لا يمكن فك رموز هذه الرسائل إلا لاحقاً.

وتأخذ هذه الرسائل غير المباشرة لهجة التعميم أو العـدوان بـشكل غير مباشـر: «النسـاء مرعبات»، «النساء الموظفات لا يعملن شيئاً في المنـزل»، ويمكـن تـصحيح هـذه الجمل إذا احتجت الزوجة: «أنا لا أتكلم عنك، كم أنت شديدة الحساسية!».

إن هذه الطريقة تؤمن للفاسد التفوق في التبادل اللفظـي: إن الأسـلوب المباشـر قـد يقود الشريك إلى كشف تسلط المعتدي، وعلى العكس من ذلك نجـد أن التقنيـات غـير المباشرة تزعزعه وتقوده لأن يشك بحقيقة ما يحصل.

هناك نموذج آخر للكذب غير المباشـر يقـوم علـى الجـواب بطـريقـة جانبيـة أو غـير محـددة أو بهجـوم مـضاد يـشن بقـصد صـرف نظـر الآخـر وتحويلـه باتجـاه مغـاير، فقـد أجيبـت زوجـة تـشرح شـكوكها بأمانـة زوجهـا: «عنـدما تقـولين مثـل هـذه الأشياء فهـذا يعني أن لديك ما تلومين نفسك عليه!».

يمكن أن يتعلق الكذب بالتفاصيل أيضاً، يجيـب رجـل زوجتـه الـتي توبخـه علـى ذهابـه ثمانيـة أيـام مـع فتـاة إلى الريـف: «أنـت الكـاذبـة، فمـن جهـة كـانـت تـسعة أيـام لا ثمانية، ومن جهة أخرى لم تكن فتاة بل امرأة!»

١ـ سون تسي، فن الحرب، باريس ١٩٩٣.

في جميع الأحوال يجد الفاسدون وسيلة ليكون الحق معهم، وبذلك يجدون متعة في الجدل على العكس من الضحية المزعزعة إذ ينجم التشويش لدى الضحية عن الالتباس الدائم بين الحقيقة والكذب.

ولا يصبح الكذب لدى الفاسد النرجسي مباشراً إلا أثناء مرحلة التدمير كما سنرى في الفصل اللاحق، فيبدو حينذاك كذباً واضحاً تماماً مصحوباً بالاحتقار والازدراء. لا بد من كذبة راسخة يقتنع الآخر بها، ومهما كانت الكذبة كبيرة يتشبث الفاسد بها ويصل إلى إقناع الآخر بها أيضاً.

لا يهتم الفاسدون بالحقيقة والكذب: إن الصحيح هو ما يقولونه للتو، وإن تزوير الحقيقة قريب جداً من البنية المرضية، ولا يمكن للمخاطب أن يحتج بما يرشح من تلك الرسائل غير الواضحة نظراً لعدم وجود أي أثر موضوعي لها، وببساطة يتفق الكذب مع رغبة الفاسد في تجاهل ما يتعارض مع مصلحته النرجسية.

وهكذا نرى الفاسدين يحيطون تاريخهم الشخصي بغموض كبير مما يثر الاعتقاد لدى الآخر من دون الإفصاح عن أي شيء أنه إخفاء من أجل الإظهار من دون كلام.

استخدام التهكم والسخرية والازدراء

إن البارز لدى الفاسد سيطرة التهكم والازدراء إزاء العالم الخارجي وحتى ازدراء الشريك المكروه وتفكيره وأفعاله ومحيطه أيضاً. إن الازدراء سلاح الضعيف، فهو يختبئ خلف قناع من السخرية أو الدعابة مما يحميه من المشاعر غير المرغوب فيها.

وينهمر الازدراء والتهكم على النساء بصورة، خاصة إذ إن الفاسدين جنسياً ينكرون الجنس الآخر في حين آن الفاسدين النرجسيين ينكرون المرأة بكاملها ولا ينظرون لها على أنها شخصية بشرية، فنراهم يستمتعون بالنوادر التي تحول المرأة إلى طرفة.

وقد يشجع الشهود هذا السياق، ففي برنامج حواري بثته القناة الأمريكية NBC، كان على زوجين أن يتجادلا علناً حول المشكلة التالية: «لا يطيقني لأنني لست كما يريد». قال الشاب إن صديقته - وله ولد منها - ليست نحيفة وليست مثيرة كما

يتمنى، وإن أسنانها ونهديها ليست رائعة، فهو بالتالي لا يرغب فيها بل يرغب في امرأة من طراز «سندي كروفورد». لقد احتقر شريكته بحيث انفجرت باكية من دون أن يشعر بأي تعاطف معها.

كان على المشاهدين أن يقدموا آراءهم، فاحتجت النسوة دون شك على موقف هذا الرجل، ونصحت بعضهن تلك الزوجة أن تعتني بجسدها، لكن أغلب الرجال بدوا متواطئين مع الشاب عبر إضافتهم جزافاً لانتقادات جديدة حول جسد هذه المرأة المسكينة.

أما الخبيرة النفسية فقد أشارت للجمهور أنه يكفي النظر إلى «شيلي» لندرك أنها لا تشبه «سندي كروفورد»، ومع ذلك فقد أحبها «بوب» لدرجة أنه أنجب طفلاً منها، غير أن أحداً لم يكترث بتواطؤ المشاهدين والمعدِّين ولا بالإهانة التي تعرضت هذه المرأة لها.

يقوم الهزل على التهكم على كل شيء وعلى جميع الناس، وإن الاستمرار في موقف الهزل يبعد الريبة - فهو طريقة في الحياة - لكنه يخلق جواً كريهاً ويجعل عملية الاتصال غير صادقة بتاتاً.

تنجم النميمة (الكذب) والخبائث (قول الحقائق الجارحة) عن الحسد، وعلى هذا النحو:

- يقال عن فتاة تخرج مع رجل أكبر منها بأنها عاهرة،
- يقال عن المرأة المتطلبة إن زوجها لا يشبعها جنسياً،
- يقال عن مذيعة تلفزيونية شهيرة إنها لا بد من أن تكون قد نامت في سرير الحكومة كلها كي تصل إلى موقعها،
- يقال عن زميلة ناجحة إنها حصلت على «ترقية الكنبة».

تستهدف هذه الهجمات جنس النساء بصورة خاصة، ومن يستخدم السخرية يضع نفسه في موقع المطلع على مجريات الأمور مما يعطيه الحق في التهكم على أحد ما أو أمر ما جاعلاً ممن يستمع إليه حليفاً له في ذلك.

قد يكون الأسلوب مباشراً: «أتعلم أن...!»، أو غير مباشر: «أرأيت كم...؟». وليس من النادر أن تأخذ الضحية انتقادات الفاسد لمحيطه بمعناها الحرفي وتنتهي بأن تصدقها هي أيضاً.

تقبل الضحية تهكمات الفاسد وملاحظاته الجارحة كثمن لا بد من أن تدفعه كي تحافظ على العلاقة مع شريك ساحر وصعب بآن واحد.

يحتاج الفاسد لأن يُغرِقَ الآخر كي يحافظ على رأسه فوق الماء، ومن أجل ذلك يقوم بلمزات صغيرة مزعزعة، ويفضل أن يتم ذلك أمام الناس، انطلاقاً من نقطة غير مؤذية تكون صحيحة أحياناً، لكنه يغالي في وصفها متخذاً حليفاً له من الموجودين في المجلس.

يهتم الفاسد بإرباك الآخر الذي يلمح العداء لكنه لا يجزم بأن الأمر ليس دعابة، إذ يبدو الفاسد أنه يمزح في حين أنه في الحقيقة يهاجم نقاط الضعف (أنفاً كبيراً، نهدين هزيلين، صعوبة في النطق... الخ).

يتم العدوان بشكل هادئ عبر التلميح والتضمين، ولا يستطيع المرء تحديد لحظة بدايته أو النظر إليه على أنه عدوان حقيقي، وفي الغالب لا يشعر المهاجم بالذنب بل يعكس الموقف فيشير إلى الميول العدوانية لدى ضحيته: «لا تعتقدي أنني أعتدي عليك، أنت المعتدية!».

ومثلما رأينا في القصص السريرية، هناك سلوك فاسد مألوف يقوم على إضفاء لقب مضحك يتناول اعوجاجاً أو تعثراً لدى الآخر: البدينة، البزاقة، ...الخ. وحتى إذا كانت هذه الألقاب غير جارحة، فإن المحيط يتقبلها ويسخر منها، وبذلك يصبح متواطئاً مع المعتدي.

إن هذه الملاحظات الجارحة تسبب جراحا لا تداويها محاولات الكياسة حين يقوم الشريك بتحويل الألم الذي ينجم عنها إلى دعابة.

وهناك شيء من اللعب في هذه الاعتداءات اللفظية وهذه التهكمات وهذه الوقاحة، وينجم هذا اللعب عن متعة الجدل (متعة دفع الآخر إلى المواجهة). إن الفاسد النرجسي يحب الجدل كما قلنا سابقاً، وهو قادر على أن يقدم وجهة نظر في يوم، ثم يدافع عن نقيضها في اليوم التالي، وذلك فقط من أجل إثارة الجدل أو من أجل أن يصدم الآخر عمداً. ويكفي زيادة التحريض قليلاً إذا لم ينفعل الشريك بصورة كافية. ولا ترد الضحية على هذا العنف لأن لديها ميلاً لأن تجد عذراً للآخر ولأن هذا العنف يتم بصورة ماكرة. ولو حصل مثل هذا الموقف العنيف بشكل مفاجئ لكان يثير

الغضب، غير أن حصوله التدريجي ينزع فتيل أيّ ردة فعل، ولا تتيقن الضحية من عدوانية الرسالة إلا عندما تكون هذه الرسالة قد أصبحت اعتيادية تقريباً.

ويلقى خطاب الفاسد النرجسي مستمعين يسحرهم من دون أن يشعروا بالإهانة التي تعاني الضحية منها، وليس من النادر أن يطلب المعتدي من الحاضرين مشاركتهم بمشروعه التدميري طوعاً أو كرهاً.

وبالاختصار تكفي النقاط التالية من أجل زعزعة الآخر:

- السخرية من ذوقه ومعتقداته وخياراته السياسية،
- الكف عن توجيه الحديث له،
- جعله أضحوكة أمام الناس،
- اغتيابه أمام الآخرين،
- حرمانه من القدرة على التعبير،
- التهكم على نقاط ضعفه،
- التلميح الفظ من دون الإيضاح،
- الشك بقدراته في المحاكمة واتخاذ القرار.

استخدام المفارقات

إن من تعاليم «سون تسي» أيضاً أنه لا بد من تقسيم جيش العدو للانتصار في الحرب حتى قبل الشروع في المعركة: «حاولوا أن تكونوا منتصرين قبل أن تبدؤوا المعركة [...]، كان القدماء يحاولون زعزعة ثقة العدو بنفسه قبل القتال وذلك عبر إهانته وإذلاله وإخضاع قواته لامتحان قاس [...]. أفسدوا أفضل ما لديه بالهدايا والعروض والوعود وأفسدوا ثقته بنفسه عبر دفع خيرة ضباطه إلى أفعال شائنة ومخزية، ولا تقصروا في نشرها على الملأ».

وفي العدوان الفاسد نشهد محاولة لزعزعة الآخر وجعله يشك بأفكاره وعواطفه بحيث تفقد الضحية الشعور بالهوية، فلا تستطيع أن تفكر أو تفهم، ويكمن الهدف

في نفيها عبر جعلها مشلولة مما لا يحتم نشوب صراع معها، وهكذا يستطيع الفاسد أن يهاجمها من دون أن يخسرها، أي أنها تبقى تحت تصرفه.

ويتم ذلك في عملية قسرية مزدوجة: يقال شيء على المستوى اللفظي ويتم التعبير عن العكس على المستوى غير اللفظي. إن الخطاب الذي يقوم على المفارقات يتكون من رسالة واضحة ومن معنى ضمني آخر ينكره المعتدي، وهذه وسيلة ناجحة لزعزعة الآخر.

ومن بين الخطابات التي تعتمد على المفارقات خطاب يقوم على زرع الشك بأحداث تافهة من الحياة اليومية، فينتهي الشريك بأن يصل إلى عدم الاستقرار: لا يعرف من هو على خطأ ومن هو على صواب، إذ يكفي الفاسد أن يقول مثلاً إنه موافق على اقتراح الآخر وفي الوقت نفسه يبدي له بالحركات الإيمائية أن هذه الموافقة موافقة شكلية.

يقال شيء ثم يتم التقليل من أهميته فوراً، ولكن الأثر يبقى شكاً وريبة: «أيقصد ذلك؟ أم أنني أفسر الأمور بشكل خاطئ؟». وحين تحاول الضحية شرح شكوكها تعامل على أنها ذهانية تقوم بتفسير كل شيء جزافاً.

وتنجم المفارقة غالباً عن التباين بين الكلمات والنبرة التي قيلت بها مما يقود الشهود إلى أن يلتبس عليهم مضمون الحوار.

وتقوم المفارقة أيضاً على إشعار الآخر بالتوتر والعدوانية حيث يتم الهجوم على الأشياء كأن يغلق الباب بقوة أو أن ترمى الأشياء على الأرض بعصبية مع إنكار أي شعور عدائي تجاه الضحية.

إن خطاب المفارقة يجعل الآخر حائراً فيجنح إلى تشويه موقفه أو إلى تبرير نفسه كونه غير متأكد مما يشعر به.

وليس من السهل الاستدلال على الرسائل التي تقوم على المفارقات والتي تهدف إلى زعزعة الآخر وتشويشه عبر جعله يشعر بأحاسيس متناقضة مع احتفاظ الفاسد بالتحكم في هذه العملية، فهو يربكه ويثق بقدرته على خداعه، وغاية ذلك كما أسلفنا التحكم بمشاعر الآخر وتصرفاته وحتى العمل بحيث ينتهي بالموافقة والشعور بالعجز. ويقوم الفاسد بكل ذلك بغية الاحتفاظ بالسلطة.

وفي معظم الأحيان تأخذ الضحية المعنى الحرفي لما يقوله رغبة منها في التوافق معه نافية بذلك الإشارات المتناقضة وغير اللفظية: «عندما أهدد بالرحيل يقول زوجي إنه يتمسك بعلاقتنا الزوجية وقد يكون ذلك صحيحاً على الرغم من الجراح والإهانات التي يسببها!».

وفي الصراع مع الفاسد النرجسي ليس هناك من معركة حقيقية أو توافق ممكن خلافاً للصراع العادي. إنه لا يرفع صوته البتة بل يبدي عدائية باردة ينفيها عندما يذكرها الآخرون، وحين يثور الآخر ويأخذ بالصراخ يصبح من السهل أن يسخر من غضبه وأن يحوله إلى أضحوكة.

وحتى في النزاعات المفتوحة الظاهرة لا تتوصل الضحية إلى ذكر موضوع الخلاف الحقيقي بصورة صحيحة لأنها لا تعرف موقعها منه بالضبط، فهي تشعر أنها تراكم ضغينتها لوحدها. كيف يمكن تسمية المشاعر والأحاسيس والانطباعات الضبابية؟ لا يوجد شيء محسوس قطعاً.

إن جميع الناس يستخدمون تقنيات الزعزعة هذه، لكن الفاسد النرجسي يستخدمها من دون أي تعويض أو أي اعتذار. إنه يغلق دائرة الاتصال فيجعل الآخر عاجزاً عن تقديم الأجوبة الملائمة لأنه لا يفهم الموقف. إنه يجتهد لإيجاد الحلول - وهي غير مناسبة في جميع الأحوال - ولا يستطيع أن يتفادى حصول الضيق والاكتئاب مهما كانت درجة مقاومته.

في الحياة الزوجية الطبيعية يتوافق هذا النوع من الاتصال مع تماسك العلاقة ويؤدي إلى نوع من الاستقرار مع مرور الوقت. وبهدف التحكم في الأمر، يطرد الزوجان كل ما يمكن أن يفكك وحدتهما فيحصل استقرار في المعاناة، إلا أنه استقرار على كل حال. أما في الحالات الأخرى فليس أمام الضحية سوى أن تعاني لوحدها.

يقوم الاتصال الفاسد على رسائل ذكية لا يتم إدراك عدوانيتها فوراً لأنها تأتي مصحوبة غالباً برسائل مشوشة بحيث لا يمكن فك رموزها إلا عندما يكون المرسل إليه قد خرج عن سطوة الفاسد.

ظلت فتاة حتى سن الرشد كي تدرك الالتباس الموجود في البطاقات البريدية التي كان يرسلها لها زوج أمها عندما كانت مراهقة. كانت تلك البطاقات تمثل صوراً

لنساء عاريات على شاطئ البحر، وكان يكتب على قفا البطاقة: «أفكر بك كثيراً!». حينذاك كانت ترى في ذلك علامة لاسترعاء الانتباه وكانت تنزعج منها مع ذلك، وقد أتاح لها هذا الإدراك الجديد أن تفك رموز رسائل أخرى لم تكن تفهمها في وقتها، ولكنها كانت تزعجها، من قبيل أنه كان يركز نظره على نهديها أو يروي لها نوادر ماجنة.

إن هذا التوثيق لمفهوم «الحرام» يظهر مدى الاختلاط بين الفساد الأخلاقي والفساد الجنسي، ففي كلتا الحالتين يستخدم الآخر على أنه شيء. إن عملية «نزع الدماغ» التي تجري للفرد تفقده قيمته لكنها تنطلي على المحيط أيضاً بحيث يصعب معرفة من قال ذا ومن فعل ذاك، وعلاوة على الشخص المستهدف والمرغوب في شله وإسكاته، فإن المحيط المعني أو المهني يجد نفسه في حيرة من أمره.

وهناك نقطة أخرى مشتركة هي انتقال الشعور بالذنب حيث يتم نقل الشعور بالذنب إلى الضحية بصورة كاملة إلى درجة أن تتقمص الضحية ذلك الذنب «كل هذا بسبب غلطتي!»، في حين أن الفاسد النرجسي يقوم بالتصدير إلى الخارج «كل ذلك بسبب غلطته!».

التحقير

يقوم ذلك على تجريد الفرد من مزاياه الخاصة وعلى القول والتكرار له بأنه لا يساوي شيئاً حتى يصل إلى أن يصدق ذلك.

ويتم ذلك في البداية كما رأينا بطريقة مستترة عبر قاموس الاتصال غير اللفظي: نظرات ازدراء، زفرات زائدة، تلميحات مزعزعة أو عدوانية، ملاحظات فظة، انتقادات غير مباشرة مستترة في دعابة أو طرفة.

ويصعب اعتبار هذه الاعتداءات اعتداءات فعلية لأنها غير مباشرة، وبالتالي يصعب الدفاع عن النفس إزاءها. وحين تطرق هذه العبارات ضعفاً فردياً أو نقصاً في الثقة في النفس، أو حين يتم توجيهها إلى طفل، فإن الضحية تتمثلها وتتقبلها على أنها حقيقة. «أنت لا تصلح لشيء!»، «أنت لاشيء» (أو أخرق) بحيث لا يرغب فيك أحد

سواي، لولاي لكنت وحيداً». إن الفاسد يستدرج الآخر ويفرض عليه رؤية الحقيقة بصورة مزورة.

وانطلاقاً من هذه الجملة المباشرة «أنت لا شيء»، تتمثل الضحية هذه الفرضية: «أنا لا شيء»، وتصبح لاشيء بالفعل، فلا تتمتع بأيّ عملية نقدية: تصبح الضحية لا شيء لأن الآخر قرر لها أن تكون كذلك.

إن التحقير عبر استخدام المفارقات والكذب والأساليب الأخرى يتجاوز أحياناً الهدف المحدد ليصل إلى محيطه وأهله وأصدقائه ومعارفه: «إنه لا يعاشر إلا الحمقى».

يستخدم الفاسد كل هذه الاستراتيجيات بغية الإعلاء من شأنه عبر التخفيض من قيمة الآخر.

فرّق تسد

يقول «سون تسي» أيضاً: يجب عليكم أن تبثوا الاضطراب في حكومة الخصم. ازرعوا الشقاق بين القادة عبر إثارة الشك والغيرة، حرّضوا على الفوضى، أثيروا أسباب الخلاف [...] يجب أن نثير الإشاعات المغرضة بحيث نلطخ سمعة جنرالات العدو ونجعل حاكمهم ينظر إليهم بالريبة والشبهات.

يمتاز الفاسد النرجسي تحديداً في هذه النقطة إذ يتقن فن تحريض الناس بعضاً على بعض ويجيد إثارة الشقاق والغيرة، ويمكن أن يتم ذلك بالتلميح: «ألا تجد أن فلاناً كذا وكذا؟»، أو بكشف نوايا أحدهم أمام الآخر: «يقول أخوك إنك سيئ السلوك»، أو بالكذب الذي يفضي إلى الشقاق.

يجد الفاسد متعة كبيرة في تدمير فرد على يد فرد آخر وفي مشاهدة معركة تنهك الطرفين مما يؤدي إلى تعزيز قوته الشخصية.

ويتم ذلك في المؤسسة بالقيل والقال وعدم التفاهم ومزايا تعطى لموظف دون آخر وإطلاق شائعات تجرح الضحية في الصميم من دون أن تستطيع تحديد مصدرها.

إن تغذية الشك بالتلميح والصمت طريقة ماهرة لتعذيب الشريك في الحياة الزوجية وللحفاظ على تبعيته عبر تغذية الغيرة لديه، ولا يمكن تغذية الغيرة إلا عبر الشك، على النقيض من الحسد الذي يدفع الآخر للانفلات.

يشكل دفع الآخر للغيرة حبكة مسرحية «عطيل» التي كتبها «شكسبير». ليس «عطيل» غيوراً بطبعه فهو يبدو نبيلاً وكريماً، وقلما يعتقد بأن الآخرين شريرون، وهو لا يحب الانتقام أو العنف، لكنه أصبح غيوراً بعد مناورات «إياجو» الذكية، ففي البدء يرفض هذا المسكين أن يصدق خيانة زوجته فهو يثق في «إياجو» وفيها أيضاً، في حين يصرح «إياجو» في المونولوج أنه يحب أن يفعل الشر من أجل الشر، ويعترف لاحقاً أن نبل وفضيلة رجل محترم مثل «كاسيو» وطهارة «ديدمونة» يثيرانه ويدفعانه لتحطيم هذه الفضيلة وذاك الجمال. إنه يتلذذ بالخسة فيرغب في أن يحيك مكائد محكمة تصل إلى غايتها.

يستفيد الفاسد من إثارة الغيرة لدى الآخر بأنه يبقى خارج مجال الغضب والكراهية، فيكون النزاع بين الشريك وخصمه الجديد، أما الفاسد فهو يعد النقاط فحسب ولا يلوث يديه، والفاسد حسود في حقيقة الأمر، وحين يدفع الآخر لأن يصبح غيوراً يكون قد وضعه في نفس المستوى «نحن متشابهان في الغيرة».

رأينا أن الضحية لا تجرؤ على أن تعتدي على شريكها الفاسد بصورة مباشرة، ولذلك ترى في دخولها مجال الغيرة وسيلة لأن تحافظ عليه عبر تجنب مواجهته، إن من الأسهل عليها أن تواجه شخصاً ثالثاً يقدمه الفاسد فريسة لها.

فرض السلطة

نحن أمام منطق يسود فيه الأقوى، إنه منطق التعسف السلطوي، وتتم السيطرة على زمام السلطة عبر اللغة، أي عبر خلق انطباع لدى الآخر بأن المتكلم يعرف أفضل منه، وأنه يستأثر «بالحقيقة». يقوم خطاب الفاسد على التعميم، وحين يقدم عبارات صحيحة عموماً، يتظاهر بأنه «يعرف» وأنه على صواب ويحاول أن يجر الآخر إلى أرضه عبر اقتياده إلى الموافقة على خطابه. وعلى سبيل المثال بدلاً من أن يقول «لا أحب فلاناً»، يقول: «أتعرف أن فلاناً قواد؟ ألا تصدق؟ إن الجميع يعلمون ذلك!».

ثم يعمم خطابه بحيث يجعل منه مقدمة منطقية كبرى، فيقول المخاطب في نفسه: «لا شك أنه على حق فهو يعرف عما يتحدث!»، وبذلك يقود الفاسدون النرجسيون شركاءهم الذين لا يتمتعون بدرجة عالية من الثقة بالنفس فيميلون للاعتقاد بأن الآخرين يعرفون أفضل منهم، ويشعر الفاسدون بالاطمئنان حين يكون شركاؤهم أكثر هشاشة.

وليس هذا الخطاب المكتفي بذاته والمقرر سلفاً بعيداً عن سياق الهذيان الذهاني. إن المريض الذهاني يجد لزاماً عليه أن يجد جانباً سلبياً لدى كل شخص، وترتبط النقاط التي يغتاب بها الآخرين بإمكانية أتاحها له الآخرون أنفسهم، غير أنها ترتبط على الغالب بمصادفة تحددها الظروف الخارجية.

وهكذا ينشأ سياق السيطرة فتصبح الضحية خاضعة مقهورة محكومة وممسوخة، وإذا تمردت يتم نعتها بالشر والعدوان. على أيّ حال تجري آلية شمولية تقوم على الخوف وتهدف إلى أن يحصل خضوع سلبي: ينبغي على الآخر أن يتصرف كما يتوقع الفاسد وعليه أن يفكر حسب معايير هذا الفاسد، فلا يملك أي فكر نقدي خاص. إن الآخر غير موجود إلا بمقدار ما يبقى في الموقع المخصص له، وهكذا يتعلق الأمر بإنكار كل سمة مميزة للآخر ونفيها.

يقيم المعتدي هذه العلاقة التأثرية لمصلحته وعلى حساب مصالح الآخر فتصبح الضحية تابعة للفاسد الذي ينسب التبعية لها علماً بأنه هو من أنشأها. وحين يعبر الفاسد بصورة واعية عن رغبته في انصياع الآخر يتصرف بحيث لا يستطيع الآخر أن يلبي تلك الرغبة: إما لأن الطلب يتجاوز قدرات الآخر، وفي هذه الحالة يسجل العجز عليه، أو لأن هذا الطلب قد قُدِّمَ في لحظة لا يمكن فيها تلبيته. إنه يدفع الآخر إلى الرفض مما يضمن له أن يرى الحياة كما يريد أن يراها تماماً.

يتميز العنف الفاسد عن التعسف السلطوي المباشر أو الاستبداد، فالاستبداد طريقة للاستئثار بالسلطة عن طريق القوة، والظلم ظاهر فيه إذ يخضع الواحد لأن الآخر يمسك زمام السلطة بشكل صريح، والهدف من التعسف السلطوي الصريح هو السيطرة فحسب.

يقدم لنا «أنستان» مثالاً على التعسف السلطوي المباشر، فهذا الرجل تعب من وجود زوجته الأولى، وهي أم ولديه واسمها «ميلينا ماريك». إنه لا يرغب بالمبادرة في

الانفصال، لكنه يحدد كتابياً شروطاً جائرة ومهينة من أجل الاستمرار في العيش المشترك (جريدة لوموند، ١٨ تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٩٦).

آ- ينبغي عليك أن تحرصي على:

١- ترتيب فراشي وشراشفي.

٢- تقديم ثلاث وجبات يومية لي في المكتب.

٣- أن تكون غرفتي ومكتبي بحالة جيدة دائماً، وألا يلمس أحد غيري طاولة عملي.

ب- الكف عن أيّ علاقة شخصية بي فيما عدا العلاقة الضرورية للمظهر الاجتماعي، وبصورة خاصة لا تطلبي مني:

١- أن أجلس معك في المنزل.

٢- أن أخرج بصحبتك.

ج - تتعهدين بوضوح أن تراعي النقاط التالية:

١- لا تتوقعي أيّ عاطفة مني ولا تلوميني على ذلك.

٢- الجواب فوراً عندما أكلمك.

٣- مغادرة غرفتي أو مكتبي فوراً ومن دون احتجاج عندما أطلب ذلك.

٤- التعهد بعدم اغتيابي أمام الأطفال لا قولاً ولا فعلاً.

إن التعسف السلطوي واضح هنا بل هو مكتوب في حين أن الفاسد يستر التسلط وينكره، فهو لا يكتفي بإخضاع الآخر بل يستحوذ عليه.

يتم العنف الفاسد بطريقة ماكرة أحياناً، فيتستر بقناع الكياسة أو الرفق، فلا يدرك الشريك أن هناك عنفاً بل قد يتوهم أحياناً بأنه هو الذي يقود اللعبة. إن النزاع الصريح غير موجود لكن هذا العنف الخفي يحصل انطلاقاً من توتر حقيقي في العلاقة بين الشريكين.

العنف الفاسد

تؤدي مقاومة التسلط إلى التعرض للكراهية، ففي هذه المرحلة يصبح الآخر الذي ينظر إليه على أنه شيء مفيد موضوعاً خطراً يجب التخلص منه بأيّ وسيلة، حينئذ تتضح الاستراتيجية الفاسدة.

إبداء الكراهية

تبدو مرحلة الكراهية في وضح النهار عندما ترد الضحية وتحاول أن تستعيد شيئاً من حريتها. وعلى الرغم من وضوح أقوالها، إلا أنها تحاول أن تضع حداً فيأتي قولها الفصل: «هذا يكفي»، إما لأن عنصراً خارجياً أتاح لها أن تدرك عبوديتها - وتحصل هذه الحالة عموماً عندما ترى المعتدي ينقض على شخص آخر - أو حين يجد الفاسد شريكاً جديداً ممكناً فيحاول أن يدفع شريكه السابق إلى إبداء العنف.

عندما تعطي الضحية انطباعاً بالتملص، يشعر المعتدي بالذعر والغضب فيصبح هائجاً مائجاً. يجب إسكات الضحية عندما تعبر عن شعورها.

إنها مرحلة وضوح الكراهية العنيفة التي تتكون من هجمات منحطة من الشتائم والألفاظ المحقرة المهينة التي تسخر من جميع مزايا الآخر. إن سلاح التهكم يحمي الفاسد من أكثر ما يخشاه، ألا وهو الاتصال.

إن الآخر يستعرض نفسه من أجل الوصول إلى التواصل بأي ثمن كان، ولكنه يعاني من الهجوم ويتعرض له كلما استعرض نفسه، ذلك أن الفاسد لا يحتمل مشهد المقاومة، فيعزز من اعتداءاته كي يصل إلى إسكات الضحية، وإذا أظهر الآخر نقاط ضعفه يستغلها الفاسد ضده فوراً.

كانت الكراهية موجودة سابقاً أثناء مرحلة التسلط، لكن الفاسد كان يحولها ويموهها بحيث يضفي الجمود على علاقتهما، أما الآن فإن كل ما كان خفياً سوف يظهر في وضح النهار: لقد أصبح الشروع في التدمير مبرماً.

ليس الأمر هنا حباً تحول إلى كراهية كما يعتقد البعض، بل حسد تحول إلى كراهية، وليس الأمر تناوباً في الحب والكراهية مما يدعوه «لاكان» (كرا - حب)، لأنه لم يكن هناك حب بالمعنى الحقيقي للكلمة من جانب الفاسد، حتى أننا نستطيع أن نتحدث عن كراهية الحب كي نصف هذه العلاقة الفاسدة على غرار رأي «موريس هورني» و «جيوفانا ستول»[1]. إنه لا حب يستتر خلف قناع الرغبة، لا في الشخص ذاته، بل فيما لديه من المزايا التي يريد الفاسد أن يستحوذ عليها. وهي كراهية مستترة مرتبطة بالإحباط من عدم حصوله على كل ما يرغب من الآخر، حينذاك يتم التعبير عن الكراهية بصورة صريحة عبر الرغبة في تحطيم الآخر وإعدامه، ولا يبتعد الفاسد عن هذه الكراهية حتى مع مرور الوقت، إنها بدهية بالنسبة إليه: «الأمر كذلك!»، ولو كان أي إنسان آخر يجد أن أسبابها واهية.

إنه يبرر الكراهية عبر اضطهاد الآخر فيضطره إلى الدفاع المشروع عن النفس، وتظهر عنده حينذاك أفكار الاضطهاد والضرر كما هو الأمر عند الذهانيين فيستبق الردود الدفاعية المتوقعة مما يقوده إلى سلوك قتالي وتصرفات إجرامية، ويعتقد أن الخلل يعود على الآخرين الذين اتحدوا في مشروع يستهدفه.

وبظاهرة إسقاطية، يكنُّ المعتدي كراهية للضحية تعادل الكراهية التي يتصورها لديها. إنه يرى الضحية وحشاً مشؤوماً مدمِّراً وعنيفاً، وفي حقيقة الأمر أن الضحية في هذه المرحلة لا تشعر بالكراهية ولا بالغضب، وهذا ما قد يتيح لها أن تحمي نفسها، ولكن المعتدي ينسب النية السيئة إليها ويستبق الأحداث فيكون البادئ في العدوان، والضحية مذنبة في جميع الأحوال على أساس النية.

تشكل هذه الكراهية التي يتم إسقاطها على الآخر، بالنسبة للفاسد النرجسي، وسيلة لكي يحمي نفسه من الاضطرابات التي قد تتجاوز مجال الذهان، وهي وسيلة مناسبة أيضاً لكي يبعد نفسه عن أيّ كراهية لا واعية للشريك الجديد

١- هورني وستول، كراهية الحب، باريس ١٩٩٥.

عندما يقيم علاقة جديدة، فحين يركّز كراهيته على الشريك السابق يقوم بذلك بحماية الشريك الجديد الذي يضفي عليه أفضل المزايا، وحالما تدرك الضحية أنه يستخدم هذه الكراهية لتعزيز علاقته الجديدة مع خصمها، تشعر بأنه يتلاعب بها ويوقعها في فخه.

وفي هذا السياق يخاف كلاهما من الآخر، فالمعتدي يخشى من القدرة الكلية التي يتوهمها عند ضحيته، والضحية تخشى عنف المعتدي النفسي والجسدي.

ظهور العنف

إنه عنف بارد لفظي يقوم على القدح والتضمين العدائي والاستعلاء والشتائم، ويأتي التدمير المدمر من تكرار هذه الاعتداءات غير المؤذية ظاهرياً، فالضحية تشاهدها دائماً وتدرك أنها لن تتوقف. كل شتيمة جديدة تجد صداها في الشتائم السابقة وتحول دون النسيان الذي تتمناه الضحية ويرفضه المعتدي.

لا شيء يطفو على السطح، ومع ذلك فهذه كارثة مفروضة على الأسر والمؤسسات والأفراد، وتكون الجريمة كاملة عندما يكون العنف جسدياً، وهذه حالة نادرة تنجم عن قيام الضحية بردة فعل قوية.

إن التهديدات غير مباشرة ومستترة بصورة دائمة، والفاسد يُعْلِم ضحيته عما سيحصل لو لم تذعن لرغباته عن طريق الأطفال أو عن طريق الأصدقاء المشتركين الذين يتلاعب بهم هم أيضاً. إنه يوجه رسائل أو اتصالات هاتفية توصف بأنها طرود مفخخة أو قنابل موقوتة.

وإذا وصل العنف المفاجئ (الابتزاز والتهديد والتحقير) حد القتل، يكون ذلك انزلاقاً له، لأنه يفضل أن يقتل بصورة غير مباشرة، بل أن يقود الآخر إلى أن يقتل نفسه.

وتختفي علامات العدوان في الأزمة أو في اللحظات الحرجة، لأنها كانت موجودة بصورة ثابتة ودائمة عبر جرعات صغيرة يتم تقديمها كل يوم أو عدة مرات في الأسبوع على مدى شهور أو سنوات. ولا يتم التعبير عنها بلهجة غاضبة، بل بلهجة باردة تنطق بحقيقة أو بدهية. إن الفاسد يعرف إلى أي مدى يمكنه أن يذهب، ويعرف كيف

يقيس عنفه، فإذا شعر بإمكان وجود ردة فعل ينسحب إلى الخلف بمهارة. ويتم تقطير العدوان وتقديمه بجرعات صغيرة في وجود الشهود. فإذا ردت الضحية ووقعت في الفخ، فرفعت صوتها مثلاً، تبدو هي المعتدية ويتحول المعتدي إلى ضحية.

إن الضحايا فقط هم القادرون على كشف التضمين، فكثيراً ما يتم التلاعب في القضاة الذين تربكهم مثل هذه الحالات المعقدة على الرغم من اتخاذهم جانب الحيطة والحذر، مثلما يحصل في حالة الطلاق مثلاً.

إن الأمر يتعلق بما نعته «إيميل كوكارو» بالانقضاض على الفريسة وذلك في دراسته حول بيولوجيا العدوان: إنه فعل الأفراد الذين يختارون ضحيتهم ويصممون هجومهم مثلما يفعل الحيوان المفترس مع فريسته، فالعدوان مجرد أداة تتيح للمعتدي أن يحصل على ما يريد.

وهو عنف غير متكافئ أيضاً، ففي العنف المتكافئ يقبل الخصمان الصراع والمواجهة، أما هنا فالعكس تماماً لأن من يشرع في العنف يرى أنه متفوق على الآخر فعلاً، والضحية تصدق ذلك، وقد نعت «رينالدو بيرونيه»[1] هذا النوع من العنف الماكر بـ «العنف التأديبي»، وليس هناك من اتفاق أو هدنة فيه مما يجعله عنفاً مستتراً داخلياً ومبرماً. لا أحد يتحدث عنه إلى الخارج، لا المجرم ولا الضحية، فمن يقوم بالعنف يعتبر أن الآخر يستحقه ولا يملك حق الشكوى، وحين ترد الضحية وتغير سلوكها الوديع يُنظر إليها على أنها مهددة وعدوانية، ويحول المعتدي نفسه إلى ضحية. إن الشعور بالذنب يحول دون الرد الدفاعي لدى الضحية، وكل رد انفعالي يستجر لدى المعتدي تصعيداً في العنف أو مناورة تهدف إلى صرف نظر الضحية عن المشكلة (لا مبالاة، دهشة مصطنعة، ...).

وتشبه هذه العملية رهاباً متبادلاً: تسبب رؤية الشخص المكروه حنقاً بارداً لدى الفاسد، في حين أن رؤية المضطهد تطلق سياق الخوف لدى الضحية.

عندما يحدد الفاسد فريسته يتشبث بها، ومن الشائع أن يعبر عن ذلك صراحة: «من الآن فصاعداً سيكون هدفي في الحياة تنغيص عيشها»، ثم يتصرف بحيث يصبح ذلك حقيقة واقعة.

١- بيرونيه ومانيني، العنف والتعسف الجنسي في الأسرة، باريس ١٩٩٥.

وحين تدور هذه الدوامة لا تستطيع أن تتوقف لوحدها، إذ يشتد المرض لديهما، فيصبح الفاسد أشد إذلالاً وعنفاً والضحية أشد عجزاً وتمزقاً، وما من قرينة تدل على حصول الجريمة، فعندما يكون هناك عنف جسدي يمكن استخدام عناصر خارجية كثيرة في الشهادة: معاينة طبية، شهود عيان، ضبوطات شرطة، أما في العنف الفاسد فلا وجود لأي إثبات، إنه عنف «نظيف» لا يبدو أي شيء منه.

تضييق الخناق على الآخر

كان فعل الفاسد النرجسي يتركز على منع ضحيته من التفكير أثناء مرحلة التسلط، أما في المرحلة التالية فيسبب لها مشاعر وأفعالاً وردوداً وآليات زاجرة.

وحين يكون عند الآخر القدر الكافي من الدفاعات الفاسدة، يشترك معه في المزايدة بحيث يحصل صراع فاسد لا ينتهي إلا باستسلام أقلهما فساداً.

يحاول الفاسد أن يدفع ضحيته لأن ترد عليه كي يستطيع فيما بعد أن يفضحها زاعماً أنها «سيئة»، فالمهم أن تبدو الضحية مسؤولة عما يحصل لها، ويستخدم المعتدي نقاط ضعف الآخر (ميل للاكتئاب، هيستيريا، مزاجية) كي يجعل منه شخصية كاريكاتيرية تفتقر إلى الثقة بالنفس. إن دفع الآخر إلى الخطأ يتيح نقده أو تحقيره ولا سيما أن ذلك يشكل لديه صورة سيئة عن نفسه ويقوي شعوره بالذنب.

إذا لم يكن لدى الضحية القدر الكافي من ضبط النفس، يكفي الفاسد زيادة إثارتها وازدرائها كي يدفعها لردة فعل يمكن أن تلام عليها فيما بعد، فإذا ردت بالغضب مثلاً يتصرف بحيث يجعل الآخرين يلاحظون هذا السلوك العدواني مما قد يدفع أحدهم لاستدعاء الشرطة. وهناك فاسدون يدفعون الآخر إلى الانتحار أيضا: «يا ابنتي المسكينة: ماذا تنتظرين من الحياة؟ لا أعلم لماذا لا ترمين نفسك من النافذة!»، ومن السهل على المعتدي أن يدعي لاحقاً أنه كان ضحية مريض عقلي.

تجد الضحية نفسها مرغمة على ردة الفعل إزاء إنسان يقوم بتجميد كل شيء، ولكن التسلط يعيقها ولا تستطيع أن تجد حريتها إلا بقفزة نوعية عنيفة. والملاحظ من الخارج يرى أن كل فعل نزق يعتبر مرضياً ولا سيما إذا كان عنيفاً، وبذلك يصبح من

يرد على الإثارة مسؤولاً عن الأزمة. إنه مذنب بنظر الفاسد ومعتدٍ بنظر الملاحظين من الخارج الذين لا يرون أن الضحية في وضع لم تعد تستطيع فيه احترام العيش المشترك، لأنه بمثابة فخ يطبق عليها. إنها مقيدة بقيد لا تستطيع الخروج منه مهما فعلت: إذا ردت فهي سبب النزاع، وإذا لم ترد تسمح للدمار القاتل بالانتشار.

يشعر الفاسد النرجسي بمتعة كبيرة كلما سجل نقطة ضعف جديدة عند الآخر أو كلما سبب للآخر عنفاً يجعله يتراجع عن موقفه، فهو يقوده بذلك لئلا يكون فخوراً بنفسه ويصمه بصفة معينة (مزاجي، سكير، انتحاري) بناء على ردة الفعل التي يبديها. إن الضحية تشعر بنفسها مجردة من السلاح وتحاول أن تبرر نفسها كما لو كانت مذنبة فعلاً. إن متعة الفاسد مضاعفة هنا: متعة خداعها وإهانتها ثم متعة تذكيرها بوضعها المزري، وحين تنهمك الضحية في إعادة حساباتها، يجني الفاسد ثمار الموقف مركزاً على أن يقدم نفسه على أنه ضحية من دون أن يفصح عن ذلك صراحة.

وبما أن الفاسد لم يقل شيئاً ولم يوجه أي لوم بصورة مباشرة، يستحيل على الضحية أن تستطيع أن تبرر نفسها، وقد تلجأ إلى الصمت والتلاعب بغية إيجاد مخرج لهذا الموقف المستحيل، هنا يحصل التباس في العلاقة: من هو المعتدي ومن هو المعتدى عليه؟ إن الفاسد يطمح إلى أن يجعل الآخر «شريراً»، وبهذا يجعله شريكاً في الخبث، وهو لا يشعر بالرضى إلا عندما يجعل هدفه المدمَّر مدمِّراً بدوره، أو عندما يستدرج عدة أفراد لأن يقاتل بعضهم بعضاً.

يسعى جميع الفاسدين، سواء أكانوا من الفاسدين النرجسيين أو الجنسيين، ليستدرجوا الآخر إلى موقعهم، ثم يقودونهم إلى أن يتخلوا عن قواعدهم الأخلاقية. وتعتمد قوتهم التدميرية على الدعاية التي يقومون بها ليبرهنوا للمحيط على درجة «سوء» المعتدى عليه وضرورة مهاجمته، وينجحون أحياناً في إيجاد حلفاء يستدرجونهم خارج حدودهم عبر التهكم والازدراء على القيم الأخلاقية.

إن الوسيلة الوحيدة لتعطيل انتشار هذا السياق تكمن في عدم الانقياد للفساد مما يشكل فشلاً ذريعاً للفاسد.

المعتـــدي

يمكـن لأي شـخص أن يلجـأ لاسـتخدام آليـات دفاعيـة فاسـدة عنـد الأزمـة، فالسمات النرجسية مشتركة بين الناس (أنانية، رغبة في إثارة الإعجاب، عدم تساهل اتجاه النقد)، وهذه السمات ليست مرضية بحد ذاتها. ومن جهة أخرى حصل لنا جميعاً أن تلاعبنا بالآخرين بهدف الحصول على منفعة ما، كما شعرنا جميعاً بكراهية مدمرة عابرة. وما يميزنا عن الأفراد الفاسدين أن هذه التصرفات والمشاعر لم تكن سوى ردات فعل عابرة تبعها شعور بالندم أو تبكيت الضمير، إذ يضطلع العصابي بوحدته عادة عبر الصراعات الداخلية، في حين أن مفهوم الفساد يفترض استراتيجية استخدام وتدمير الآخرين من دون أي شعور بالذنب.

يزعم العديد من المحللين النفسانيين أن هناك شيئاً من الفساد الطبيعي لدى كل فرد «نحن جميعا فاسدون من مختلف الأشكال». ويستشهدون بالجانب الفاسد الموجود لدى كل عصابي والذي يتيح له أن يدافع عن نفسه، في حين أن جوهر الفاسد النرجسي لا يقوم إلا على إشباع غرائزه المدمرة.

الفساد النرجسي

ظهرت كلمة «فساد» perversion في اللغة الفرنسية عام ١٩٤٤ وتعني تحول الجيد إلى سيئ، وهي كلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية per-vertere وتعني «تحول»، في حين أن المعنى الشائع حالياً لكلمة فاسد يتضمن حكماً أخلاقياً.

في القرن التاسع عشر اهتم الأطباء العقليون بالفساد على صعيد الطب الشرعي، وحاولوا إثبات عدم مسؤولية الفاسدين فلم يعتبروهم مختلين كما فعل

الآخـرون، وعرّفـوا الفـساد علـى أنـه انحـراف في الـدوافع: الاجتماعيـة، الأخلاقيـة، الغذائيـة...

في عام ١٨٠٩ أدرج «بينيل» تحت عنوان «هوس بلا هذيان» جميع الأمراض المتعلقة بالـدوافع المتعـددة: الفـساد، الهـوس بإشـعال النـار وهـوس الـسرقة، وفيمـا بعـد قـام «كرافت إنج» بلفت النظر إلى الفساد الجنسي.

أما كلمة «النرجسية»، فقد ظهرت لأول مرة لدى «فرويد» عام ١٩١٠ في موضوع اللواط. وفيما بعد ميّز «فرويد» بين النرجسية الأساسية والنرجسية الثانوية، وقد عالج أدب التحليل النفسي النرجسية الأساسية بشكل مستفيض. لن ندخل في هذا السجال، لكننـا نلاحـظ أن «فرويـد»، منـذ الـسطور الأولى مـن كتابـه «مـن أجـل كـشف النرجسية»، صرح بأنـه اقتبس هـذه الكلمة عن «ناكيه» الـذي استخدمها في وصـف الفساد عام ١٨٩٩. وفي حقيقة الأمر أن «ناكيـه» صـاغ كلمة Narcissamus ليفسر آراء «إيليس» الذي ربط السلوك الفاسد بأسطورة نرجس لأول مرة عام ١٨٩٨[١].

إذا كـان «فرويـد» يقـر بوجـود دوافـع أخـرى غـير الـدوافع الجنـسية فهـو لا يتحدث عن الفساد بشأنها، وهناك التباس في كلمة «فاسد» التي توحي بالفسق والفساد. ومن وجهة نظر التحليل النفسي، فإن الفسق انحـراف في الفعل الجنـسي الطبيعي المعروف على أنه جماع يهدف إلى الحصول على النشوة عن طريق الاتصال الجنسي، في حين يستخدم الفساد لوصف طبع بعض الأفراد وسلوكهم الـذي يـدل علـى فظاظـة أو خبـث خـاص. وقـد ميّـز «بيرجيريـه»[٢] بـين فـساد الطبـع والفـساد الجنسي.

وممن عالجوا مفهوم الفاسد النرجسي نذكر المحللين النفسانيين «راكامييه»[٣] و «ألبرتو إيجر»[٤] الذي يرى أن الأنانية المفرطة تدفع الفاسـدين النرجسيين لخلق علاقة مع الآخر تقوم على مهاجمة كيانه النرجسي بغية تجريده من السلاح. إنهم يهاجمون

١- لابانش و بونتليه، مفردات التحليل النفسي، باريس ١٩٦٨.

٢- بيرجيريه، الشخصية الطبيعية والمرضية، باريس ١٩٨٥.

٣- راكامييه، الفكر الفاسد واستئصال الدماغ، باريس ١٩٦٢.

٤- إيجر، الفاسد النرجسي وشريكه، باريس ١٩٩٦.

لدى الآخر حبه لذاته وثقته بنفسه، وفي الوقت نفسه يسعون إلى الإيحاء بطريقة ما أن الآخر يرغب في أن يكون تابعاً لهم وأنه لا مناص له من ذلك.

إن الفاسدين النرجسيين مرضى من دون أعراض ظاهرة، وهم يحققون توازنهم عبر إسقاط الألم الذي لا يشعرون به والتناقضات الداخلية التي ينكرونها على الآخر، كما أنهم لا يأسفون لقيامهم بالشر لأن وجودهم يقوم على ذلك، ولما كانوا هم أنفسهم جرحى في طفولتهم، فهم يحاولون المحافظة على حياتهم كباراً، ذلك أن تصدير الألم إلى الآخر يتيح لهم أن يجدوا قيمة لأنفسهم على حساب هذا الآخر.

النرجسية

يقوم الفساد النرجسي على ظهور الآلية الفاسدة عند الشخصية النرجسية، علماً بأنه لا يرد ذكر الفساد النرجسي من بين اضطرابات الشخصية ضمن كتاب التصنيف الدولي للأمراض العقلية(DSM IV) الذي يأخذ بالحسبان الفساد الجنسي فقط فيذكره في باب الاضطرابات الجنسية أو اضطرابات الشخصية.

توصف الشخصية الفاسدة أن لديها على الأقل خمسة من المظاهر التالية:

- تبالغ جداً في أهميتها الخاصة.
- تسيطر عليها أوهام السلطة والنجاح غير المحدود.
- تعتقد بأنها «خاصة» وفريدة.
- ترغب بقوة في إثارة الإعجاب.
- تعتقد بأن كل شيء محلل لها.
- تستغل الآخر في العلاقات مع الآخرين.
- تفتقر إلى التعاطف.
- تحسد الآخرين في الغالب.
- تثبت مواقف وسلوكيات متعجرفة.

لقد قدم «أوتو كرنبرج» عام ١٩٧٥ وصفاً للأمراض النرجسية قريباً جداً مما يدعى الآن «الفساد النرجسي»[1]: «إن سمات النرجسيين الرئيسة هي: شعور

١ـ كيرنبرغ، الشخصية النرجسية، نيويورك ١٩٧٥.

بالعظمة، إفراط في الأنانية، غياب كامل للتعاطف مع الآخرين على الرغم من أنهم متلهفون لإثارة الإعجاب والاستحسان. هؤلاء المرضى يشعرون بحسد كبير تجاه من يملك أشياء لا يمتلكونها أو من يبدو أنه يتمتع بالعيش الهنيء، وهم لا يفتقرون إلى العمق العاطفي ولا يصلون إلى إدراك البنية الانفعالية لدى الآخرين فحسب، بل يفتقرون إلى التحكم بمشاعرهم الخاصة أيضاً، ذلك أنهم ينفعلون بسرعة ويهدؤون بسرعة. وبصورة خاصة فهم يجهلون مشاعر الحزن والحداد الصادقة، والسمة الجوهرية لشخصيتهم تكمن في العجز عن الشعور بالاكتئاب، صحيح أن الاكتئاب يبدو عليهم ظاهرياً عندما يهجرهم الآخر أو عندما يخيب ظنهم، ولكننا إذا أمعنا النظر وجدنا أن ما يسيطر عليهم هو الغضب والرغبة في الانتقام أكثر مما هو الحزن الحقيقي على فقد شخص عزيز».

أما نرجس «أوفيد»[1] فهو إنسان يعتقد بأنه يجد نفسه عبر النظر في المرآة، تقوم حياته على البحث عن ظله في عيون الآخرين، فالآخر بالنسبة إليه ليس موجوداً كفرد بل كمرآة. نرجسٌ هذا فوقعة فارغة تفتقر إلى الوجود الخاص، إن وجوده وجود «مزعوم»، فهو يسعى إلى تضليل الآخرين من أجل تمويه فراغه الداخلي. أما قدره فهو محاولة لتفادي الموت. إنه إنسان لم يدرك قط أنه كائن بشري، لذلك كان لزاماً عليه أن يخترع لعبة المرايا لكي يتوهم أنه موجود، ومثل آلة تعكس الصور المتغيرة يبقى هذا الفرد قائماً على الفراغ مهما تكررت لعبة المرايا.

الانتقال إلى الفساد

بما أن نرجس يفتقر إلى الجوهر، سوف يتطفل على الآخر ويحاول أن يمتص دمه كما تفعل العلقة، وبما أنه غير جدير بإقامة علاقة حقيقية نراه يقيم علاقته في إطار الفساد والخبث المدمر، وبما أن الفاسدين يستمتعون بإخضاع الآخر وإذلاله، فهم يشعرون بلا شك بمتعة حيوية قصوى عبر تأكدهم من معاناة الآخر وشكوكه.

١- اوفيد. المسخ، غاليمار - باريس.

بداية الأمر كله أن نرجس الفارغ كيان انعكاسي خاوٍ مثل الرجل الآلي المصمم كي يقلد الحياة، فهو يتمتع بمظاهر الحياة وتجلياتها لكنه لا يتمتع بالحياة نفسها. إن نرجس الفارغ بحاجة لأن يتغذى على جوهر الآخر المليء تماماً مثلما تفعل الخفافيش. عندما يفتقر المرء إلى الحياة لا بد له من محاولة الاستحواذ عليها، وإذا كان ذلك مستحيلا فلا بد من تحطيمها كي لا يكون هناك حياة في أي مكان.

إن الفاسدين النرجسيين يجتاحهم «آخر» لا يستطيعون التخلص منه، هذا الآخر ليس نداً موجوداً بل هو انعكاس لهم، ومن هنا شعور الضحية بأن هناك إنكاراً لشخصيتها، فهي ليست فرداً آخر بل مجرد انعكاس، وإن أي موقف يناقش منظومة المرايا التي تموه الفراغ يستجر سلسلة من الغضب المدمر. ليس الفاسدون النرجسيون سوى آلات إسقاط تجتهد عبثاً لأن تجد صورتها في مرآة الآخرين.

إنهم بلا إحساس ولا عاطفة، كيف يمكن للآلة أن تتمتع بالإحساس؟ ولذلك فهم لا يتألمون إذ إن الألم يفترض وجود البدن أو الكيان. إنهم بلا تاريخ لأنهم غائبون، والكائنات الحاضرة هي التي تتمتع بالتاريخ. وإذا انتبه الفاسدون للألم فهذا يعني شيئاً ما بالنسبة لهم، شيئاً آخر غير الألم: إنه يعني وصولهم إلى غاية آليتهم الفاسدة.

جنون العظمة

الفاسدون النرجسيون أفراد مصابون بجنون العظمة يجعلون من أنفسهم مرجعية ومعياراً للحقيقة والخير والشر. وغالباً ما تعزى لهم سمة تأديبية رصينة وعالية إذ يشعر الآخر أمامهم أنه مخطئ حتى لو لم يقولوا أي شيء، وهم يقدمون صورة جيدة عن أنفسهم ويفرضون قيمهم الأخلاقية البراقة الطاهرة ويفضحون عدوانية البشر!

يغيب عنهم تماماً الاهتمام بالآخرين والتعاطف معهم، لكنهم يتمنون أن يهتم الآخرون بهم. كل شيء محلل لهم. ينتقدون كل الناس ولا يقبلون أي جدل أو لوم،

وبمقابل هذا العالم التسلطي تكون الضحية في عالم العيوب حتماً. إن إظهار عيوب الآخر طريقة لعدم رؤية العيوب الشخصية وللدفاع ضد الحصر النفسي ذي الطابع الذهاني.

يسعى الفاسدون إلى إغراء الآخرين، فيوصفون بأنهم شخصيات جذابة ولامعة. وما إن تعلق السمكة في الصنارة حتى يتوجب المحافظة عليها في هذا الوضع المعلق، فالآخر غير موجود ولا مرئي ولا مسموع، إنه «مفيد» فحسب، ففي المنطق الفاسد لا وجود لمفهوم احترام الآخر.

والإغراء الفاسد لا يتضمن أيّ عاطفة لأن الآلية الفاسدة تقوم على مبدأ تفادي العاطفة. والهدف من ذلك ألا تحصل أيّ مفاجأة بالنسبة للفاسد. إن الفاسدين لا يهتمون بالمركّبات الانفعالية لدى الآخرين فهم كتيمون على الآخر وتميُّزه إلا عندما يشعرون بأن هذا التميز قد يجلب المتاعب لهم. إن في ذلك إنكاراً كاملاً لهوية الآخر الذي يجب أن تتفق مواقفه وأفكاره مع الصورة التي حدَّدوها له.

وتكمن قوة الفاسدين في عدم إحساسهم، فهم لا يعرفون أي هم ذي طابع أخلاقي، إنهم لا يتألمون بل يهاجمون ويفلتون من العقاب، فقد اختاروا شركاءهم بحيث لا يستطيع هؤلاء الشركاء أن ينالوا منهم حتى لو استخدموا الدفاع الفاسد هم أيضاً.

يمكن أن يميل الفاسدون لشخص أو نشاط أو فكرة، لكن هذه الاندفاعات تبقى سطحية، فهم يجهلون المشاعر الحقيقية ولا سيما مشاعر الحزن والحداد، وتؤدي الإحباطات لديهم إلى الغضب أو إلى الضغينة المصحوبة بالرغبة في الانتقام، وهذا ما يفسر الحنق المدمر الذي يسيطر عليهم أثناء حوادث الانفصال، فعندما يُجرَح الفاسد في نرجسيته (عبر الهزيمة أو الرفض) يشعر برغبة غير محدودة في الانتقام. وليست هذه الرغبة ردة فعل عصبية عابرة كما تكون عند الشخصية السريعة الغضب، بل هي حقد جامد يستخدم الفاسد فيه كامل إمكاناته العقلية.

وعلى غرار الذهانيين، يترك الفاسدون مسافة عاطفية كافية كي لا يلتزموا بالآخر تماماً. وتعود فاعلية هجماتهم إلى أن الضحية أو الملاحظ من الخارج لا يستطيع أن يتصورهم عديمي الاهتمام والشفقة تجاه ألم الآخر.

التطفل

ليس للشريك وجود بصفته شخصيةً مستقلة بل بصفته حاملاً لميزة يحاول الفاسدون أن يستحوذوا عليها، إذ يتغذى الفاسدون على طاقة من يتعرض لسحرهم، فيحاولون الاستحواذ على نرجسية الآخر المانحة عبر اقتحام مجاله النفسي.

مشكلة الفاسد النرجسي في أنه يهرب إلى مداراة الفراغ بدلاً من مواجهته، وبذلك يصبح فاسداً بالمعنى الأول للكلمة: يهرب من فراغه (في حين أن غير الفاسد يواجهه)، ومن هنا حبه وكرهه لشخصية الأم، وهي الصورة الأكثر وضوحاً للحياة الحميمية، إن الفاسد بحاجة إلى جسد الآخر وكيانه كي يمتلئ، ولكنه لا يستطيع أن يلتهم الآخر لأنه لا يتمتع بتكوين جسدي طبيعي يسمح له بذلك، وبناء عليه يصبح كيان الآخر عدوه اللدود لأنه يثبت له فراغه الشخصي.

يشعر الفاسدون النرجسيون بحسد كبير تجاه من يبدو عليهم أنهم يمتلكون أشياء يفتقر الفاسدون إليها أو، بكل بساطة، تجاه من يستمتعون بحياتهم. ويمكن أن يكون الاستحواذ اجتماعياً يقوم مثلاً على إغراء شريك يدخلك إلى وسط اجتماعي تشعر تجاهه بالحسد: وسط برجوازي أو وسط فكري أو فني... وتكمن الفائدة من هذه العملية في امتلاك شريك يسمح لك بتبوؤ السلطة.

ثم يهاجم الفاسدون ثقة الآخر بنفسه وتقديره لذاته: إنهم ينهبون نرجسية الآخر كي يزيدوا من قيمتهم الخاصة.

ولأسباب تعود إلى طفولتهم المبكرة، لم يستطع الفاسدون أن يحققوا أنفسهم، ولذلك يحسدون أفراداً آخرين لديهم ما يلزمهم ليحققوا أنفسهم، إنهم يرون هؤلاء الأفراد يمرون بجانبهم فيحاولون تحطيم السعادة التي تمر بجانبهم، ويحاولون تحطيم الحرية لأنهم سجناء قوة إرادتهم، وبما أنهم لا يستطيعون التمتع بجسدهم يحاولون منع الآخرين من المتعة الجسدية حتى لو كانوا أبناءهم، وبما أنهم غير قادرين على الحب يحاولون بوقاحتهم تحطيم صدق علاقة طبيعية يشاهدونها.

لا بد للفاسدين النرجسيين من أن ينتصروا ويحطموا شخصاً آخر كي يشعروا بالرضى عن أنفسهم، فهم يشعرون بأنهم متفوقون، ولا بد لهم من تحطيم الآخر كي يثبتوا وجودهم.

الحسد محرك قلب الفاسد، هدف عملية الاستحواذ، إحساس بالاشتهاء، إثارة حاقدة عند رؤية سعادة الآخرين ومزاياهم. إنه عقلية عدوانية بحتة تقوم على إدراك ما يملكه الآخر ويفتقر الأنا إليه، وقد يكون هذا الإدراك وهمياً أو هذيانياً. غير أن للحسد قطبين: الأنانية من جهة، والعدوانية مع الرغبة في إيذاء الشخص المحسود من جهة أخرى، وهذا يفترض شعوراً بالدونية تجاه هذا الشخص الذي يملك ما يشتهي الحاسد. إن الحاسد ليأسف أن يرى الآخر يملك أنعاماً مادية أو معنوية، لكنه في حقيقة الأمر يرغب في تحطيمها أكثر مما يرغب في الحصول عليها، لأنه إذا امتلكها لا يدري ماذا يفعل بها، فهو غير مؤهل لها. ولردم الهوة ما بين الحاسد وموضوع الحسد، يكفي إذلال الآخر واستعباده، فكأن الآخر بالنسبة إليه شيطان أو ساحر.

يحسد الفاسدون عند الآخر حياته قبل كل شيء، يحسدون عند الآخرين نجاحهم لأنه يجعلهم يشعرون بفشلهم. وبما أنهم غير راضين عن الآخرين وعن أنفسهم، فلا شيء طبيعياً بالنسبة لهم، كل شيء معقد، وكل شيء امتحان، يحتقرون كل حماس يرونه، ويسعون قبل كل شيء ليبرهنوا على سوء الشريك وسوء الآخرين وسوء العالم كله، وهكذا يجرون الآخر إلى الاكتئاب عبر نظرتهم التشاؤمية ثم يلومونه على هذا الاكتئاب الذي سببوه.

إن الرغبة في الآخر وفي حيويته تظهر لهم ما ينقصهم، نجد هنا رغبة في علاقة مميزة من قبيل علاقة الولد بالأم، وهذه رغبة معروفة لدى العديد من الناس، ولذلك يختارون ضحاياهم من بين الناس المفعمين بالحيوية والمحبين للحياة، بل هم يحاولون أن يستحوذوا على شيء من حيوية الآخرين، ولا يتأكدون من حقيقة حصول الاستحواذ على الضحية إلا عبر استعبادهم وإخضاعهم لها حسب متطلبات رغباتهم.

إن الاستحواذ هو النتيجة المنطقية للحسد، ونادرا ما تكون النعم المقصودة هنا نعماً مادية، بل هي مزايا معنوية يصعب سرقتها: بهجة العيش، رقة،

إمكانات على التواصل، إبداع، مواهب موسيقية أو أدبية... عندما يعبر الشريك عن فكرة، تسير الأمور بحيث لا تبقى هذه الفكرة فكرته بل تصبح فكر الفاسد، ولو لم تكن الكراهية تعمي الفاسد لكان بإمكانه عبر العلاقة المتبادلة أن يكتسب شيئاً من هذه المواهب، بيد أن ذلك يفترض تواضعاً يفتقر الفاسدون إليه.

يستحوذ الفاسدون النرجسيون على عواطف الآخر بما أنهم يميلون إليه، وبتعبير أدق هم يهتمون بهذا الآخر لأنه يملك شيئاً يستهويهم. وهكذا نرى لديهم لمسات من الحنان يتبعها فعل عنيف رافض شرس، ولا يدرك المحيط كيف يمكن لشخص أن يرفع شخصاً آخر إلى السحاب ثم يرميه إلى الحضيض في اليوم التالي من دون سبب ظاهر. يمتص الفاسدون الطاقة الإيجابية الموجودة لدى المحيطين بهم، يتغذون عليها ويجددون حياتهم بها، ثم يقذفون عليهم طاقتهم السلبية.

تعطي الضحية الكثير، لكن ما تعطيه غير كاف مطلقاً بالنسبة للفاسدين، وبما أنهم غير مسرورين قطعاً، نراهم يضعون أنفسهم في موقع الضحية دائماً، والمسؤول عن هذا الوضع هو الأم (أو الشخص الذي أسقطوا عليه صورة الأم). إن الفاسدين يعتدون على الآخر كي يخرجوا من الشرط الذي كانوا فيه ضحية في طفولتهم، وإن تصوير الفاسد لنفسه على أنه كان ضحية قد يضلل الشريك فيسعى لمواساته ومعالجته. وعند حصول الطلاق يصور الفاسدون أنفسهم ضحايا تم هجرها والتخلي عنها، مما يغري شريكاً جديداً يريد أن يواسيهم هو أيضاً.

اللامسؤولية

يعتبر الفاسدون أنفسهم غير مسؤولين لأنهم يفتقرون إلى الشخصية الحقيقية، وبما أنهم غائبون عن أنفسهم فهم غائبون عن الآخرين أيضاً. وإذا لم يكن بالإمكان حضورهم المتوقع، وإذا لم يكن بالإمكان السيطرة عليهم،

فهذا يعود بكل بساطة إلى أنهم غير موجودين. وعندما يتهمون الآخرين بمسؤوليتهم عما يحصل لهم، فهم في الحقيقة لا يتهمون بل يقررون حقيقة بدهية: بما أنهم غير مسؤولين فلا بد من أن يكون الآخر هو المسؤول. إن رمي الخطأ على الآخر وإساءة القول عنه وتصويره شريراً لا يسمح لهم بالتنفيس عن أنفسهم فحسب بل بتلميع أنفسهم أيضاً. وبما أنهم غير مسؤولين وغير مذنبين، فالخلل يعود على الآخرين.

يدافع الفاسدون عن أنفسهم عبر آليات الإسقاط إذ يحمِّلون الآخرين مسؤولية كل صعوباتهم وإخفاقاتهم وعدم مراجعتهم لذواتهم، ويدافعون عن أنفسهم بإنكار الواقع أيضاً. إنهم يقومون بتورية الألم النفسي فيجعلون الإحساس به نقطة سلبية، وهذا الإنكار دائم حتى في أشياء الحياة اليومية الصغرى وحتى لو كان الواقع يثبت العكس، وإذا كانوا يبعدون عن أنفسهم الألم والشك فهذا يعني إلقاؤهما على الآخرين، فالعدوان على الآخرين طريقة لتفادي الألم والمعاناة والاكتئاب.

يصعب على الفاسدين النرجسيين اتخاذ القرارات في خضم الحياة، فهم بحاجة إلى أن يضطلع الآخرون بالمسؤولية بدلاً منهم. ليسوا مستقلين ولا يمكنهم الاستغناء عن الآخرين قطعاً، وهذا ما يقودهم إلى «الالتصاق» خوفاً من الانفصال، ومع ذلك يعتقدون أن الآخر يطلب أن يكون تابعاً لهم. إنهم يرفضون الإقرار بتعلقهم بالآخر تعلقاً افتراسياً مما قد يشكل لهم تصوراً سلبياً عن أنفسهم، وهذا ما يفسر عنفهم حين يكون الشريك وديعاً، أما إذا كان مستقلاً ينظرون إليه على أنه منفر وعدواني.

إنهم يشعرون بالعجز وعدم الارتياح عندما يكونون وحيدين، ويسعون إلى الحصول على سند الآخرين ودعمهم إلى أبعد حد، كما يصعب عليهم تصميم المشاريع والقيام بالأعمال لوحدهم، إنهم يرغبون في أن يرفضهم الآخرون كي يروا الحياة كما يتوقعونها، غير أنهم ما إن تنقطع علاقتهم بفرد ما حتى يفتشوا بسرعة عن علاقة أخرى يمكنها أن تؤمن الدعم اللازم لهم.

الذهان

يميل الفاسدون النرجسيون إلى الظهور بمظهر الأخلاق، فهم يلقون على الآخرين دروساً في الاستقامة مما يجعلهم قريبين من الشخصيات الذهانية التي تتسم بالسمات التالية:

- تضخم الأنا: غرور وشعور بالتفوق.
- الصلابة النفسية: عناد، عدم تسامح، تعقل بارد، صعوبة بإظهار الانفعالات الإيجابية، ازدراء الآخرين.
- الحذر: خوف مبالغ فيه من عدوانية الآخرين، شعور بأنها ضحية لاعتداء الآخر، ارتياب وغيرة.
- أخطاء في الحكم: تفسر أحداثاً عادية على أنها موجهة ضدها.

وخلافاً للذهاني، يعرف الفاسد قوانين الحياة وقواعدها الاجتماعية جيداً، إلا أنه يستخف بها ويحتال عليها بزهو. إن تحدي القوانين سمة للفاسد دون الذهاني، ذلك أن هدفه تضليل السامع وجرّه إلى الممارسات الأخلاقية الفاسدة عبر إيهامه بتخلف رؤيته للقيم الأخلاقية.

يتم الاستحواذ على السلطة باستخدام القوة لدى الذهانيين في حين أنه يتم بالإغراء لدى الفاسدين، بيد أنهم يمكنهم اللجوء إلى القوة عندما لا ينفع الإغراء، كما أن مرحلة العنف تعويضية لدى الذهانيين: يجب تحطيم الآخر لأنه خطير ولا بد من أن أهاجمه قبل أن يهاجمني.

إن الفساد النرجسي، كما رأينا، تدبير يسمح بتفادي الحصر النفسي عبر إسقاط المسؤولية على الخارج، إنه دفاع ضد التفكك النفسي. يسعى الفاسدون لحماية أنفسهم أولاً عبر مهاجمة الآخر، وقد يؤدي ذلك إلى شعور بالذنب يولد حصراً نفسياً لا يمكن تحمله، لذلك يقوم الفاسد بإسقاط كل شيء على كبش الفداء الذي يستقبل كل ما لم يستطع المعتدي أن يتحمله.

وبما أنه توجب على الفاسدين أن يتعلموا حماية أنفسهم منذ الطفولة، وأن يقوموا بفصل الأجزاء السليمة عن الأجزاء المصابة في نفسهم، نراهم يستمرون في العمل بطريقة تجزيئية فيقسمون عالمهم إلى أخيار وأشرار. إن إسقاط الشر على الآخر يتيح لهم حياة فضلى ويؤمن استقراراً نسبياً، وبما أنهم يشعرون بالعجز نراهم يخافون من السلطة المطلقة التي يتوهمونها لدى الآخرين، فيحذرون منهم إلى درجة الهذيان وينسبون لهم عدواناً هو مجرد إسقاط لعدوانهم الخاص.

وعندما تكون هذه الآلية فعالة، نرى أن الكراهية التي يتم إسقاطها على الفريسة - الهدف تكفي الفاسد لتهدئة توتراته الداخلية، مما يجعله يبدو وديعاً مع شخص آخر، وهذا سبب مفاجأة الناس وإنكارهم للتصرفات الفاسدة التي يقوم بها قريب لهم لم يروا منه غير وجهه الإيجابي، فيبدو شهود الضحايا وكأنهم كاذبون.

الضحيــة

الضحية شيئاً

إن الضحية ضحية لأنها قد اختيرت لتكون كذلك، فقد أصبحت كبش الفداء المسؤول عن كل شر، وسوف تكون من الآن فصاعداً الدريئة التي يتم تصويب العنف عليها، وبذلك تجنّب المعتدي الشعور بالاكتئاب أو مراجعة الذات.

إن الضحية، بما هي ضحية، بريئة من الجريمة التي تدفع ثمنها، على الرغم من اشتباه شهود المعتدي بها. تسير الأمور كما لو أنه لا وجود لضحية بريئة فيتصور الناس أنها موافقة ضمناً على العدوان الذي يقع عليها أو أنها متواطئة معه بصورة واعية أو لا واعية.

يرى «رونيه جيرار»[1] أن الخصومات بين الجماعات البشرية في المجتمعات البدائية كانت تؤدي إلى حالات عنف متشابهة تنتشر عبر التقليد وتؤدي إلى احتقان لا يجد مخرجاً إلا في تضحية تؤدي إلى استبعاد (بل قتل) رجل (أو مجموعة رجال) يحدد على أنه مسؤول عن العنف. إن ذبح كبش الفداء يترافق مع تفريغ العنف وتقديس الضحية. أما في عصرنا الحاضر فلم يعد هنالك من تقديس للضحية بل ينظر إليها على أنها ضعيفة طالما أنه لا يمكن النظر إليها على أنها بريئة، ومن الشائع أن نسمع الناس يقولون عن شخص يصبح ضحية إن لديه استعداداً لذلك لأنه ضعيف أو ناقص، وسوف نرى على العكس من ذلك أنه يتم اختيار الضحايا عادة لأنها تملك شيئاً إضافياً يحاول المعتدي أن يستحوذ عليه.

١ـ جيرار، العنف والمقدس» باريس ١٩٧٢.

لماذا تم اختيارها؟ لأنها كانت حاضرة وأصبحت مزعجة بطريقة أو بأخرى. ليس لها أيّ خصوصية بنظر المعتدي. إنها شيء يمكن استبداله كان موجوداً في اللحظة المناسبة أو غير المناسبة، وقد أخطأ في أنه قد استسلم للإغراء أو أخطأ لأنه كان حساساً ومرهفاً، فلا فائدة من الضحية بنظر المعتدي إلا عندما تكون قابلة للإغراء أو الاستخدام، لكنها تصبح هدفاً للكراهية عندما تتملص أو عندما لا يبقى لديها شيء تعطيه.

وبما أنها مجرد شيء فلا يهم من تكون. ولكن المعتدي يتفادى من يمكن أن يكون خطراً عليه أياً كان، ولذلك يتفادى مواجهة الفاسدين النرجسيين الآخرين أو الذهانيين القريبين منه، أما إذا اجتمع الفاسدون والذهانيون فهذا يضاعف التأثير المدمر على الضحية المختارة عدة مرات، وهذا ما يحصل في التجمعات والمؤسسات بصورة خاصة، فمن الممتع جداً أن نحتقر أو نتهكم على فرد أمام مشاهد يحسن التشجيع! ومن الشائع أن يلقى الفاسدون استحساناً ضمنياً من الشهود الذين كان الفاسدون قد شوشوهم في البدء ثم أقنعوهم لاحقاً، من دون أن يجعلوا منهم شركاء في الجريمة.

يتسم الهجوم الفاسد بصورة خاصة في أنه يسدد على الأجزاء الضعيفة أو المريضة لدى الآخر. إن لدى كل فرد نقطة ضعف تصبح بالنسبة للفاسد مأخذاً، ويستخدم الفاسدون نقاط ضعف الآخر ليتسلقوا مثلما يتشبث متسلق الجبال بصدوع حوافها، كما أن لديهم حدساً قوياً بمعرفة نقاط الضعف التي تؤلم الآخر والتي يمكن النيل منها، ويحصل أن تكون نقطة الضعف هذه هي ما يحاول الآخر أن يتجاهلها، فيكون الهجوم الفاسد حينذاك تذكيراً مؤلماً، وقد تكون هذه النقطة عرضاً مرضياً يحاول الآخر تبسيطه والتقليل من أهميته، فيأتي العدوان الفاسد لينشطه ويقويه.

إن العنف الفاسد يجعل الضحية تقف وجهاً لوجه أمام نقطة ضعفها وأمام الجراح التي نسيتها منذ الطفولة، ويأتي هذا العنف ليثير دافع الموت الموجود بشكله الجنيني لدى كل فرد. يبحث الفاسدون عن بذرة التدمير الذاتي عند الآخر، ويكتفون بتنشيطها عبر الاتصال المزعزع. إن العلاقة مع الفاسدين النرجسيين تعمل كمرآة تقدم الصور! على شكل «نيجاتيف»، مما يجعل المرء يكره صورته.

ولا معنى للقول بأن الضحية متواطئة مع المعتدي طالما أنها تفتقر للوسائل النفسية كي تتصرف بشكل مختلف بسبب التسلط التي تعرضت له، فهي مشلولة، وحقيقة أنها شاركت في العملية بصورة سلبية لا يقلل أبداً من كونها ضحية: «إذا كنت قد عشت مع رجل لا يحبني، فقد عشت معه لسبب ما، وإذا لم أر شيئاً عندما خدعني فإن ذلك مرتبط بتاريخي الشخصي، غير أن الطريقة التي تم فيها الانفصال مؤخراً لم تكن متوقعة قط ولم يكن ممكناً التكيف معها. ولو أنني أفهم الآن أن هذا الوضع لم يكن موجهاً لي حصراً، لكنني أعتبر الأمر عدواناً أخلاقياً شنيعاً ومحاولة لاغتيال نفسي».

إن الضحية ليست بحد ذاتها مازوخية أو مكتئبة، ولكن الفاسدين يحاولون استخدام الجانب الكئيب أو المازوخي لديها، فكيف نميز التواطؤ المازوخي من حالة الكآبة لدى الضحية؟

أهي المازوخية؟

إن المدهش للوهلة الأولى قبول الضحايا بقدرهم.

رأينا أن خطاب الفاسدين النرجسيين خطاب شمولي ينفي شخصية الآخر. يمكن للمرء أن يتساءل لماذا تقبل الضحايا بل لماذا تتمثل هذا الخطاب، لماذا تستمر في الرجوع إلى هذا الخطاب في حين يكذبه الواقع؟ لقد قلنا سابقاً بأن الضحايا مقيدون نفسياً، وإذا تم استخدامهم فهذا لا يعني أن هذه هي اللعبة التي يفضلون.

يميز «فرويد» بين ثلاثة أشكال للمازوخية: الجنسي والأنثوي والأخلاقي[1]، فالمازوخية الأخلاقية سعي حثيث وراء الإخفاق والألم بغية إشباع رغبة في القصاص، ولا يجد الطبع المازوخي، حسب المعايير «الفرويدية»، لذته في الألم والعذاب وتعقيدات الحياة فحسب بل في الشكوى والظهور بمظهر المتشائم أيضاً، وبسبب مزاجه الأرعن النفور والإخفاق فيستحيل عليه أن يقبض على مباهج الحياة. إن هذا الوصف يتفق مع

١ـ فرويد، المازوخية والمسألة الاقتصادية، باريس ١٩٢٤.

الفاسدين أكثر مما يتفق مع الضحايا لأن هؤلاء يظهرون على العكس من ذلك أغنياء متفائلين ومفعمين بالحياة.

ومع ذلك يميل العديد من المحللين النفسانيين لاعتبار كل ضحية لعدوان فاسد كأنها متواطئة بصورة خفية مع جلادها عبر إقامة علاقة ساد - مازوخية كمصدر للذة.

في العلاقات الساد - مازوخية التي تتطابق مع المازوخية الجنسية لدى «فرويد»، يجد الشريكان لذتهما في العدوانية التي يشاهدانها، وهذا ما شكل موضوع مسرحية مدهشة للمسرحي الأمريكي إدوار آلبي (١٩٦٢) وهي بعنوان «من يخاف من فرجينيا وولف؟» حيث يوجد تكافؤ خفي يجد كل شخص ضالته فيه، ويمكن له الخروج من اللعبة متى أراد.

إلا أن الآلية الفاسدة تقوم على إخماد أي أثر للبيدو، واللبيدو هو الحياة، يجب إذن إخماد أي أثر للحياة، وإخماد أيّ رغبة حتى رغبة القيام بردة الفعل.

في العلاقات الفاسدة لا يوجد تكافؤ بل سيطرة واحد على الآخر مع استحالة ردة الفعل وإنهاء المعركة على الشخص المذعن، وبذلك يكون الأمر عدواناً. إن ترسيخ السطوة قد سحب من الآخر القدرة على أن يقول لا. وفي هذا الموقف تتقوقع الضحية في جسدها الواقي. لقد تم تحريض الجانب المازوخي لديها، هذا الجانب الموجود لدى كل إنسان، فوجدت نفسها مأخوذة بعلاقة مدمرة من دون أن يكون لديها وسائل الهرب منها، فقد تم تعليقها من نقطة ضعفها سواء أكانت هذه النقطة أصلية أم ناتجة عن ردة الفعل. «إن كل فرد يتأرجح بين الرغبة في الاستقلالية والسيادة والمسؤولية وبين الرغبة الطفلية في أن يجد نفسه في وضع اتكالي لا مسؤول بريء[1]». إن خطأ الضحية الأساسي أنها لم تكن حذرة وأنها لم تكترث برسائل العنف غير اللفظية، فلم تعرف أن تترجم هذه الرسائل وأخذتها بمعناها الحرفي فقط.

ويزعم الفاسدون أن عند الضحايا ميلاً مازوخياً في الخضوع للمضطهد: «هذا يعجبها، إنها تحب ذلك وتسعى إليه»، والحجة سهلة فهم يزعمون أنهم يعرفون ما يشعر به الضحايا أكثر من الضحايا أنفسهم: «أعاملها هكذا لأنها تحب ذلك!».

١- روستانج، كيف تحمل ذهانيا على الضحك، باريس ١٩٩٦.

إن المازوخية في وقتنا الحاضر موضوع مخجل يجعل صاحبها يشعر بالذنب. يقول المراهقون: «لست مازوخياً!»، إذ لا بد من أن يكون لدى المرء سمة ضارية أو عدوانية. ولا يعاني الضحايا من كونهم ضحايا فحسب، بل يخجلون لأنهم لم ينجحوا في الدفاع عن أنفسهم أيضاً.

إن ما يميز ضحايا الفاسدين من المازوخيين أنهم يشعرون بحرية كبيرة إذا توصلوا إلى الانفصال بعد بذل جهد كبير، نراهم قد ارتاحوا لأن الألم، بما هو ألم، لا يغريهم قطعاً.

وإذا كانوا قد استسلموا طويلاً للعبة الفاسدة فلأنهم أحياء يريدون أن يمنحوا الحياة بما في ذلك التصدي للمهمة المستحيلة، ألا وهي منح الحياة إلى الفاسد: «سوف يتغير بفضل وجودي معه!».

غير أن ديناميكيتهم تترافق مع هشاشة ما، فحين يعكفون على المهمة المستحيلة في بعث الأموات، يظهرون شيئاً من عدم الثقة بقواهم الخاصة، إذ يندس في مسيرتهم شيء من نظام التحدي: إنهم موهوبون أقوياء بيد أن عليهم أن يثبتوا ذلك. وهم قابلون لأن يتم النيل منهم بسبب التردد الذي يشعرون به إزاء قدرتهم الخاصة، ومما لا شك فيه أن هذا هو ما يجعلهم حساسين أثناء مرحلة الإغراء حيث لا يكف الفاسد خلالها عن إبراز قيمتهم العالية. وبالنتيجة يمكن أن يكون عنادهم خطراً عليهم، فهم لا يرتدعون لأنهم يتصورون دائماً أن من الممكن عمل شيء ما أو تغيير أمر ما، لدرجة أننا سنرى لاحقاً أنهم قد يشعرون بالذنب عندما يتركون شريكهم.

إذا كانت المازوخية سمة جوهرية في شخصية الضحية فكيف لا تظهر عندما تكون الضحية في سياق آخر، ولماذا تختفي بعد الانفصال عن المعتدي؟!

وساوسها

تقع نقطة الضعف التي يهاجمها الفاسدون لدى شركائهم في سجل التحقير والتذنيب، ذلك أن جر الآخر إلى الشعور بالذنب أسلوب بديهي لزعزعته. وفي رواية «القضية» لـ «كافكا»[1] نجد جوزيف متهماً بأنه اقترف جرماً، لكنه لا يعرف هذا

١ـ كافكا، القضية، باريس ١٩٨٣.

الجرم، لذلك يحاول باستمرار استيضاح الاتهام كي يعرف الذنب الذي يعاب عليه، فيصل إلى أن يشك بذكرياته وينتهي بأن يقتنع بأنه شخص آخر.

إن الضحية المثالية شخصية ذات ضمير حي لديها نزعة طبيعية للشعور بالذنب. وفي الطب العقلي الفينيمينولوجي قام الطبيب الألماني «تيلينباخ»[1] بتعريف هذا النوع من السلوك ووصفه على أنه سمة تمهد للاكتئاب. إنها شخصيات متعلقة بالنظام في مجال العمل والعلاقات الاجتماعية، تضحي بنفسها من أجل أقربائها وقلما تقبل أن يخدمها الآخرون. ويؤدي التشبث بالنظام والاهتمام بإتقان العمل تلك الشخصيات لأن تضطلع بكمية من العمل أعلى من المتوسط تمنحها ضميراً حياً، ومن هنا شعورها بأنها مثقلة في العمل والمهمات إلى أبعد حد.

أما عالم الأخلاق «بوريس سيرولنك»[2] فقد لاحظ أن «السوداويين يتزوجون غالباً من أشخاص قليلي التأثر. إن أقل الزوجين حساسية يعيش حياته بهدوء في حين يضطلع السوداوي منهما بجميع المهمات من واقع شعوره الدائم بالذنب، فهو يعتني بكل شيء، يقوم بالأعمال ويحل المشكلات حتى تأتي لحظة، بعد عشرين سنة، ينفجر فيها باكياً منهكاً من تضحياته الدائمة، فيعيب على شريكه أنه أخذ من الزواج حلاوته وترك له مرارته».

يحصل القابلون للاكتئاب على حب الآخر من خلال عطائهم، إذ يضعون أنفسهم تحت تصرفه ويشعرون برضى كبير عن خدمتهم وإسعادهم له، والفاسدون النرجسيون يستفيدون من كل ذلك.

إن مثل أولئك الضحايا لا يطيقون الرعونة والخلافات ويحاولون تصحيحها، وحين يصعب الأمر عليهم يضاعفون جهودهم فيرهقون ويشعرون بأن الأحداث تتجاوزهم مما يشعرهم بالذنب ويدفعهم لأن يفرطوا في العمل فيصبحون أقل فاعلية ويزداد شعورهم بالذنب دائماً فيسيرون في حلقة مفرغة، ويمكن أن يصل ذلك إلى حد اتهام الذات: «إذا كان شريكي عدوانياً أو غير سعيد فالخطأ خطأي»، فإذا وقعت غلطة يميلون لأن ينسبوها لأنفسهم. إن هذا الضمير المفرط مرتبط بالخوف من التقصير لأن ضغط الخطأ والأسف يسبب معاناة كبيرة جداً لهم.

١- تيلينباخ، الكآبة، ١٩٦١.

٢- سيرولنك، دلالة العلاقة، ١٩٨٩.

توجد هذه الآلية الشمولية ذاتها لدى المعتدي والمعتدى عليه، فهناك مبالغة في الوظائف النقدية في كلتا الحالتين: باتجاه الخارج بالنسبة للفاسد، وباتجاه الذات بالنسبة للضحية.

وفي حقيقة الأمر يأخذ الضحايا الشعور بالذنب عن الآخر، فهم يتمثلون من يعتدي عليهم: نظرته، حركاته، كلماته. وبظاهرة إسقاطية يفرغ الفاسدون النرجسيون شعورهم بالذنب على ضحيتهم، ويكفي الفاسدين أن ينكروا العدوان كي تشك الضحية بنفسها، ولهذا السبب يلجأ بعض الضحايا إلى الحيلة كي يثبتوا حقيقة العنف بعد الواقعة: يحتفظون بنسخ عن الرسائل البريدية، يتصرفون بحيث يكون لديهم شاهد مستتر، أو يسجلون المكالمات الهاتفية.

ومن جهة أخرى نجد لديهم شعوراً كامناً بالدونية، غير أنهم يحاولون التعويض عنه شريطة ألا يأتيهم ظرف يشعرون فيه بالخطأ. إن هذه الحساسية للشعور بالذنب تشكل نقطة ضعف أمام الاكتئاب، ولكن ذلك لا يشكل حالة اكتئاب تتسم بالحزن والإنهاك، بل على العكس من ذلك حالة تقود الشخص لأن يتمتع بنشاط خارق في تفاعل قوي مع المجتمع.

ويمكن أن يكون اللقاء مع الفاسد النرجسي في البداية حافزاً للخروج من كآبة سوداء. وقد وصف المحلل النفسي الإنجليزي مسعود خان في أحد مقالاته كيف يجعل الخضوع السلبي المرأة القابلة للاكتئاب مستعدة لتحالف فاسد: «يبدو لي أن إرادة الفاسد النشيطة لا تتم إلا في مجال التضليل حيث تقدم الضحية طلباتها بناء على إرادتها السلبية وتتكل على إرادة الفاسد النشيطة»[1]. يبدأ الأمر كأنه لعبة أو مناظرة فكرية، فهناك تحد لا بد من البرهان عليه: قبول المرء أو رفضه لأن يكون شريكاً لشخص متطلب. إن السوداويين «يصطنعون الانفعالات»، ويبحثون في هذه العلاقة عن إثارة تمنحهم شعوراً مختلفاً، ويجدون لأنفسهم قيمة كبيرة في اختيار موقف أو شريك صعب.

وربما يمكننا القول إن لدى الضحايا سوداوية بالإمكان تجمع ما بين نقطة مؤلمة من جهة (يمكن أن تعود هذه النقطة لجرح في الطفولة) وبين حيوية كبيرة من

١ـ خان، التحالف الفاسد، ١٩٧٣.

جهة أخرى. ولا يهاجم الفاسدون الجانب السوداوي، بل يهاجمون الجانب الحي، أي الحيوية التي يلاحظونها ويحاولون أن يستحوذوا عليها.

إنها مواجهة بين نرجسيتين، فالضحايا يشلهم الغضب الذي يمنعهم من ردة الفعل بسبب نقصهم النرجسي الخاص، ولأن الشريك يراقب غضبهم وقد يرده إليهم.

حيويتها

يثير الضحايا الحسد لدى الآخر لأنهم يعرضون الكثير مما يُرى، فهم لا يعرفون أن يكتموا سعادتهم أو متعتهم بامتلاك هذا الشيء أو ذاك. ومن الشائع في الحضارات المختلفة أن من الحكمة إنكار النعم المادية أو المعنوية التي يمتلكها المرء وإلا تعرض للحسد.

وفي مجتمعنا الذي يمجد المساواة، هناك ميل للاعتقاد بأن المحسود هو من يثير الحسد بصورة واعية أو لاواعية (فإذا تعرض شخص للسرقة مثلاً، فهذا يعني أنه عرض ثرواته بشكل مفرط)، وهناك أناس تجعلهم عدم ثقتهم بنفسهم يبالغون بما لديهم بشكل مفرط، مثل هؤلاء الناس يشكلون ضحايا مثاليين بالنسبة للفاسدين أخلاقياً، والنتيجة أن الطاقة الحيوية لديهم هي التي تحولهم إلى فريسة.

إنهم بحاجة للعطاء، والفاسدون بحاجة إلى الأخذ، لا أفضل من هذا اللقاء المثالي... واحد يرفض أي شعور بالذنب، وآخر لديه ميل طبيعي للشعور بالذنب.

ولكي تكون اللعبة قيِّمة، يجب أن تكون الضحية «على المستوى» المطلوب، أي أن تقاوم في البدء ثم تنتهي بالاستسلام لاحقاً.

شفافيتها

تبدو الضحايا ساذجة وسريعة التصديق، وتحاول أن تجد تفسيراً وأن تحبط سوء الفهم لأنها لا تستطيع أن تتصور أن الآخر عدواني بطبعه: «إذا شرحت له سيفهم ويعتذر عن سلوكه!». وبما أن البريء لا يستطيع تصور هذا القدر من التلاعب والعدوانية، ترغب الضحايا في أن تكون شفافة وتحاول أن تثبت براءتها كي تثبت سلامتها

مما توصم به. عندما ينفتح شخص شفاف على شخص حذر، تكون السلطة بيد الحذر. إن كل المفاتيح التي تعطيها الضحايا للمعتدي تؤدي إلى زيادة احتقاره لها، وإزاء الهجوم الفاسد تبدي الضحايا تفهماً وتحاول أن تتكيف أي أن تفهم أو تعذر لأنها تحب وتستحسن: «إذا كان كذلك فلأنه تعيس، ولا بد لي من أن أبعث الاطمئنان فيه وأن أشفيه»، فهي تعتبر أن عليها أن تساعده لأنها الوحيدة التي تفهمه وكأنها أم تريد أن تحمي طفلها. إنها تريد أن تملأه في أن تعطيه شيئاً من ذاتها وتتصور أن هذه هي مهمتها. تظن أنها تستطيع أن تفهم كل شيء وأن تعذر على كل شيء وأن تبرر كل شيء. إنها مقتنعة بأهمية الحديث من أجل إيجاد الحلول، ولكنها تخفق لأن الفاسدين يرفضون أي حوار. وهي تأمل أن يتغير الآخر وأن يدرك الألم الذي يسببه ويأسف له، وتأمل دائماً بأن تنزع شروحاتها وتبريراتها فتيل الخلاف وترفض أن تدرك أنها يجب ألا تتحمل مسؤولية كل شيء لأنها ناضجة فكرياً وعاطفياً.

وفي حين أن الفاسد النرجسي ثابت في جموده، تحاول الضحية أن تتكيف وأن تفهم ما يريد المعتدي وتفتش عن نصيبها من الشعور بالذنب بصورة واعية أو لاواعية، وينجح التلاعب بقدر ما يكون المعتدي شخصاً تثق الضحية فيه (أباً أو أماً أو زوجاً أو مديراً). ولكن قدرة الضحايا على العفو وقلة حقدهم تجعلهم أقوياء، وهذا ما لا يستطيع المعتدي أن يغفره لأنه بمثابة انسحاب الضحية من اللعبة «لا أريد أن ألعب معك»! يصبح المعتدي محبطاً وتصبح الضحية بالنسبة له توبيخاً دائماً مما يؤدي إلى الكراهية حصراً.

يبدو أن القابلية للخضوع يمكن أن تكتسب منذ الطفولة، فغالباً ما نتساءل لماذا لا ترد الضحايا، فنحن نرى معاناتها وإذعانها في حياتها الخاصة ومع ذلك نراها تبقى على ما هي عليه لدرجة أنها تخشى من أن يتم هجرها. إن الرحيل هو الحماية، لكنها لا تستطيع أن ترحل طالما أنها لم تتخلص من جراح الطفولة.

لقد أظهرت «أليس ميلر»[1] أن التربية القسرية المكرسة «لقمع» طفل «من أجل مصلحته» تحطم إرادته وتقوده لأن يكبت مشاعره الخاصة وإبداعه وحساسيته وتمرده.

١- ميلر، معاناة الطفل الصامتة، باريس ١٩٩٠.

وحسب رأيها فإن هذا النوع من التربية يعد الفرد لأي خضوع جديد سواء أكان فردياً (من فاسد نرجسي) أو جماعياً (من طائفة أو حزب سياسي شمولي). وهكذا يستسلم الفرد للتلاعب في سن الرشد لأنه مستعد لذلك منذ الطفولة.

إن من كانوا يحتفظون بإمكانية القيام بردة الفعل بالكلمة أو الغضب إزاء الإغاظة والإذلال، ولو كانوا يعيشون في مناخ قمعي أو غير صحي، يستطيعون في سن الرشد أن يحموا أنفسهم من الفاسدين النرجسيين بصورة فضلى.

إن الضحايا يفهمون، ولكنهم «يرون» في الوقت نفسه، ولديهم ذكاء عال بحيث يستطيعون تحديد نقاط ضعف المعتدي عليهم: تقول ضحية سابقة «ما إن كشفت خطأ شريكي حتى وجدت نفسي أعاني وحيدة». وهكذا تصبح الضحية خطيرة عندما تبدأ بتحديد مدركاتها مما يستوجب إسكاتها باللجوء إلى الرعب.

الباب الثالث

النتائج والعلاج

في فيلم «السجينة الإسبانية» لـ «ديفيد ماميت» (١٩٩٧) أو في أفلام هتشكوك تجري الحبكة حسب المخطط نفسه، إذ لا تدرك الضحايا أنه تم التلاعب بها إلا عندما يصبح العنف ظاهراً جداً حيث ينكشف السر بمساعدة عناصر خارجية. تبدأ العلاقات في الإغراء الساحر وتنتهي بتصرفات سيكوباتية مفزعة. ومع ذلك هناك إشارات منذ البداية لا تفسر إلا لاحقاً عندما تصبح الضحية خارج السطوة وتدرك عملية التلاعب التي تعرضت لها.

وكما رأينا يكون الضحايا مشلولين أثناء المرحلة الأولى، ثم محطمين أثناء المرحلة التالية.

نتائج مرحلة التسلط

التنازل

أثناء مرحلة التسلط، يجنح البطلان إلى التنازل من أجل تجنب الصراع: يهاجم المعتدي بلمسات صغيرة غير مباشرة بحيث يزعزع الآخر من دون أن يفتح الصراع علانية، وتتنازل الضحية أيضاً خوفاً من حصول نزاع يؤدي إلى القطيعة. وبما أنها تشعر بعدم وجود تفاوض ممكن مع الآخر، تفضل التسويات بدلاً من أن تجازف بالانفصال.

تفيد مواقف التجنب في تفادي أحداث العنف من دون أن تغير الشروط التي تؤدي إلى ظهوره. إن التنازل في المرحلة الأولى يسمح بالحفاظ على العلاقة مهما كلف الثمن وعلى حساب الضحية. ثمة تحالف ضمني بين البطلين إذ تستسلم الضحية لتعسف الآخر في حركة غيرية وهمية، فهي تشكو من مواقفه السلبية لكنها تستمر في إضفاء صفة الكمال على سماته الأخرى (ذكي جداً، أب ممتاز...).

وحين تقبل الضحية هذا الخضوع، تقوم العلاقة على هذه الصيغة بصورة نهائية: أحدهم مكبوت ومظلوم باطراد، والآخر مسيطر وواثق من سيطرته باطراد أيضاً.

الحيرة

إن التسلط يسبب الارتباك لدى الضحايا، فلا يجرؤون على الشكوى ولا يعرفون كيف يشتكون، وكما لو كانوا مخدرين يشعرون بفراغ في الرأس وصعوبات في التفكير ويحسون بإنهاك حقيقي وموت جزئي لمواهبهم وفقدان لما كانوا يتمتعون به من حيوية وعفوية.

ولو شعروا بالظلم أحياناً، إلا أن حيرتهم تفقدهم أيّ وسيلة للقيام بردة الفعل. حقيقة الأمر أن من المستحيل على الفرد بمقابل الفاسد النرجسي أن يمتلك الكلمة الأخيرة، فليس أمامه إلا الخضوع إلا إذا كان هو نفسه فاسداً.

إن الحيرة تولد الإجهاد، ومن الناحية الفيزيولوجية يصل الإجهاد إلى حده الأقصى عندما يتم تثبيت من يتعرض له فيكون فريسة لشك كبير. وغالباً ما يذكر الضحايا أن ما يولد الضيق النفسي ليس العدوان الصريح، بل المواقف التي تكون فيها غير متأكدة من مسؤوليتها عنها جزئياً، ولا يشعر الضحايا بالارتياح إلا عندما يسفر المعتدي عن وجهه الحقيقي.

بعد كل ما يقوله لي، كنت أعتقد أنه ربما يكون على حق، وأنني أعاني من شيء من الجنون والهستيريا. وذات يوم جاء يقول لي كالعادة بصوت جامد، ناظراً إلي نظرة كراهية، بأنني لا شيء، وأنني عاجزة وغير مفيدة للمجتمع وأن من الأفضل لي أن أنتحر. قال كل ذلك ولم ينتبه لجارتنا الموجودة بالمصادفة، فكان أن شعرت الجارة بالرعب ونصحتني بتقديم شكوى. كان هذا الحدث بمثابة تعزية لي، فقد استطاع أحد ما أن يفهم أخيراً.

من خلال هذا المثال ندرك أهمية الحضور المباغت لشاهد لم يخضع سابقاً لتأثير أي من البطلين.

إن صعوبة وصف ظاهرة التسلط تكمن في أنه يقوم أولاً بمسح الحدود الداخلية بين الشريكين ثم تفجيرها بحيث يكون من الصعب تحديد اللحظة التي تم فيها التحول إلى العنف.

وفي هذه الحرب النفسية نرى الضحية المفرغة من الداخل تفتقر إلى الهوية الخاصة وتفقد قيمتها بنظرها ونظر المعتدي الذي يرميها لأنه لم يعد لديه ما يأخذه منها.

الشك

عندما يظهر العنف بصورة صريحة، يشكل ضغطاً نفسياً لدى الضحية غير المستعدة له لأنها كانت مخدرة بتأثير التسلط. ولا يستطيع الضحايا والشهود تصديق ما يحصل أمام أعينهم لأن أي فرد إذا لم يكن هو نفسه فاسداً لا يستطيع أن يتصور

مثل هذا العنف الذي لا شفقة فيه ولا رحمة. ويميل الضحايا إلى إضفاء بعض المشاعر على المعتدي (من قبيل الشعور بالذنب والحزن والندم)، وفي واقع الأمر أنه يفتقر إليها تماماً. وحين تعجز الضحية عن الفهم نراها تصعق وتتكر الحقيقة: «لم يحصل ذلك قط»!

وإزاء هذا الرفض العنيف الذي تحس الضحايا به وتتكره، نجدها تحاول عبثاً أن تفهم وأن تعبر عن نفسها. إنها تبحث عن أسباب ما يحصل، وحين لا تجد تلك الأسباب تفقد ثقتها بنفسها فتصبح عدوانية وعصبية بصورة دائمة، وتتساءل باستمرار: «ماذا فعلت كي يعاملني هكذا؟ لا بد من أن يكون هناك سبب ما!». تبحث عن تفسير منطقي لما يحصل في حين أن ما يحصل مستقل عنها تماماً. تخاطب المعتدي غالباً «قل لي ماذا تعيب فيَّ؟ قل لي ماذا يجب أن أفعل كي تتحسن علاقتنا؟»، فيجيبها: «لاشيء يقال! الأمر هكذا! أنت لا تسمعين شيئاً على كل حال!». إن الحكم على الآخر بالعجز هو أسوأ أنواع الأحكام.

إن الضحية تحمل نفسها المسؤولية عن العنف بشكل كامل، فهي الوحيدة التي تتحمل الشعور بالذنب، أما المعتدي فهو يبرئ نفسه. من الصعب التخلص من هذه العلاقة لأن الضربات الأولى المسددة أدت إلى استلاب الضحية، فأصبحت تشعر بالذنب على الرغم من عدم وجود أي سبب وجيه لذلك: لقد استبطنت العدوان تماماً.

ويعزز المحيط من الشعور بالذنب لدى الضحية، هذا المحيط المشوش هو أيضاً، والذي لا يعرف أن يحاكم من دون أن يحكم، فهو يقدم شروحات وتفسيرات بربرية «كان عليك أن تكوني أكثر... أو أقل...! ألا تعتقدي أنك تصبين الزيت على النار؟ إذا كان على هذا النحو فبسبب معاكساتك له».

إن لمجتمعنا رؤية سلبية عن الشعور بالذنب: لا يهم أن تتمتع بضمير حي، بل أن تظهر بمظهر الأقوى. وكما يقال بأن لا دخان من غير نار يعتقد المجتمع أن «التذنيب» يدل على وجود الخطأ. وهكذا ينجح الفاسدون في جعل الملاحظين من الخارج يلقون بالذنب على الضحية.

الإجهاد

يؤدي قبول هذا الخضوع إلى توتر داخلي كبير نتيجة الحرص على عدم إزعاج الآخر وعلى تهدئته عندما يكون عصبياً وعلى عدم إبداء أيّ ردة فعل سلبية. إن هذا التوتر يسبب الإجهاد.

مقابل هذا الموقف المنهك يكون الجسد بحالة استنفار دائم مع إنتاج مواد هرمونية وانخفاض بجهاز المناعة وخمول في الأعصاب الدماغية الناقلة. إن الإجهاد في الأصل ظاهرة تكيف طبيعية مقابل أي عدوان. وعندما يحصل الإجهاد على فترات متباعدة يعود كل شيء إلى وضعه الطبيعي، أما إذا استمر الإجهاد وتكرر بفترات متقاربة فإنه يتجاوز قدرات الفرد على التكيف ولا يعود هناك نشاط في الغدد الصم، ويؤدي استمرار إفراز هرمونات التكيف بمعدلات عالية إلى اضطرابات مزمنة.

أما علامات الإجهاد الأولى فهي: خفقان، لهاث، إحساس بالضيق والتعب، اضطرابات النوم، عصبية، تهيُّج، آلام في الرأس، اضطرابات هضمية، آلام في البطن ومظاهر نفسية من قبيل الحصر النفسي.

تختلف القابلية للإجهاد من شخص لآخر، كان هناك اعتقاد ساد لفترة طويلة مفاده أن القابلية للإجهاد تعود إلى عوامل بيولوجية جينية، والآن أصبح من المعلوم أن هذه القابلية يمكن أن تكتسب تدريجياً عندما يواجه الفرد أفعالاً عدائية مزمنة. ومع ذلك فإن الأشخاص ذوي الطبع النزق أكثر حساسية للإجهاد من غيرهم، في حين أنه ليس لدى الفاسدين أيّ قابلية له، فهم يروحون عن أنفسهم عبر تسبيب الألم للآخرين، وعلى سبيل المثال فإن الفاسدين فقط هم الذين نجوا من مرض «عصاب الحرب» بعد عودتهم من المعارك العنيفة كما حصل في فييتنام.

إن المعتدي يستعصي على الألم الداخلي وينجو من الإجهاد إذ يجعل الآخر مسؤولاً عن المشكلات، أما الضحايا فلا يستطيعون أن يتملصوا لأنهم لا يدركون ما يجري. لا معنى لأي شيء. يقال شيء ثم يقال نقيضه، لا وضوح أبداً. يتم إنهاكهم بأجوبة عبثية تقوي عملية العنف وتؤدي إلى الإنهاك وتعطيل النمو في الجهاز العصبي.

وحين تستمر هذه الضغوطات لفترة طويلة (أشهر أو سنوات أحياناً)، تنهار مقاومة الجسد فيحصل جزع مزمن: اضطرابات وظيفية وعضوية تعود إلى خلل عصبي هرموني.

وبعد سلسلة طويلة من الإخفاقات، ينهزم الضحايا ويستبقون الإخفاقات الجديدة قبل حصولها، وهذا ما يقوي إجهادها ويضعف قدراتها الدفاعية.

ويمكن أن تظهر هذه الحالة من الإجهاد المزمن عبر سيطرة الجزع مع توهم القلق واستباقه واجتراره مما يشكل حالة توتر دائم ويقظة مفرطة.

الخوف

يثير الفاسدون عند الآخر قدراً من العنف لا يعترفون به سواء أوصلوا لغاياتهم أم لم يصلوا. في هذه المرحلة يصف جميع الضحايا شعورهم بالخوف، فهم في حالة احتراس دائم يرقبون نظرةً أو حركةً رعناء أو صوتاً جامداً يمكن أن يخفي عدواناً ضمنياً، ويخشون من ردة فعل الآخر ومن انقباضه وبرودته وملاحظاته الجارحة وتهكماته واحتقاره وسخريته.

وينظر إلى الضحايا على أنهم مخطئون في جميع الأحوال سواء إذا خضعوا أو إذا ردوا على العنف، ففي الحالة الأولى يزعم الفاسدون، وربما المحيط أيضاً، أن لدى ضحاياهم استعداداً فطرياً لذلك، وفي الحالة الثانية يتم تسجيل العنف عليهم ويتهمون بأنهم مسؤولين عن فشل العلاقة وعن الخلل كله خلافاً للواقع.

ويميل الضحايا أحياناً إلى أن يكونوا أكثر وداعة ولطفاً من أجل تفادي العنف، إذ يتوهمون إمكانية انتهاء الكراهية بإظهار الحب والحنان، والنتيجة سيئة إذ ينزعج الفاسد كلما كانوا كرماء معه، فإذا أظهروا الحنان والعطف فهذا يعني أنهم متفوقون عليه، مما يؤدي إلى تقوية العنف لديه.

ويفرح الفاسد عندما تحقد الضحية عليه، فهذا يمنحه حجة جديدة «لست من يكرهها، هي التي تكرهني».

العزلة

تشعر الضحية بأنها وحيدة في مواجهة هذه المواقف. كيف تفصح عن ذلك للآخرين؟ إن الدمار الخفي ينأى عن الوصف. كيف تصف نظرة مليئة بالكراهية وعنفاً لا يظهر إلا في التضمين والصمت؟ فالعنف لا يكون ظاهراً إلا أمام الشريك المضطهَد. كيف يمكن للأصدقاء أن يتصوروا ما يحصل؟ وحتى عندما يتوصلون لمعرفة حقيقة الاعتداءات، فهم يكونون مشوشين ومرعوبين. وبصورة عامة فحتى المحيط القريب يبقى بعيداً: «لا نريد أن نحشر أنفنا في ذلك»!

يشك الضحايا بإحساساتهم الخاصة فهم ليسوا واثقين من كونهم لا يبالغون. وعندما تحصل الاعتداءات أمام شهود، يحصل أن يحكم الضحايا، الذين يحمون المعتدي دوماً، على ردود فعلهم بأنها مبالغ فيها، فيجدون أنفسهم في موقف لا معقول إذ يدافعون عمن يعتدي عليهم كي لا يصبوا الزيت على النار.

النتائج الطويلة الأجل

الصدمة

تحصل الصدمة عندما ينتبه الضحايا للعدوان. إذ لم يكونوا مرتابين حتى ذلك الوقت، إنما كانوا بالأحرى واثقين جداً. ولو أن أشخاصاً من الخارج قد أشاروا لهم إلى خضوعهم وتسامحهم إزاء نقص الاحترام الواضح، لرفضوا الإقرار بذلك. فجأة يدركون أنهم كانوا ألعوبة بيد المتلاعب.

يجدون أنفسهم ضائعين ومجروحين، فقد انهار كل شيء. وتأتي قوة الصدمة من تأثير المفاجأة وعدم التهيؤ لها كنتيجة للتسلط. وأثناء الصدمة الانفعالية يختلط الألم والجزع. كسر شديد، صعقة، انهيار، كيل طافح، هذا هو الإحساس الذي يرويه الضحايا كما لو كانوا قد تعرضوا لعدوان جسدي: «كما لو أنها طعنة خنجر»! «كان يقول لي كلمات فظيعة وكان لدي انطباع بأنني أشبه ملاكماً منبطحاً على الأرض في حين لا يزال خصمه يوسعه ضرباً»!

والغريب في الأمر أننا نادراً ما نرى حركات غضب أو تمرد حتى بعد أن يأخذ الضحايا قرارهم بالانفصال. وإلا لكان الغضب يتيح لهم التحرر. إن الضحايا يعرفون أن يحددوا قدرهم الظالم لكنهم لا يعرفون التمرد عليه. فالغضب لا يحصل إلا بعد مدة طويلة، وغالباً ما يكون غضباً مراقباً وبالتالي عديم الفاعلية، فلكي يشعر الضحايا بغضب محرِّر لا بد من أن يخرجوا من التسلط.

عندما ينتبه الضحايا للتلاعب يشعرون بأنهم مبتزون كمن تعرض لعملية نصب. يشعرون دوماً بنفس شعور الخديعة والغش وعدم الاحترام. ويكتشفون بوقت متأخر

أنهم ضحايا وأنهم تعرضوا للتلاعب. فيفقدون كرامتهم وتقديرهم لذاتهم. ويخجلون من ردات الفعل التي أحدثها هذا التلاعب فيهم: «كان عليَّ أن أرد مبكراً»! «لماذا لم ألاحظ أي شيء»؟

ينجم الخجل عن إدراكهم لتواطئهم المرضي مع المعتدي مما شجع العنف لديه.

وأحياناً يرغب الأشخاص بالانتقام، ولكنهم في الغالب يجدون أنفسهم ساعين لرد الاعتبار وللاعتراف بشخصيتهم، فيتمنون اعتذراً من المعتدي عليهم فلا يحصلون عليه. وإذا حصلوا على مواساة ما، فغالباً ما يتم ذلك في وقت متأخر جداً، وليس من قبل المعتدي بل من قبل شهود أو أناس متواطئين سلبيين انخرطوا في العدوان إذ تلاعب المعتدي بهم أيضاً.

عدم القدرة على التعويض

يشعر الضحايا الذين تم إضعافهم أثناء مرحلة التسلط بأنهم الآن معتدى عليهم بصورة مباشرة. إن قدرات المقاومة عند الفرد محدودة، فهي تتآكل تدريجياً وتقود إلى إنهاك نفسي. وبالإضافة إلى مقدار ما من الإجهاد يتعطل عمل التكيف ويصبح هناك عدم تعويض، فتحصل اضطرابات مستمرة.

وبصورة عامة نصادف نحن الأطباء العقليين هؤلاء الضحايا في مرحلة عدم التعويض. وهم يبدون حالة قلق عام واضطرابات نفسية جسدية وحالة اكتئاب. ولدى الحالات الشديدة يمكن أن يتم عدم التعويض عبر الانتقال لفعل عنيف يقود إلى مستشفى الأمراض العقلية. ومن الشائع بنظر المعتدين أن تشكل هذه الاضطرابات تبريراً للتحرش.

وبصورة مدهشة، عندما نصادف في هذه المرحلة عمالاً قد تم التحرش بهم في مكان العمل، وعندما نقترح عليهم إجازة مرضية، فمن النادر أن يقبلوها: «إذا انقطعت عن العمل فالأمر سيصبح أسوأ! سوف يجعلونني أدفع ثمن ذلك»! فالخوف يجعلهم يقبلون كل شيء.

إن هذه الحالات الاكتئابية مرتبطة بالإنهاك وبدرجة عالية من الإجهاد، إذ يشعر الضحايا بأنهم فارغون متعبون لا يتمتعون بأيّ طاقة. لا شيء يثير اهتمامهم. لم يعد باستطاعتهم التفكير أو التركيز حتى على أبسط الأنشطة. ومن الممكن أن تأتيهم حينئذ فكرة الانتحار. والخطر الأكبر يكون عندما يدركون بأنهم تعرضوا للخديعة وأن لا شيء يتيح لهم الاعتراف بحقهم. عندما يكون هناك انتحار أو محاولة انتحار، فهذا يعزز ثقة الفاسدين بأن الآخر كان ضعيفاً مشوشاً ومجنوناً وأن الاعتداءات عليه كانت محقة.

أثناء العدوان الفاسد يتصرف المعتدي بحيث يظهر كلي القدرة ويبدي الحكمة والاستقامة الأخلاقية. وهكذا تكون الخيبة كبيرة بقدر ما يكون الضحايا ساذجين. وبصورة عامة، من بين أحداث الحياة التي يمكن لها أن تسبب حالة اكتئابية، لا يمكننا أن نذكر فقط تجارب الحداد أو الانفصال فحسب، بل حالات فقدان المثل العليا أو الأفكار المبالغ في قيمتها. وينتج عن ذلك شعور بالتفاهة والعجز والهزيمة. إن تجربة الهزيمة أو العجز والشعور بالمهانة والتعرض للاحتيال قد تشكل العنصر المؤسس لفترة الاكتئاب أكثر مما يشكله التعرض لموقف صعب أو خطير.

وفي موقف التحرش، وبعد إخفاقات عديدة في إقامة الحوار، تنشأ حالة جزع مستمر «جامد» تديمه اعتداءات مستمرة، وهذه الحالة تمهد لتصور الوقائع واستباقها مما يستوجب في الغالب تناولاً متزايداً للعقاقير.

والجواب يكون فسيولوجياً لدى بعض الضحايا الآخرين: قرحة في المعدة، أمراض في القلب والشرايين، أمراض جلدية... ونرى البعض ينحلون ويضعفون معبرين بجسدهم عن إصابة نفسية لا ينتبهون إليها، إصابة قد تفضي إلى تدمير كيانهم. والاضطرابات النفسية الجسدية لا تنجم عن العدوان بصورة مباشرة، بل من واقع كون الضحية عاجزاً عن ردة الفعل، فهو مخطئ مهما فعل، وهو مذنب مهما فعل.

ولدى البعض الآخر يكون الجواب سلوكياً ومزاجياً، وينتج عن التحريض الفاسد. إنها محاولات عبثية للتعبير عن الذات - أزمة عصبية أمام الناس مثلاً، أو انتقال لفعل عدواني ضد المعتدي - وهذه المحاولات تبرر العدوان أيضا: «لقد حذرتكم بأنه (بأنها) مريض تماماً»!

نعلم أن العدوانية الناجمة عن إثارة عصبية، مثل العدوانية الماكرة، قد تقود إلى العنف، بيد أنه يبدو أن خطر جريمة العنف يكون أكبر لدى الأفراد الذين يظهرون عدائية من النوع الناجم عن الإثارة العصبية. والفاسدون مستعدون لإثارة عنف الضحية ضدهم كي يثبتوا سوءها. وفي فيلم «فرانسيس جيرو» «الانتقال إلى الفعل» (١٩٩٦)، يتلاعب فاسد بطبيبه النفسي حتى يقوده لأن يقتله. لقد مضى في اللعبة حتى نهايتها. ويحصل أن تقلب الضحية هذا العنف على نفسها فيكون الانتحار هو الحل الوحيد للتخلص من المعتدي.

هناك نتيجة أخرى للصدمة غالباً ما يتم نسيانها: الانفصام (سبيجل ١٩٩٢)[1] الذي يمكننا أن نصفه كتشتت الشخصية. وقد تم تعريف الانفصام، في ملفات العلوم الطبية - الجزء الرابع، على أنه حدوث تشوش يصيب وظائف متلاحمة عادة كالوعي والذاكرة والشخصية وإدراك المحيط. إنه ظاهرة دفاعية ضد الخوف والألم والعجز مقابل حدث صادم غريب جداً عما يمكن إدراكه في العادة، بحيث لا يكون أمام النفس من ملاذ سوى بتشويهه أو طرده من الوعي. وبذلك يقوم الانفصام بعملية فصل بين ما يطاق وما لا يطاق الذي يكون من نصيب النسيان. إن الانفصام ينقّي التجربة المعاشة ويقود بذلك إلى تنفس الصعداء وإلى حماية جزئية.

إن ظاهرة الانفصام تأتي لتعزز التسلط وتشكل صعوبة إضافية لا بد من أخذها بالحسبان أثناء العلاج.

الانفصال

قد يرد الضحايا بطريقتين على التهديد الذي يتضح أكثر فأكثر:

- الخضوع وقبول السيطرة، وحينئذ يستطيع المعتدي أن يتابع عمله التدميري بكل هدوء.
- التمرد والنضال من أجل الرحيل.

بعض الأشخاص ليسوا قادرين على الهرب أو الصراع نظراً لكونهم قد تعرضوا لتسلط قوي جداً وقديم جداً. وهم يذهبون أحياناً لاستشارة طبيب أو معالج نفساني

١- كلاسن وكوبمن وسبيجل، الصدمة والانفصام، مجلة مينيجر كلينيك، العد ٢، ١٩٩٣.

ولكنهم يصرحون بوضوح أنهم يرفضون أي بحث جوهري للمشكلة، إنما يريدون فقط الثبات فيما هم عليه وتحمل وضعهم العبودي من دون الكثير من الأعراض المرضية مع الاستمرار في الظهور بمظهر الوداعة. وهؤلاء الأشخاص يفضلون عادة العلاج الدوائي على العلاج النفسي الطويل. ومع ذلك، ومع تتابع حالات الاكتئاب فقد يحصل إفراط في تناول الأدوية المضادة للقلق أو المركبات السامة، فلا يكون أمام الطبيب العقلي إلا أن يقترح علاجاً نفسياً جديداً. عندما يبدأ سياق التحرش، فمن النادر في الواقع أن ينقطع بغير رحيل الضحية، فالأدوية لا تتيح لها أن تنقذ نفسها البتة.

وفي الغالب يمكن للضحايا أن يردوا عندما يرون هذا العنف ينصب على شخص آخر أو عندما يجدون حليفاً أو سنداً من الخارج.

وإذا أمكن أن يحصل الانفصال يكون من عمل الضحايا ولا يكون البتة من عمل المعتدين. وتتم عملية التحرر هذه في سياق الألم والشعور بالذنب، لأن الفاسدين النرجسيين يقدمون أنفسهم على أنهم ضحايا مهجورون فيجدون بذلك حجة جديدة لعنفهم. وفي سياق الانفصال يقدر الفاسدون بأنهم مغبونون ويرغبون في إقامة الدعاوى مستفيدين من كون ضحيتهم التي تستعجل الخلاص لا تزال مستعدة لجميع التنازلات.

وبين الأزواج يمارَس الابتزاز والضغط عبر الأطفال إذا كانوا موجودين أو في دعاوى تتعلق بالممتلكات المادية. وفي الوسط المهني ليس من النادر أن ترفع الدعوى على الضحية لأنه مذنب دوماً في أمر ما، بسبب أخذه ملفاً مهماً إلى المنزل مثلاً. وفي جميع الأحوال يشكو المعتدي من كونه مغبوناً في حين أن الضحية هو من فقد كل شيء.

التطور

وحتى لو كان الضحايا، في نهاية مجهود الانفصال، قد فقدوا أي تماس مع المعتدي عليهم، لا يمكننا نفي النتائج الدرامية لانتقال حياتي تم اختزالهم فيه إلى جماد. وانطلاقاً من ذلك يمكن لأيّ ذكرى أو لأي حدث جديد أن يأخذ منحى آخر مرتبطاً بالتجربة المعاشة.

إن البعد الجسدي عن المعتدي يشكل للوهلة الأولى تحرراً بالنسبة للضحايا: «يمكنني أن أتنفس أخيراً»! فبعد انقضاء مرحلة الصدمة يظهر اهتمام بممارسة العمل وأنشطة الترفيه، وفضول إزاء العالم والناس وكل شيء كانت التبعية قد أعاقته حتى ذلك الوقت. ومع ذلك فإن هذا لا يتم بسهولة.

وبين ضحايا التحرش خرج البعض منه من دون عواقب نفسية باستثناء ذكرى سيئة تحت السيطرة - وهذا يكون صحيحاً بصورة خاصة عندما يكون التحرش خارج نطاق الأسرة ولمدة قصيرة. والكثيرون يشعرون بظواهر كريهة في تذكر موقف الصدمة، ولكنهم يقبلونه.

على أن محاولات النسيان تقود في الغالب إلى اضطرابات نفسية أو جسدية متأخرة، كما لو كانت المعاناة قد ظلت جسماً غريباً داخل النفس، جسماً فاعلاً وحصيناً بآن واحد معاً.

إن العنف المعاش يمكن أن يترك آثاراً خفيفة، بيد أنه يحسب حسابها مع الاستمرار في الحياة الاجتماعية الطبيعية بالفعل، إذ يبدو الضحايا سليمين نفسياً، غير أن أعراضاً خاصة تبقى كمحاولة لإخفاء العدوان الذي عانوا منه. وقد تكون هذه الأعراض جزعاً عاماً، تعباً مزمناً، أرقاً، آلاماً في الرأس، آلاماً متعددة أو اضطرابات نفسية جسدية (ارتفاع الضغط الشرياني، أكزيما، قرحة في المعدة أو الاثنا عشرية)، بل قد تكون هذه الأعراض بالأحرى سلوكيات تعلق (بوليميا، إدمان الكحول أو المخدرات). وعندما يستشير هؤلاء الأشخاص طبيبهم العام يطلبون وصفة دواء مضاد للأعراض أو للقلق، فلا يتم الربط بين العنف الذي تعرضت له الضحية والاضطرابات التي تشكو منها لأنها لا تتكلم عن هذا العنف قطعاً.

ويحصل أن يشكو الضحايا لاحقاً من عدوانية لا يمكن السيطرة عليها كعاقبة للوقت الذي كانوا فيه لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، مما يمكن تفسيره بتصدير العنف.

وهناك ضحايا آخرون يظهرون سلسلة من الأعراض تقترب من تعريف الإجهاد اللاحق للصدمة في ملفات العلوم الطبية - الجزء الرابع. وهذا التعريف يتوافق نوعاً ما مع التعريف الأوربي القديم للعصاب الناتج عن الصدمة، الذي تم تطويره بدءاً من عصاب

الحرب أثناء الحرب العالمية الأولى[1] والذي درسه الأمريكيون بصورة خاصة لدى المحاربين القدماء في فيتنام. وفيما بعد استخدم هذا التشخيص في وصف النتائج السيكولوجية للكوارث الطبيعية والاعتداءات المسلحة وحوادث الاغتصاب. في حين أنه لم يستخدم في شأن العنف الزوجي[2] إلا مؤخراً. وليس من المعتاد الحديث عن إجهاد ما بعد الصدمة في شأن ضحايا الفساد الأخلاقي، إذ اقتصرت هذه التسمية على الأشخاص الذين واجهوا أحداثاً تعرض فيها أمنهم أو أمن غيرهم الجسدي للخطر. ومع ذلك فإن الجنرال كروك المتخصص في علم الضحية اعتبر أن الذين تعرضوا للتهديد والتحرش والتشهير هم ضحايا نفسيون[3]، فهؤلاء الضحايا على غرار ضحايا الحرب، قد تم وضعهم في «حالة حصار» احتمالي ألزمهم بأن يكونوا على أهبة الاستعداد للدفاع بصورة دائمة.

يتم تسجيل الاعتداءات والإذلالات في الذاكرة، وتُستَرجع في صور وأفكار وانفعالات مكثفة ومتكررة إما في النهار عبر انطباعات مباغتة لدهم موقف بعينه، أو أثناء النوم محدثة أرقاً وكوابيس. يحتاج الضحايا لأن يتحدثوا عن أحداث ولدت الصدمة، بيد أن استحضار الماضي يقود في كل مرة إلى مظاهر نفسية جسدية معادلة للخوف، ويظهر عليهم اضطرابات في الذاكرة والتركيز. وأحياناً تفقد الشهية أو يصبح لديهم على العكس من ذلك سلوكيات بوليمية فيرتفع استهلاكهم للكحول والتبغ.

ولأجل طويل جداً يقود الخوف من مواجهة المعتدي وذكرى الموقف الذي ولد الصدمة سلوكاً يتمثل في تفادي التفكير في المشكلة، فيتخذ الضحايا استراتيجيات محددة بغية عدم التفكير بالحدث الذي ولد الإجهاد وبغية تفادي كل ما يمكن أن يثير تلك الذكرى المؤلمة. واتخاذ هذه المسافة الفاصلة لمحاولة التملص من قسم من الذكريات يفضي أحياناً إلى نقص واضح في الاهتمام بالأنشطة المهمة سابقاً أو تقليص المؤثرات. وفي الوقت نفسه تبقى دلالات عصبية لا إرادية من قبيل اضطرابات النوم أو الأرق المفرط.

لقد شكا جميع من كانوا ضحايا للتحرش من هذه الاستذكارات المؤلمة، ولكن البعض منهم نجحوا في التخلص منها عبر توظيفهم لأنفسهم في أنشطة خارجية مهنية أو مجانية.

١- فرنتشي، عصابيو الحرب والتحليل النفسي، منشورات بايو، باريس ١٩٩٠.

٢- داتون و جودمان، اضطرابات إجهاد ما بعد الصدمة لدى النساء: تحليل الملابسات القانونية، ١٩٩٤.

٣- كروك، الضحايا النفسيون، مجلة فكتمولوجيا، تشرين الثاني ١٩٩٤.

ولا تنسى التجربة المعاشة بمرور الوقت، ولكنها قد تصبح أقل فأقل تقاسماً. فكيف يمكن أن يقول الضحايا، بعد عشر أو عشرين سنة، لا يزالون يشعرون بالضيق عندما تدهمهم صور مضطهدهم. وحتى لو وجد الضحايا حياة مزدهرة فإن هذه الذكريات تجلب ألماً واخزاً. وبعد مضي سنوات على ذلك، تراهم يهربون من كل ما يمكن أن يستحضر معاناتهم من قريب أو بعيد، لأن الصدمة قد طورت فيهم أكثر من غيرهم قدرة على تعيين العناصر الفاسدة في علاقة ما.

أما عند أولئك الذين تعرضوا للتحرش في المؤسسة فلا تلمح أهمية النتائج طويلة الأمد في الغالب إلا عندما يتحسنون بعد انقطاع طويل عن العمل وحين يعرض عليهم أن يعملوا من جديد، فحينذاك تعود الأعراض للظهور: أزمات جزع، أرق، أفكار سوداوية، ويدخل المريض في دائرة حلزونية: سقوط، انقطاع جديد عن العمل، استئناف العمل، سقوط من جديد... وهذا ما يمكن أن يقود إلى عدم القدرة على الاندماج.

وعندما لا يستطيع الضحايا أن يتخلصوا من التسلط، يحصل أن تتوقف الحياة عند هذه الصدمة: إذ يضعف دافع الرغبة في الحياة وتغيب بهجة العيش وتصبح أيّ مبادرة شخصية مستحيلة، فلا يكفّون عن الشكوى من كونهم قد هجروا وخدعوا وأهينوا، ويصبحون حادين نزقين وقابلين للإثارة في سياق انسحاب من المجتمع واجترار للألم. ويستمر هؤلاء الضحايا في اجترار الحديث عن مشكلتهم حتى يكاد المحيط لا يطيقهم: «هذه قصة قديمة، يجب أن تفكر بشيء آخر»!

ومع ذلك، وسواء أكان التحرش في الأسر أو في المؤسسة، فنادراً ما يطلب الضحايا الانتقام. إنما يطلبون قبل كل شيء اعترافاً بمعاناتهم، حتى لو كان من المستحيل رفع الظلم عنهم بشكل كامل. وفي المؤسسة يمكن أن يتم رفع الظلم هذا بتعويض مالي لا يمكن له بأي حال من الأحوال أن يعوض عن المعاناة الحاصلة. إن من العبث أن ننتظر ندماً أو تأنيب ضمير من فاسد حقيقي، فلا أهمية لديه لمعاناة الآخرين. وإذا ما كان هنالك ندم، فهو يأتي من المحيط من أولئك الذين كانوا شهوداً صامتين أو متواطئين. هؤلاء فقط يستطيعون أن يعبِّروا عن ندمهم، حتى أنهم بذلك يستطيعون أن يعيدوا للشخص كرامته بعد أن أهين ظلماً.

نصائح عملية في الحياة الزوجية والأسرية

ليس بإمكان المرء أن يفوز على خصم فاسد مطلقاً، ففي أحسن الأحوال يمكن أن يتعلم المرء شيئاً عن ذاته.

بغية أن تدافع الضحية عن نفسها، كثيراً ما تلجأ إلى أساليب المعتدي نفسها. ومع ذلك، وإذا كان المرء ضحية الآخر، فهذا يعني أنه أقلهما فساداً. ولا يمكننا أن نتصور كيف يمكن أن تتقلب الأدوار، إذ إننا لا ننصح باستخدام أسلحة الخصم نفسها، وفي الواقع أن الملاذ الوحيد هو القانون.

الاستدلال

في المرحلة الأولى يتعلق الأمر بالنسبة للضحية بأن تستدل على السياق الفاسد الذي يقوم على تحميلها المسؤولية الكاملة عن النزاع الزوجي أو الأسري، ثم أن تحلل المشكلة بدم بارد ومن دون شعور بالذنب. ومن أجل ذلك ينبغي عليها أن تتخلى عن الفكرة المثالية عن التسامح المطلق وأن تعترف بأن من تحب أو من أحبت يظهر اضطراباً في الشخصية خطيراً عليها، وأن عليها أن تحمي نفسها جراء ذلك. ينبغي على الأمهات أن يتعرفن على الأشخاص الضارين بأولادهن، سواء أكان ذلك بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ولا يكون الأمر سهلاً مطلقاً عندما يكون هذا الشخص هو الوالد الآخر.

لا تحسن الضحية الدفاع إلا عندما تخرج من دائرة التسلط، وعندما تقبل بأن تسر لنفسها أن المعتدي، مهما كانت المشاعر التي كنَّتها أو لا تزال تكنها له، عدواني وخطير عليها.

ولو كفت الضحية عن الدخول في لعبة الفاسد، فإن ذلك يفجر لدى فاسد زيادة في العنف تقودها إلى الخطأ. يمكننا مذاك أن نستند إلى استراتيجيات الفاسد كي نصطاده في فخه. أيعني ذلك أنه من أجل الدفاع لا بد من استخدام المناورات الفاسدة أيضاً؟ هنا يكمن خطر يجب تفاديه بأي ثمن كان. بما أن الهدف النهائي للفاسد يكمن في إفساد الآخر، واقتياده لأن يصبح سيئاً هو أيضاً، يكون النصر الوحيد في ألا يصبح الآخر مثله وألا يرد العدوان، بيد أن من المهم معرفة تكتيكاته وطريقة عمله من أجل إبطال مفعول اعتداءاته.

هنالك قاعدة رئيسة تقول بأن عليك أن تكف عن تبرير نفسك عندما تتعرض لتحرش فاسد. إن المهمة صعبة لأن خطاب الفاسد مليء بالكذب الذي ينم عن انعدام الذمة والضمير. إن كل تفسير أو تبرير لا يمكن أن يقود الضحية إلا إلى مزيد من التورط في هذا الوحل. وإن أي خطأ أو عدم تدقيق تقترفه الضحية، ولو كان ذلك عن نية سليمة، يمكن أن يستخدم ضدها. فبدءاً من اللحظة التي تكون فيها الضحية بالنسبة للفاسد على خط تسديده، يتم تسجيل كل شيء على حسابها. وهكذا يكون من الأفضل لها أن تصمت.

إن المخاطب بالنسبة للفاسد على خطأ، أو أن أقواله على الأقل خاضعة للشبهة، فهو يعزو إليه نوايا عدوانية، ويرى أن أحاديثه مجرد أكاذيب. إن الفاسدين يتصورون أنه ليس بإمكان المرء ألا يكذب.

إن مراحل السياق السابقة قد أتاحت للضحية أن ترى أن الحوار والإيضاحات لا تفيد أي شيء. فإذا كان لا بد من حصول تخاطب، فينبغي أن يحصل بواسطة شخص ثالث. وفي حالة التماس المباشر، فإن من الأفضل أن تأخذ الضحية الوقت الكافي لتفكر بالجواب المناسب.

وعندما يتم التحرش عبر الهاتف بعد الانفصال، فمن الممكن تبديل رقم الهاتف أو تركيب مجيب آلي يقوم بالرد على الاتصالات الواردة. وفيما يتعلق بالرسائل المغرضة

القائمة على الشتائم، فمن الأفضل الطلب من شخص آخر فتحها لأن الرسائل الفاسدة تلحق قليلاً من المعاناة والأذى مما يزعزع الضحية من جديد.

التصرف

بما أن الضحية قد بدت متساهلة جداً إزاء واقع التسلط، يتوجب عليها أن تغير استراتيجيتها وأن تتصرف بحزم دون خوف من الصراع، إذ إن تصميمها يجبر الفاسد على إماطة القناع عن وجهه. إن كل تغيير في موقف الضحية يسبب في الغالب، وللوهلة الأولى، مزيداً من العدوان والإثارة، فيسعى الفاسد إلى تذنيبها: «بالتأكيد ليس لديك أي تعاطف»! «من غير الممكن الحديث معك البتة»!

ينبغي أن تنتقل الضحية من موقفها الجامد لتصبح منغصة لعيش الفاسد. فعندما تقوم بتأزيم الموقف، يمكن أن تبدو ظالمة، بيد أن هذا خيار لا بد من أن تضطلع فيه لأنه هو فقط يمكن أن يفضي إلى التغيير، فالأزمة وكأنها قفزة للتخلص من التسلط القاتل تسمح للحياة بأن تولد من جديد. إن ذلك هو الحل الوحيد الممكن أو على الأقل الاحتمال الوحيد للاستعداد للمواجهة، والأزمة تصبح عنيفة بقدر ما تتأخر الضحية في تأزيم الموقف.

المقاومة النفسية

إن من المهم أن تشعر الضحية بوجود سند لها كي تستطيع أن تقاوم نفسياً. ويكفي أحياناً وجود شخص واحد يشعرها بالثقة، في أي سياق كان، حتى تستعيد الضحية الثقة بنفسها. ومع ذلك يجب عدم الركون لنصائح الأصدقاء والعائلة وأي شخص يحاول أن يجعل من نفسه وسيطاً، لأن المحيط القريب لا يمكن أن يكون محايداً، فهو بحد ذاته تائه ومنجذب لطرف أو لآخر. إن الاعتداءات الأسرية الفاسدة سرعان ما تتيح معرفة الصداقات المخلصة، فبعض الأشخاص الذين كانوا مقربين يستسلمون للتلاعب فيرتابون ويلومون الضحية. وآخرون لا يفهمون الموقف فيفضلون

الابتعاد عنه. إن السند الحقيقي الوحيد يتمثل في أولئك الذين يكتفون بوجودهم حاضرين قلباً وروحاً، والذين لا يطلقون الأحكام، أولئك الذين مهما حصل يعرفون كيف يبقون هم أنفسهم.

اللجوء إلى العدالة

لا يمكن أن تحل الأزمة أحياناً إلا عبر تدخل العدالة. إن استخدام هذه النظرة الخارجية يسمح بتوضيح الأشياء ويقول لا.

بيد أن إطلاق أي حكم يتم حصراً انطلاقاً من وجود الأدلة. فالمرأة التي تتعرض للضرب يمكن أن تظهر آثار الضربات، وإذا دافعت يقال إنها في حالة الدفاع المشروع عن النفس. أما المرأة الذليلة والمهانة فتجد صعوبة في شرح الأمر لأنها لا تملك أدلة تقدمها.

عندما تعزم الضحية على الانفصال عن شريكها المعتدي، ينبغي عليها أن تجد الوسيلة لجعل الاعتداءات تتم بحضور أشخاص آخرين يمكن أن يتقدموا بشهادتهم، وعليها أيضاً أن تحتفظ بكل الآثار المكتوبة التي يمكن أن تذهب في هذا الاتجاه. إن التشهير والتحقير والعزلة يمكن أن تشكل أسباباً للطلاق إذا ما تم إثباتها. إن التحرش الهاتفي جنحة: يمكن الطلب من النائب العام مراقبة الخط لمعرفة المصدر.

في حال كان الأشخاص غير متزوجين، فإن المشكلة أكثر تعقيداً فلا يمكن للعدالة أن تتدخل بصفة جزائية إلا عندما يصبح العدوان جريمة.

وحين تلجأ الضحايا لرد العنف بالعنف، فإنها تتردد في تقديم الشكوى. ومع ذلك فإن عذر التحريض (السباب مثلاً) يمكن أن يسقط الصفة الجنائية. فتقر العدالة بأن عنف الضحية مبرر بسبب شتائم الشريك.

يرتاب القضاة لدرجة كبيرة أمام الألاعيب الفاسدة، إذ يخافون أن يتم التلاعب بهم هم أيضاً، ويهدفون لصلح يتم بأي ثمن كان، فيحمون أنفسهم من الطرفين عبر اعتمادهم لوساطات جد متأخرة، ويتم سياق الازدراء الماكر نفسه الذي يلقي بالمسؤولية كاملة على الضحية بتواطؤ لا إرادي من الوسيط. إن من الوهم أن يسعى

المرء للوصول إلى حوار مع الفاسد، لأنه يعرف دوماً كيف يكون ماهراً، ويستخدم الواسطة لازدراء شريكه. إن الصلح لا ينبغي له أن يتم على حساب أحد الطرفين، وقد تحملت الضحية الكثير الكثير، ويجب ألا نفكر بأنها تستطيع أن تقدم المزيد من التنازلات.

إن الوسيلة الوحيدة لحماية الضحية ومنعها من الرد على الإثارات المباشرة أو غير المباشرة تقوم على إصدار تعليمات قضائية راسخة وعلى تفادي آي تماس بين الطرفين أملاً في أن يجد الفاسد ضحية أخرى فيكف عن ممارسة الضغوط.

عندما يكون هناك أطفال، وبصورة خاصة إذا كانوا هم أيضاً عرضة للتلاعب، فإن على الضحية أن تتخلص من وضعها أولاً، كي تستطيع لاحقاً أن تحميهم من العلاقة الفاسدة. وهذا يفترض أحياناً المرور فوق تحفظات الأطفال الذين يفضلون ألا يتحرك ساكن وأن تبقى الأمور كما هي. ينبغي على القضاء أن يتخذ إجراءات حماية بغية تفادي أي تماس يمكن أن ينشّط العلاقة الفاسدة.

نصائح عملية في المؤسسة

الاستدلال

من المهم قبل كل شيء أن نستدل على سياق التحرش وأن نحلله إن أمكن. وإذا شعرنا بإصابة في كرامة الضحية أو سلامتها النفسية سبَّبها موقف معاد انتهجه شخص أو عدة أشخاص بشكل منتظم ولمدة طويلة يمكننا أن نفكر حينذاك بأن الأمر يتعلق بتحرش أخلاقي فعلاً.

والتصرف المثالي هو الذي يتم بأسرع ما يمكن قبل أن يتورط المرء بموقف لا حل له سوى الرحيل.

من المهم تسجيل أي شكل من أشكال الإثارة أو أي عدوان منذ أن يحصل، ذلك أن صعوبة الدفاع تكمن في ندرة وجود الأدلة الدامغة، كما هو الأمر في التحرش النفسي الأسري.

سيتوجب على الضحية إذن أن تجمع الآثار والقرائن وتسجل الشتائم وتصور كل ما يمكن أن يشكل دفاعها في لحظة ما أو بأخرى.

ومن المرغوب فيه أيضاً أن تتحقق الضحية من مساعدة الشهود. ولسوء الحظ، في سياق الظلم، لا يتضامن الزملاء في الغالب مع الشخص الذي يتعرض للتحرش خوفاً من المعاملة بالمثل، زد على ذلك أن الآخرين يكونون هادئين بصورة عامة ويفضلون أن يبقوا حذرين عندما ينقض المتحرش على شخص ما. ومع ذلك يكفي وجود شهادة واحدة ليتم تصديق ادعاءات الضحية.

إيجاد العون داخل المؤسسة

طالما أن الضحية لا تزال في خضم الصراع فعليها أن تبحث عن العون داخل المؤسسة. وفي الغالب لا ينتفض العاملون إلا أثناء اتخاذ إجراءات التسريح. إن هذا البحث ليس سهلاً دوماً لأنه إذا كان الموقف قد انحدر لهذه الدرجة، فهذا يعني أن المسؤول الأعلى لم يتصرف بصورة فاعلة حتى لو لم يكن هو المحرك لعملية التحرش. فإذا لم تجد الضحية هذا الدعم المعنوي في دائرة العمل، فعليها أن تبحث عنه في دوائر أخرى.

في أيّ مرحلة من البحث عن العون داخل المؤسسة، يمكن للعامل أن يخرج من سياق التحرش إذا أمكن له أن يلتقي مُحاوراً يعرف كيف يسمع. إذا حصل التحرش إذن فهذا يعني أن مثل تلك الفرصة لم تحصل قط.

عندما يكون حجم المؤسسة كافياً، ينبغي في البدء مقابلة مدير الموارد البشرية. ولسوء الحظ أن بعض مديري الموارد البشرية ليسوا سوى «رؤساء ذاتية»، فهم فعالون في تقنيات الإدارة المهنية بالتأكيد، وفي الحساب وقانون العمل، بيد أنهم لا يستمعون وليس لديهم وقت يكرسونه للصعوبات التي يجدها العاملون في علاقاتهم البينية. ففي المؤسسة يطلب من الجميع أن يحصلوا على أفضل النتائج بما فيهم مديرو الموارد البشرية. والكثير من هؤلاء يستطيعون أن يبلغوا نتيجة يمكن حسابها بالأرقام، أما ما يتعلق بالسماع والمرافقة و «العلاقات البشرية» بالمعنى الصحيح للكلمة، فهذا ما لا يمكن حسابه بالأرقام ونادراً ما يجد مكاناً له في برامجهم. زد على ذلك أنه يمكن أن يكون هذا الأمر لا يهمهم.

إذا لم يستطع مدير الموارد البشرية أو لم يرد أن يفعل أي شيء يكون الوقت مناسباً للجوء إلى طبيب العمل الذي يستطيع أن يساعد الضحية للوهلة الأولى في التعبير عن مشكلتها ثم عبر معايناته لفريق العمل وعبر زياراته الطبية يمكن أن يتيح للعاملين والمسؤولين أن ينتبهوا للنتائج الخطيرة لهذا العنف النفسي. ولا يمكن أن يكون عمل الوسيط هذا ممكناً إلا إذا كان موضع ثقة في المؤسسة وعلى معرفة جيدة بالأشخاص

المعنيين. وفي معظم الأحيان يطلب عامل مزعزع نفسياً استشارة الطبيب في وقت متأخر جداً فلا يستطيع الطبيب إلا أن يحميه عبر نصحه بأخذ إجازة مرضية. إن موقع طبيب العمل ليس سهلاً إذ يؤخذ رأيه في تقويم الكفاءة، ويمكن لآرائه أن تكون ثقيلة النتائج على العامل. والكثير من العاملين يخشون اللجوء إليه لأنهم يعلمون أنه موظف مثلهم وليسوا واثقين دوماً من استقلالية تفكيره عن المؤسسة التي تتحرش بهم أو تتعامى عمن يتحرش بهم.

المقاومة النفسية

من أجل الدفاع نداً لند يجب أن يكون المرء في وضع نفسي جيد. رأينا أن المرحلة الأولى من مراحل التحرش تقوم على زعزعة الضحية، مما يحتم عليها أن تستشير طبيباً عقلياً أو معالجاً نفسياً كي تستعيد الطاقة اللازمة التي تؤهلها للدفاع عن نفسها. ولتخفيف الإجهاد ونتائجه الوخيمة على الصحة يكون الحل الوحيد هو الإجازة المرضية، لكن الكثير من الضحايا يرفضون ذلك للوهلة الأولى خوفاً من تأجيج الصراع. وإذا كانت الضحية تعاني من الاكتئاب، فإن المساعدة الدوائية المضادة للجزع والاكتئاب تكون ضرورية فعلاً. ويجب ألا تنخرط الضحية في العمل من جديد إلا عندما تكون بحالة تؤهلها للدفاع عن نفسها بصورة كاملة. وهذا ما يمكن أن يقود إلى انقطاع عن العمل طويل نسبياً (عدة شهور أحياناً) قد يتحول إلى «إجازة مرضية طويلة الأجل». فيجد الأطباء العقليون واستشاريو الضمان الاجتماعي أنفسهم أمام مسؤولية حماية الضحايا وتسوية المشكلات المهنية في حين يجب أن تكون الحلول عن طريق القضاء.

ضحية تكاد أن تنفجر. طبيبها يمنحها إجازة مرضية بسبب الاكتئاب، فيوفّق بذلك ما بين المتحرش والمؤسسة. عندما أعلنت الضحية نهاية إجازتها المرضية، نصحتها الإدارة بأن تمدد هذه الإجازة. رفض الطبيب ذلك محتجاً أن المشكلة في ميدان العمل ويجب أن تسوى بين العامل والمؤسسة. استأنفت الضحية عملها وأخذوا يلومونها على أنها لم تعتنِ بنفسها.

ضحية أخرى تعرضت لتحرش رب العمل لعدة شهور أخذت إجازة مرضية بسبب الاكتئاب، بيد أنها كانت تعاود السقوط عند كل محاولة لاستئناف العمل، ثم أصبح رب العمل مهدداً لدرجة أنها تقدمت بشكوى. وكي يتفادى رب العمل حكماً من محكمة العمال وافق على تسريح عاملته لكنه راح يطيل الإجراءات. تحسَّن حال الضحية نظراً لاستمرار إجازتها المرضية، هل يجب أن تستأنف عملها بانتظار أن يتم التسريح؟ كان قرار الطبيب الاستشاري لا. فقد فضل حماية الضحية عبر تمديد إجازتها المرضية حتى يتم التسريح.

بما أن لعبة المتحرش تقوم على إثارة الآخر ودفعه إلى الخطأ عبر إثارة غضبه أو قلقه يجب على الضحية أن تتعلم كيف تقاوم. وفي وضع معطى من الأسهل الركون إلى الاستسلام بدلاً من المقاومة والمجازفة بالصراع. ومهما كان الشعور الذي يشعر الضحايا به، فإني أنصحهم بالظهور بمظهر اللامبالاة والاحتفاظ بالابتسامة والجواب بروح الفكاهة من دون إضافة السخرية. يجب أن يبقوا غير قابلين للتشويش وألا يدخلوا في اللعبة العدوانية. ولا بد لهم من ترك المعتدي يقول ما يشاء من دون أن يتأثروا بما يقول، مع تسجيل كل عدوان بغية تحضير الدفاع.

وللحد من خطر الخطأ المهني على الضحية أن يبقى غير قابل للوم. وفي الواقع، وحتى لو لم يكن المتحرش هو الرئيس الأعلى، فإن الضحية يكون تحت الضوء، إذ يراقبونه كي يفهموا ما يحصل، فيؤخذ أدنى تأخير أو أقل خطأ دليلاً على مسؤوليته عن السياق الحاصل.

ومن المستحسن أيضاً أن يتعلم الحذر، فيقفل أدراج مكتبه بالمفتاح ويجلب معه مفكرته المهنية أو ملفاً مهماً يعمل عليه، حتى في ساعة الغداء. وبالطبع ينفر الضحايا من ذلك، ولا يتم هذا في الغالب إلا عندما يكون الموقف ميؤوساً منه وعندما تعد الضحية ملفاً تقدمه إلى محكمة العمل.

ومن أجل إيجاد نوع من استقلالية التفكير والروح النقدية، ينبغي على الضحايا أن يطبقوا شبكة اتصال جديدة، كمصفاة منظمة، تتيح لهم ضبط الواقع بالحس السليم. وهكذا يجب أخذ الرسائل بالمعنى الحرفي، وتحديده عند اللزوم، ورفض سماع التضمين.

يفترض هذا من الضحية المتحرش بها أن تكون قادرة على المحافظة على برودة أعصابها. يجب أن تتعلم ألا ترد على إثارة المعتدي عليها. إن عدم القيام بالرد أمر صعب على من اختير إذا كان نزقاً. ينبغي على الضحية أن تخرج من تركيبتها الاعتيادية وأن تتعلم كيف تهدأ بانتظار الوقت المناسب. ومن المهم أن تحافظ في قرارة نفسها على اعتقادها بأنها على حق وبأنها سوف تنجح في إسماع صوتها مهما طال الزمن.

التصرف

خلافاً لما نصحت به في المجال الأسري حيث كان الجوهري يتمثل في الخروج من التسلط والكف عن تبرير الذات، يتوجب في المجال المهني أن تكون الضحية دقيقة جداً كي تجابه الاتصال الفاسد. يجب استباق الاعتداءات بالتأكد من عدم وجود أي لبس في التعليمات والأوامر، عبر نزع الغموض وتوضيح النقاط المريبة. وإذا ظل العامل متشككاً، فعليه أن يطلب مقابلة المسؤول لكي يحصل على التفسير. وفي حال تم رفض المقابلة يجب ألا يتردد في طلب هذه المقابلة خطياً عبر رسالة مسجلة. إن مثل تلك الرسائل قد تستخدم دليلاً على نقص الحوار في حالة النزاع. ينبغي على الضحية أن تصبح حذرة لدرجة غير طبيعية وألا تبالي إذا تم نعتها بأنها ذهانية، فهذا أفضل من أن ترتكب الأخطاء. ومن المستحسن أن تبعث الضحية القلق لدى المعتدي عليها، بعملية عكسية، عبر جعله يدرك أنها لن تستسلم من الآن فصاعداً.

إن الضحية لا تتوجه إلى النقابات أو ممثلي العمال إلا عندما تتأكد من عدم وجود أي حل مطروح وعندما تخشى من التسريح أو تفكر في تقديم استقالتها. بيد أننا يجب أن نعلم أنه عندما يتم إطلاع النقابات على موقف تحرش ما يصبح الصراع مفتوحاً. فيقوم تدخلها حينئذ على التفاوض حول التسريح، ذلك أن من الصعب بلوغ وساطة في هذا المستوى لأن دور ممثلي العمال دور مطلبي أكثر مما هو دور إصغاء ووساطة.

ويتيح القانون للمدعي أن يذهب إلى المقابلة التي تمهد للتسريح مصحوباً بشخص يختاره. ويمكن أن يكون هذا الشخص مندوباً نقابياً أو مستشاراً عمالياً. إن

مستشاري العمال نقابيون من خارج المؤسسة توجد قائمة بأسمائهم في البلديات وأقسام الشرطة، وهم يتكفلون بالدفاع عن العمال في المؤسسات الصغيرة مجاناً. في قضية التحرش من المهم أن يكون المرافق شخصاً موثوقاً فيه تماماً وأن يكون هناك اعتقاد مسبق بأنه غير قابل للتلاعب.

قد يكون في الاستقالة تقديم نصر سهل جداً للمعتدي. فإذا قررت الضحية الرحيل ووجدت فيه حماية لها في هذه المرحلة، فينبغي عليها أن تناضل لأن يتم رحيلها في شروط صحيحة.

إذا لم يكن هناك من باعث حقيقي للتسريح بسبب خطأ مهني، يمكن لرب العمل أن يقوم بالتسريح بسبب تنافر الطباع. وقلما يستخدم هذا السبب لأنه يجب أن يكون مستنداً لوقائع محددة تحت طائلة الرفض من محكمة العمال، ولاسيما إذا كان العامل موجوداً منذ مدة طويلة في المؤسسة. ولكن هذا السبب يمكن أن يستخدم عندما ينجح رب العمل في تأليب المؤسسة بكاملها ضد الشخص المحدد بحيث يشكو منه جميع الناس.

إذا لم يقم رب العمل بالكف عن التحرش، فليس من المحتمل أن يعرض تسوية بالتراضي، إن على العامل أن يقوم به بمساعدة المحامي أو النقابة.

اللجوء إلى العدالة

في التحرش الأخلاقي

لا وجود لأي قانون في الترسانة الحقوقية يجرم التحرش الأخلاقي. فمن الصعب جداً إذن أن تقاضي رب العمل جزائياً في (محكمة الجنح). وعلى كل حال فإن هذا الإجراء طويل ومتعب دوماً.

ومع ذلك فإن قراراً تبنته هيئة الأمم المتحدة في جمعيتها العامة، في ملحق إعلان مبادئ العدالة الأساسية المتعلقة بضحايا جرائم السلطة وتعسفها، يعرف ضحايا التعسف السلطوي كما يلي: «يقصد بالضحايا الأشخاص الذين تعرضوا للأذى فرادى

أو مجتمعين، ولاسيما إصابتهم في سلامتهم الجسدية أو العقلية ومعاناتهم المعنوية وخسارتهم المادية أو إصابة خطيرة في حقوقهم الأساسية بسبب أفعال أو إهمال لا تشكل إلى الآن انتهاكا للتشريع الجزائي الوطني لكنها تمثل انتهاكات للمعايير المعترف بها دولياً بخصوص حقوق الإنسان».

وفي فرنسا ليس هنالك أيّ حماية لضحايا التحرش الأخلاقي في قانون العمل. إنما نجد فقط عبارة مبهمة هي «سوء السلوك»، وذلك في شرح مواد القانون المتعلقة بسلطة رب العمل التنظيمية: «في الأصل، إن نوع السلوك المراد هنا المتعلق بحياة العامل الخاصة لا يعد مبرراً قانونياً لقرار التسريح. لكنه يؤخذ بالحسبان عندما تصبح الأفعال المذمومة قابلة لأن تخلق بلبلة في المؤسسة. إن موقفاً فاحشاً متكرراً لعامل إزاء زميلاته النساء يمكن أن يبرر تسريحاً تحت بند ارتكاب خطأ كبير».

إن التحرش الأخلاقي في المؤسسة يعد جريمة في السويد منذ ١٩٩٣. وقد تم الاعتراف به أيضاً في ألمانيا والولايات المتحدة وإيطاليا وأستراليا. في سويسرا، وفي إطار المؤسسة الخاصة، تم تطبيق قانون العمل الفدرالي بخصوص إجراءات حماية وسلامة الصحة وتطبيق المادة ٣٢٨ من قانون الالتزامات الخاصة بحماية شخص العامل أو العاملة «على رب العمل أن يتخذ جميع الإجراءات الضرورية بغية تأمين وتحسين الحماية الصحية، وأن يكفل صحة العاملين الجسدية والنفسية. [...] والنضال ضد التحرش يجب أن يكون جزءاً من هذه الإجراءات لأن التحرش يعرض للخطر السلامة الجسدية والنفسية للشخص المتحرش به».

ومع ذلك عندما يكون المعتدي هو رب عمل يستخدم بصورة منتظمة أساليب فاسدة لإرهاب عنصر من عناصره، لا بد من توقيفه باللجوء إلى القانون وعلى الأخص إذا كان هناك عنف جسدي أو جنسي. فهؤلاء المعتدون الذين لا يجرؤون على مهاجمة العامل بصورة مباشرة لا يجرؤون على مواجهة العدالة أيضاً. ففي هذه الحالة يخافون ويفاوضون على التسريح. وفي حقيقة الأمر أن الفاسدين يرتابون من الدعاوى القضائية التي قد تشهر سوء سلوكهم على الملأ. إنهم يسعون في البدء إلى إسكات ضحاياهم عبر إخجالهم، وعندما لا يكون ذلك كافياً، يفضلون التفاوض فيجعلون من أنفسهم حينئذ ضحايا لعامل محتال.

يمتلك الفساد الأخلاقي سلطة مؤذية لدرجة يصعب معها كبح جماحها. فإذا لم يجد الأفراد أولاً ثم المؤسسات ثانياً حلولاً من أجل وضع الحدود في التحضر واحترام الآخر، ففي يوم من الأيام لا بد من سن قوانين تتعلق بالتحرش الأخلاقي في المؤسسة مثلما توجَّب سنُّها بخصوص التحرش الجنسي.

وليس هنالك حالياً، على حد علمي، من رابطة تختص في مساعدة ضحايا التحرش يمكن لها أن تنصحهم في إجراءاتهم. هناك رابطة واحدة فقط هي «الرابطة الأوربية لمناهضة العنف الممارس ضد النساء في ميدان العمل[1]» (AVFT) تدعم دون تمييز بين الجنسين الأشخاص ضحايا التمييز والعنف الجنسي أو الذي يتم على أساس الجنس في مكان العمل.

في التحرش الجنسي

منذ ١٩٩٢ اعتبر قانون العمل التحرش الجنسي جنحة وجريمة جزائية. ويمنع القانون المذكور معاقبة العامل أو تسريحه لأنه تعرَّض لمضايقات تدل على التحرش الجنسي أو رفضها.

والمادة ٢١ من قانون العمل المتعلقة بالتحرش الجنسي لا تنظر إلا في التحرش المصحوب بالتعسف السلطوي: «لا يمكن أن يعاقب الأجير أو يسرح لأنه تعرض أو رفض أن يتعرض لمضايقات تدل على التحرش الجنسي سواء أكان ذلك من رب العمل أو ممثله أو أي شخص يستغل السلطة التي تمنحها له وظيفته فيصدر أوامر أو تهديدات أو يفرض إكراهاً أو يمارس ضغطاً مهماً كانت طبيعته على هذا الأجير بهدف الحصول على محاباة ذات طبيعة جنسية لصالحه أو لصالح الآخرين».

نرى أن المشرِّع لا يمنع إلا شكلاً من أشكال التحرش الجنسي (هو الابتزاز)، في هذه الحالة يكون هذا الشكل مداناً بحد ذاته ولا يتعلق برابطة التسلسل الوظيفي أو بتهديدات التسريح.

إن الشروع في الدعوى يمثل في فرنسا مسيرة طويلة بالنسبة للمدعي، لأن الضحايا يصادفون مقاومات أو عقبات عديدة. ذلك أن التحرش، وحتى الجنسي، وحتى

١ـ AVFT ص.ب ١٠٨، ٧٥٥٦١ ، باريس ١٢، هاتف ٠١٤٥٨٤٢٤٢٤

مع وجود الأدلة، لا يؤخذ بالاهتمام الكافي. وكما هو الأمر في الاعتداءات الجنسية، ومنذ وقت ليس بالقصير، تكون العقبات بدءاً من رفض الشرطة أو الدرك لتسجيل الشكوى (إذ إنهم لم يعتادوا على ذلك) إلى ازدرائها من القضاة. وفي الغالب يتم تصنيف هذه الملفات «من دون إجراء الدعوى».

لقد أخذت مسألة التحرش الجنسي مكانها على المستوى الدولي. ففي اليابان تضاعفت الشكاوى من التحرش الجنسي بقدر ما يقوم العرف في هذا البلد على دعوة الزبائن المهمين حتى من قبل النساء الموظفات إلى البارات والمطاعم الفاخرة أو حتى إلى بارات no pan clubs (وهي بارات لا ترتدي فيها النادلات أي شيء تحت تنانيرهن القصيرة). والقانون الجديد حول تساوي الجنسين في مكان العمل الذي بدأ تطبيقه في نيسان ١٩٩٩ ينص على تدابير ضد هذه الممارسات. وبدلاً من أن نسخر من إفراط الأمريكيين في دعاوى التحرش الجنسي، من الأفضل لنا أن نطبق سياسة وقائية عبر فرض احترام الفرد في مكان العمل.

تنظيم الوقاية

يسود التحرش عندما يستحيل الحوار فلا تسمع كلمة من اعتدي عليه. أن نقوم بالوقاية فهذا يعني أن نعيد إدراج الحوار والاتصال الصحيح. وبهذا المعنى يكون لطبيب العمل دور جوهري. فهو يستطيع مع السلطات الإدارية أن يبادر لتفكير جماعي من أجل إيجاد الحلول. وهناك لجان للصحة والضمان وشروط العمل في المؤسسات التي يزيد عدد العاملين فيها عن خمسين. هنا يمكن لمراقبة العمل والإدارة وممثلي العمال ولطبيب العمل أن يتدخلوا معاً. ولسوء الحظ فإن هذه السلطات الاستشارية تستدعى بصورة خاصة لدى المخاطر الجسدية أو في سبيل احترام ضوابط العمل.

وتأتي الوقاية لاحقاً من خلال تربية المسؤولين عبر استرعاء انتباههم للاهتمام بالشخصية الإنسانية بقدر اهتمامهم بالمردود الإنتاجي. وفي إعدادات خاصة يقوم بها أطباء نفسانيون أو عقليون متخصصون بعلم الضحية، يمكن أن نعلّمهم التواصل أي أن نشركهم في الاتصال كي يحسنوا التدخل قبل استتباب سياق التحرش، عبر تحديد

العنصر الموجود في الآخر، والذي يثير المعتدي، وعبر جعل المعتدي «يصغي» إلى شعور ضحيته. وعندما يستتب ذلك السياق يكون الوقت متأخراً جداً. إن المسؤولين النقابيين يتقنون بصورة ممتازة التدخل من أجل التفاوض على التعويضات عند التسريح، ولكنهم لا يكونون مرتاحين لفهم العلاقات الفردية. فلماذا لا يتم إعدادهم وتزويدهم بالأدوات الخاصة بالعلاقات كما بدأنا بالعمل بخصوص مديري الموارد البشرية، وذلك من أجل أن يستطيعوا التدخل في أيّ لحظة عند تعطل عمل المؤسسة وليس لدى التسريح فقط.

وقد يكون من المرغوب فيه إدراج نصوص تتعلق بالحماية من التحرش الأخلاقي في الأنظمة الداخلية والاتفاقات الجماعية وأن يتم تبني معايير قضائية دقيقة في قانون العمل الفرنسي.

والوقاية تمر قبل كل شيء في الأفعال الإعلامية التي تتم للضحايا والعاملين والمؤسسات. يجب الإعلام بأن هذا السياق موجود، وأنه شائع، وأن من الممكن تفاديه. وبهذا الشأن هناك دور لا يستهان به لوسائل الإعلام في التحذير عبر بث هذه المعلومات.

إن الإنسانيّ فقط هو الذي يستطيع أن ينظم المواقف الإنسانية. إن هذه المواقف الفاسدة لا يمكن أن تنمو إلا حين يتم تشجيعها أو التساهل معها. إن على أرباب العمل ورؤساء المؤسسات أن يفرضوا الاحترام في هيئاتهم.

العلاج النفسي

كيفية الشفاء

رأينا أن العنف الفاسد يستتب بطريقة ماكرة بحيث يصعب الاستدلال عليه وبالتالي تصعب مكافحته. من النادر أن تصل الضحية لذلك بمفردها. فغالباً ما تكون المساعدة العلاجية ضرورية أمام ما يبدو بوضوح أنه عدوان. فنحن نستطيع أن نقول إن هناك عدواناً نفسياً عندما يصيب سلوك فرد فرداً آخر في كرامته. كان خطأ الضحايا في أنهم لم يستدلوا عليه في الوقت الذي كانت فيه حدودهم مفتوحة وفي أنهم لم يعرفوا أن يجعلوا الآخر يحترمهم. وفيما وراء ذلك فقد امتصوا الهجمات كما لو كانوا إسفنجاً. سيتوجب عليهم إذا أن يعرفوا ما هو مقبول بالنسبة لهم وأن يعرفوا أنفسهم من خلاله.

اختيار المعالج النفسي

إن اختيار المعالج النفسي هو أول فعل إيجابي تفعله الضحية. ولكي تكون واثقة من أنها لن تعاود السقوط في منظومة يشوشها التلاعب، فمن الأفضل لها أن تتأكد من بعض الضمانات الخاصة بإعداده العلمي. وفي حال الشك، من المستحسن اختيار طبيب عقلي أو نفسي، إذ يوجد الآن جميع أنواع المعالجات الجديدة التي قد تغري عندما تطرح شفاء سريعاً، لكنها في آليتها قريبة جداً من البدع. وعلى كل حال، إن أيّ طريقة علاجية جادة لا يمكنها أن تتجاهل إعادة المريض لنفسه. والأبسط بالنسبة للضحية أن تطلب عنواناً من شخص تثق فيه أو من طبيبها العام. ويجب عدم التردد في

مراجعة عدة معالجين بغية اختيار واحد تشعر الضحية بالثقة فيه. ذلك أن المريض يحكم انطلاقاً من إحساسه على إمكانية هذا المعالج على مساعدته.

وإزاء هؤلاء المرضى المجروحين في نرجسيتهم، يصبح الحياد الحذر الذي يأخذ شكلاً بارداً عند بعض المحللين النفسيين غير مقبول البتة. فالمحلل النفسي «فرنتشي» الذي كان لوقت ما تلميذ «فرويد» وصديقه قد انفصل عنه بخصوص الصدمة النفسية والتقنية التحليلية. وفي عام ١٩٣٢ ذكر أن «الموقف التحليلي، هذا التحفظ البارد، والرياء المهني وعدم التعاطف مع المريض، هذه الأشياء المستترة والتي يشعر المريض بها بكل حواسه، لا تختلف من حيث الجوهر عن حال الأشياء التي جعلته في السابق مريضاً، أي في طفولته[١]». إن صمت المعالج النفسي يتناغم مع رفض المعتدي للاتصال ويقود إلى جعل الضحية ضحية من جديد.

إن التكفل بضحايا الفساد يجب أن يقودنا إلى أن نعيد نقاش معارفنا وطرقنا العلاجية كي نقف إلى جانب الضحية من دون أن نجعل من أنفسنا كليي القدرة. ينبغي علينا أن نتعلم كيف نفكر خارج أي مرجع وأي يقين وأن نجرؤ على أن نتشكك بالمبادئ «الفرويدية». وفضلاً عن ذلك، فإن الكثيرين ممن يعالجون الضحايا لم يعودوا يتبعوا «فرويد» فيما يتعلق بحقيقة الصدمة: «إن التقنية التحليلية المطبقة على الضحايا يجب أن يعاد تعريفها إذن على أنها أخذ بالحسبان لواقع النفس وواقع الحدث. فالأولوية المعطاة للنزاع الداخلي على حساب الواقع الموضوعي يفسر الحيز الضيق الذي يكرسه المحللون للبحث حول الصدمة الواقعية ونتائجها النفسية[٢]».

ينبغي على المعالجين النفسيين أن يبرهنوا على مرونتهم وأن يبتكروا طريقة جديدة في العمل أكثر فاعلية وأكثر احتراساً وتحفيزاً. طالما أن الشخص لا يتخلص من التسلط، فهذا يعني أن هذا العلاج ليس العلاج التحليلي النموذجي الذي يمكن أن يساعده بكل ما يفرضه من كبت. فهو لا يفعل سوى أن يجعل الضحية تقع تحت تسلط جديد.

١- فرنتشي، ضبابية اللغة بين الأطفال والبالغين، منشورات بايو، باريس ١٩٨٥.

٢- دامياني، الضحايا، منشورات بايار، باريس ١٩٩٧.

تسمية الفساد

من المهم أن يعترف المعالج النفسي بأن الصدمة الناجمة عن عدوان خارجي كان لها ما سبقها. إذ يجد المرضى في الغالب صعوبة في استذكار العلاقة الماضية لأنهم يسعون للهروب إلى النسيان من جهة، ولأن ما يمكن أن يقولوه لا يزال بالنسبة إليهم غير معقول من جهة أخرى. فهم يحتاجون إلى الوقت ومساندة المعالج النفسي كي يصلوا إلى صياغته تدريجياً. قد يشكل شك المعالج عنفاً إضافياً، وقد يضعه صمته في موقع المتواطئ مع المعتدي. ويذكر بعض المرضى الذين عاشوا موقف تحرش إنهم عندما حاولوا أن يتكلموا عنه إلى معالجهم النفسي لم يرد أن يصغي وأعلمهم أنه يهتم بالمظاهر النفسية الداخلية أكثر مما يهتم بالعنف المعاش فعلاً.

إن تسمية الفساد لا يقود الشخص إلى اجترار الأقوال بل يتيح له على العكس من ذلك أن يخرج من الصمت والشعور بالذنب. إن رفع ثقل الكلمات وثقل ما لا يقال يعني الوصول إلى الحرية. ومن أجل ذلك ينبغي على المعالج أن يسمح للضحية بأن تعاود الثقة بمصادرها الداخلية. ومهما تكن مراجعه النظرية، ينبغي عليه أن يشعر أنه متحرر منها لدرجة كافية في ممارسته كي يبث هذه الحرية في مريضه ويساعده على الخروج من التسلط.

من المستحيل معالجة ضحية فاسد (أخلاقي أو جنسي) دون مراعاة السياق. يجب على المعالج في أول الأمر مساعدة مريضه على كشف الاستراتيجيات الفاسدة، متفادياً إضفاء المعنى العصابي عليها، ثم تسميتها والسماح له بالاستدلال على ما تأتى منه ومن قابليته للخدش وما نجم عن العدوان الخارجي. ويجب أن يضيف إدراك صيغة وشكل التسلط على إدراك فساد العلاقة، فعبر تزويد المعالج للضحية بوسائل الاستدلال على الاستراتيجيات الفاسدة، يتيح لها ألا تستسلم للإغواء وألا ترق للفاسد الذي يحاول استدرار عطفها.

ويجب الطلب من المريض أيضاً أن يعبر عن الغضب الذي لم يستطع إدراكه من واقع التسلط، والسماح له أن يفصح وأن يشعر بالانفعالات التي كانت حتى ذلك الحين تخضع لمراقبته الذاتية، وإذا لم يجد المريض كلمات ينطق بها فينبغي مساعدته على صياغتها.

الخروج منه

عندما نبدأ علاجاً نفسياً في سياق التحرش ينبغي أولاً ألا نسعى لمعرفة سبب وجود الضحية في هذا الموقف، بل لمعرفة كيفية الخروج منه فوراً.

إن العلاج النفسي، في مرحلته الأولى على الأقل، يجب أن يكون مشجعاً وأن يسمح للضحية بالخروج من الخوف والشعور بالذنب. ينبغي أن يشعر المريض بوضوح أننا هنا من أجله وأن معاناته تهمنا. فعبر تعزيز الحالة النفسية لدى الضحية، وعبر تقوية الأجزاء النفسية السليمة، نسمح لها بأن تثق بنفسها بما يكفي لكي تتجرأ على أن ترفض ما تشعر به بأنه نحس عليها. إن هذا الإدراك لا يمكن أن يتم إلا في أعقاب نضج كاف لمواجهة المعتدي ولقول لا له.

عندما تتم تسمية الفساد، يتوجب على الضحية أن تعاود التفكير في أحداث الماضي تبعاً لما تعلمته عن العدوان الذي وقع عليها. إن شبكة قراءتها كانت مغلوطة. كانت قد سجلت مجموعة من المعطيات لم يكن لها معنى وقت حصولها لأنها كانت مفككة، بيد أنها أصبحت واضحة في منطق الفاسد. ينبغي عليها أن تتساءل بشجاعة عن معنى تلك الكلمة أو ذلك الموقف. وعلى الأغلب فقد شعر الضحايا بأن ما سمحوا له بأن يقال أو يجري لهم كان سيئاً عليهم، لكنهم خضعوا له لأنهم لم يتصوروا أيّ معايير أخرى غير معايير أخلاقهم الخاصة.

التخلص من الشعور بالذنب

يجب على العلاج ألا يأتي بأي حال من الأحوال ليعزز الشعور بالذنب لدى الضحية بجعلها مسؤولة عن وضعها كضحية. فهي ليست مسؤولة عن هذا الوضع مع أنها تضطلع به. وطالما أنها لا تخرج من التسلط، يظل يجتاحها الشك والشعور بالذنب: «ما هي مسؤوليتي عن هذا العدوان»؟ ويمنعها هذا الشعور بالذنب من أن تتقدم، وبصورة خاصة إذا ما سدد المعتدي على مرض ضحيته العقلي كما يحصل غالبا: «أنت مجنون/مجنونة»! يجب على الضحية ألا تتعالج من أجله ومن أجل ما يقول بل من أجلها هي.

يوجز المعالج النفسي الأمريكي «سبيجل» التغير الذي يجب أن يحصل على أشكال العلاج التقليدي كي تتوافق مع الضحايا على هذا النحو: «في العلاج التقليدي

نشجع المريض على أن يضطلع بمسؤولية أكبر في مواجهة مشكلات الحياة، في حين يجب مساعدة الضحية على أن تضطلع بأدنى مسؤولية بخصوص الصدمة[1]». إن الخروج من الشعور بالذنب يسمح بمعاودة الشعور بالمعاناة، وليس إلا لاحقاً، حالما تبعد المعاناة وتتم تجربة الشفاء، حيث يمكن عودة الضحية لقصتها الشخصية وتحاول أن تفهم لماذا دخلت في هذا النوع من العلاقة المدمرة، ولماذا لم تعرف أن تدافع عن نفسها. يجب أن تكون الضحية موجودة حقاً كي تستطيع الإجابة على مثل هذه الأسئلة.

إن العلاج النفسي الذي يتركز على النفس الداخلية فقط لا يمكن إلا أن يقود الضحية لأن تجتر الكلام وتتلذذ في قاموس الاكتئاب والشعور بالذنب عبر جعلها مسؤولة أكثر عن عملية تفترض وجود طرفين اثنين. وقد يتأتى الخطر من البحث حصراً في تاريخها عن الصدمة الماضية التي قد تعطي تفسيراً تخطيطياً وتسويغياً لمعاناتها الحالية، وهذا ما يجعلنا نقول إنها المسؤولة عن تعاستها الخاصة. ومع ذلك فإن بعض المحللين النفسيين لا يرفضون أن يطلقوا أدنى حكم أخلاقي حول سلوك الفاسدين أو انتقالهم للفعل فحسب، ولو كان أولئك الفاسدون الذين يأتون إلى مكاتبهم كارثيين على الآخرين بشكل ظاهر، بل ينكرون أيضاً أهمية الصدمة بالنسبة للضحية أو يسخرون من طريقتها في اجترار الكلام. ومؤخراً أظهر محللون نفسيون في جدلهم عن الصدمة وعقابيلها الموضوعية كيف يمكنهم أن يذلوا الضحية تحت غطاء معارفهم النظرية، وبالتالي يجعلونها مسؤولة عن كونها ضحية. وهم يرجعون إلى المازوخية أي إلى البحث الإيجابي عن الإخفاق والألم، إنهم يشيرون إلى عدم مسؤولية الضحية بمقابل من يقتلها، مثلما يشيرون إلى متعتها في أن ترى نفسها ضحية. وهؤلاء المحللون أنفسهم يشككون في براءتها محتجين بأن لديها راحة ما في كونها ضحية.

وحتى لو كانت بعض النقاط مقبولة إلا أن المحاكمة العقلية سيئة كما هي محاكمة الفاسد لأنها تفتقر إلى احترام الضحية دوماً. ليس هناك أي شك في أن التحرش الأخلاقي يشكل صدمة تقود إلى معاناة. وكما هو الأمر في معالجة أيّ صدمة، هناك خطر التركيز على نقطة محددة مؤلمة تمنع الضحية من الإنعتاق منها.

١- سبيجل، الانفصام والتنويم المغناطيسي في اضطرابات إجهاد ما بعد الصدمة.

يصبح الصراع حينئذ موضوع تفكيرها الوحيد ويسيطر على عقلها - وبصورة خاصة إذا لم تستطع أن تسمع صوتها للآخرين، وإذا كانت وحيدة. إن تفسير تناذر اجترار الكلام بمعاني المتعة قد يكرر الصدمة كما رأينا ذلك في الغالب. يجب تضميد الجراح أولاً، ولا يمكن أن تأتي عملية الإعداد إلا لاحقاً عندما يصبح المريض بوضع يؤهله لإعادة توظيف أساليب تفكيره.

كيف يمكن للشخص المهان أن يثق بهؤلاء المحللين الذين يتحدثون بترفع نظري جميل، ولكن من دون أي تعاطف أو أي رفق بالضحية؟

الخروج من المعاناة

إن الصعوبة التي نصادفها عند الأشخاص الذين تعرضوا للتأثير منذ الطفولة والذين عانوا من عنف خفي تكمن في أنهم لا يعرفون أن يغيروا تصرفاتهم، وبالتالي يقدمون انطباعاً بأنهم يتشبثون بمعاناتهم. وهذا ما فسره المحللون في الغالب على أنه مازوخية. «يتم كل شيء كما لو أن صندوقاً من المعاناة والحرمان قد كشفه المحلل، وأن المريض يتشبث به كما لو كان كنزه الثمين وكأنه سيتوجب عليه أن يكف عن هويته ما إن يدار الظهر له[1]». إن الارتباط مع المعاناة يتوافق مع ارتباطات منسوجة مع أشخاص آخرين في المعاناة والقصاص. وإذا كانت هذه الارتباطات هي التي شكلتنا ككائنات بشرية، فيبدو لنا مستحيلاً أن نتخلى عنها من دون أن ننفصل عن هؤلاء الأشخاص. فنحن لا نحب المعاناة لذاتها إذن مما قد يدل على المازوخية، بل نحب كل السياق الذي تعلمنا فيه سلوكياتنا الأولى.

إن من الخطير أن نريد جعل المريض يسترجع ديناميكيته النفسية بسرعة، حتى لو عرفنا أنه إذا ما كان تحت موقف التسلط، فهو بذلك يستعيد شيئاً من طفولته. ذلك أن الفاسد بحدسه الكبير قد ثبّته بهذه النقائص الطفلية. يمكننا فقط أن نقود المريض لأن يأخذ بالحسبان الروابط الموجودة بين الموقف الراهن والجراح السابقة. وهذا لا يمكن أن يتم إلا عندما نتأكد من كونه قد خرج من التسلط، ومن كونه صلباً بما يكفي لكي يضطلع بحصته من المسؤولية من دون أن يقع في شعور مرضي بالذنب.

١- روسانج، كيف تحمل ذهانيا على الضحك

إن الذكريات اللاإرادية والداهمة تشكل نوعاً من تكرار الصدمة. ولتفادي الجزء المرتبط بذكريات العنف المعاش، سيحاول الضحايا أن يتحكموا بانفعالاتهم. وكي يستأنفوا العيش، ينبغي عليهم أن يقبلوا جزعهم وأن يعلموا أنه لن يزول فوراً. وفي الواقع إنهم بحاجة لأن يرخوا العنان لعجزهم ويقبلوا به عبر فعل حداد حقيقي. يمكنهم حينئذ أن يقبلوا شعورهم وأن يعرفوا معاناتهم كجزء منهم جدير بالتقدير وأن ينظروا لجرحهم وجهاً لوجه. إن هذا القبول هو فقط ما يتيح لهم أن يكفوا عن الأنين وأن يخففوا عن أنفسهم حالتهم المرضية.

إذا وثقت الضحية يمكنها أن تستذكر العنف الذي تعرضت له وردود أفعالها، وأن تعيد فحص الموقف وترى الناحية التي أصابها العدوان بها، وما هي الأسلحة التي قدمتها للمعتدي عليها. فلا تعود بحاجة لأن تهرب من ذكرياتها فتستطيع أن تقبل بها من منظور جديد.

الشفاء

الشفاء هو القدرة على إعادة ربط الأجزاء المبعثرة وتجديد الدوران. ينبغي على العلاج النفسي إذن إن يسمح للضحية بألا تُختزَل في كونها ضحية. فإذا استخدمت قسمها الصلب، فإن القسم المازوخي الذي يبقيها في التسلط يرتخي من تلقاء نفسه. ويرى «بول ريكار»[1] أن عمل الشفاء يبدأ في حقل الذاكرة ويتابع طريقه في حقل النسيان. وبرأيه أن من الممكن أن تعاني الضحية من إفراط التذكر ومن سيطرة ذكرى الإهانات التي عانت منها، أو على العكس من ذلك، أن تعاني من نقص التذكر وبذلك تهرب من ماضيها الخاص.

ينبغي على المريض أن يقر بأن معاناته جزء منه، جزء جدير بالتقدير يتيح له بأن يبني مستقبله. يجب عليه أن يتحلى بشجاعة النظر إلى جرحه وجهاً لوجه. فيستطيع حينذاك أن يكف عن الأنين وعن إخفاء حالته المرضية عن نفسه.

إن تطور الضحايا الذين يتحررون من التسلط يظهر جيداً بأن الأمر لا يتعلق بالمازوخية، لأن هذه التجربة المؤلمة غالباً ما تصبح درساً: يتعلم الضحايا حماية

١- ريكور، أيمكن للعفو أن يشفي؟ مجلة اسبري، آذار- نيسان ١٩٩٥.

استقلاليتهم والتخلص من العنف اللفظي ورفض إصابتهم في تقديرهم لذاتهم. فالشخص ليس مازوخياً «بالكامل»، لكن الفاسد قد أمسك به من نقطة ضعيفة يمكن أن تصبح مازوخية بالاحتمال. عندما يقول محلل نفسي للضحية إنها تتواطأ مع معاناتها، فهو يغض النظر عن المشكلة الناجمة عن العلاقة مع المعتدي. فنحن لسنا نفساً معزولة بل نحن منظومة علاقات.

إن الصدمة المعاشة تفرض تغيراً في البنية الإدراكية وعلاقة مختلفة مع العالم المحيط لدى الشخصية. إنها تترك أثراً لا يمحى ولكنه قابل للبناء عليه. وهكذا تشكل هذه التجربة الحياتية المؤلمة فرصة لإعادة استنفار الذات. تخرج الضحية منها أقوى وأقل سذاجة. ويمكنها أن تقرر بأنها سوف تُحترَم من الآن فصاعداً. فالكائن البشري الذي عومل بضراوة يمكنه أن يغرف من معاينة عجزه قدرات جديدة لمواجهة المستقبل. ويذكر «فرنتشي» أن ضغطاً عالياً قد يوقظ فجأة استعدادات كامنة. هناك حيث أبقى الفاسد على الفراغ يمكن أن يتم إنتاج طاقة ما، مثل «شرّاقة» الهواء: «إن العقل لا يتأتى من المعاناة العادية بل يتأتى فقط من المعاناة الصادمة. فهو يتشكل كظاهرة ثانوية أو محاولة تعويض عن شلل نفسي كامل[1]». حينئذ يأخذ العدوان قيمة اختبار تأهيلي. قد يكون الشفاء في إدراج حدث الصدمة هذا كمرحلة من مكونات الحياة تتيح استكشاف معرفة انفعالية مكبوتة.

أنواع العلاج

إن تعدد أنواع العلاج لا يجعل من السهل اختيار الطريقة العلاجية. وفي فرنسا تتفوق أنواع العلاج التحليلي بصورة واضحة وترمي إلى الظل تقريباً الطرق الأخرى التي قد تكون أكثر توافقاً في إسعاف الضحايا الفوري. وهذا يعود إلى أن المحلل عرف كيف يفرض نظرية متكاملة انتشرت في الثقافة انتشاراً واسعاً وكأنها مرجع شامل.

١- فرنتشي، التحليل النفسي، العدد ٤.

العلاج المعرفي السلوكي

إن هدف أنواع العلاج المعرفي السلوكي يقوم على تخفيف الأعراض والتصرفات المرضية من دون السعي للعمل على الشخصية ولا على تحفيزها.

يتم مستوى التدخل الأول على صعيد الإجهاد. فيتعلم المريض عبر تقنيات الاسترخاء كيف ينقص توتره الجسدي وتشوش نومه وجزعه. وهذا التعلم مفيد جداً في مواقف التحرش ضمن المؤسسة عندما يكون الشخص لا يزال في موقع الدفاع عن نفسه. وهكذا يمكنه أن يخفف من ثقل الإجهاد الجسدي إذ يتعلم مثلاً التحكم من انفجار الغضب عبر الاسترخاء والتحكم في التنفس.

وهناك طريقة سلوكية أخرى تقوم على تقنيات توكيد الذات. ففي حالة ضحايا التلاعب الفاسد، ينطلق المعالجون السلوكيون[1] من مبدأ أن الضحايا أشخاص سلبيون ينقصهم اليقين والثقة بالنفس على عكس الأفراد الواثقين (الإيجابيين) الذين يعبرون عن رفضهم وحاجاتهم بصورة واضحة. يبدو لي هذا تفسيراً سطحياً ومختزلاً جداً يفضي إلى التفكير بأن الضحايا سلبيون «عادة» ويعانون من نقص الثقة بالنفس. رأينا أنهم يعرفون كيف يفرضون أنفسهم لو كانوا في سياق آخر، على الرغم من كونهم في الغالب شخصيات موسوسة ترغب في أن تحسن عملها لدرجة مغالى فيها. ليس مجرد تقنية توكيد الذات إذن هي التي تتيح التخلص من اللعبة المعقدة التي سمحت بالعلاقة مع الفاسد. ومع ذلك يستطيع الضحايا عبر هذه التقنيات أن يتعلموا كشف التلاعب وأن يدركوا استحالة التواصل مع فاسد متلاعب وأن يتشككوا بتصوراتهم عن الاتصال المثالي.

تكون العلاجات السلوكية مقترنة أحياناً بعلاجات معرفية تسمح للمريض أن يتعلم كيف يمنع الأفكار أو الصور المتكررة الناجمة عن الصدمة، أو أن يتعلم تقنيات اكتساب كفاءات على التحكم بالصعوبات الحالية وهذا ما قد يشكل، في حالة ضحايا التلاعبات الفاسدة، تعلم التلاعب المضاد.

إن تغير البنية الإدراكية المعرفية يبدو بالغ الأهمية لمساعدة ضحايا الاعتداءات الفاسدة. وكما رأينا لو لم يكن هؤلاء الضحايا مكتئبين، فإن لديهم بنىً إدراكية

١ـ نزار أغا، المتلاعبون موجودون فيما بيننا، منشورات لوم، افري، ١٩٩٧.

قابلة للاكتئاب تتقّي شخصيتهم عبر معتقداتهم عن النموذج المثالي «إذا اقترفت خطأ فأنا شخص بلا قيمة». والفاسد يمسك بهم من مبادئهم الأساسية: إخلاص للآخرين، تقدير عال للعمل، نزاهة. يستطيع المعالج النفسي أن يساعد المرضى في تجاوز صدماتهم المعاشة عبر التقليل من شعورهم بالمسؤولية عن الصدمة، وفي الاعتراف وتحمل الغم الذي يصاحب تذكر العنف، وفي قبول عجزهم.

التنويم المغناطيسي

استخدم «فرويد» التنويم المغناطيسي والإيحاء في البدء قبل أن يتخلى عنهما لأنهما ظهرا له أنهما يقومان على الإغواء والتسلط المستلب. وقد انبعث التنويم المغناطيسي منذ عدة سنوات وبصورة أساسية في الحركة التابعة لـ «أركسون»، فقد نُعت الأمريكي «ميلتون أركسون» بالمعالج النفسي «الخارج عن المألوف»، حتى لو أنه لم يُنَظِّر تطبيقه قط. فكان يمارس التنويم المغناطيسي مع استراتيجيات أخرى في التغيير تأخذ بالحسبان سياق حياة المريض، وبهذه النقطة كان له تأثير كبير في تطور العلاج الأسري المنظّم.

تعتمد تقنيات التنويم المغناطيسي على قدرات الانفصال التي يتم تطويرها لدى العديد من ضحايا الصدمة. ويفيد «فرانسوا روستانج» أن الشرخ الذي يولده التنويم المغناطيسي هو من نفس النوع الذي تسببه الصدمة: فهو يفصل ما يطاق مما لا يطاق الذي يتوجب نسيانه. وتهدف هذه الطرق إلى مساعدة الضحايا على تطوير مناظير جديدة تقلل المعاناة الناجمة عن الصدمة. والأمر لا يتعلق هنا أيضاً بإدراك الصراع النفسي بل بتقنية تتيح للمريض أن يستنفر مصادره الخاصة. وكلما يكون النوم عميقاً تظهر فرادة الشخص وتجعله يكتشف إمكانات لم يكن يشك بها في السابق.

يبدو اختيار هذه الطريقة لا معقولاً. وفي حقيقة الأمر أننا ملزمون في التنويم المغناطيسي أن نمر عبر التشوش لنخلص المريض من العَرَض، وعليه فإن التشوش كان الوسيلة لاستتباب التسلط الفاسد. ولكن المعالج النفسي يستخدم هذا التشوش ليسمح للمريض بأن يعيد تجديد عالمه بإبطال استراتيجيات الإخفاق نحو التغيير، في حين أن الفاسد كان قد استخدم ذلك التشوش ليفرض إرادته وطرق تفكيره. نرى إذن أن

اختيار المعالج النفسي جوهري هنا أكثر مما هو في الطرق الأخرى. ومن المهم في حقيقة الأمر أن يكون المعالج النفسي حكيماً ولديه خبرة سريرية كبيرة. وعلى المريض ألا يثق بالمعالجين الذين تم إعدادهم بسرعة والذين يكتفون بإظهار ذكريات صادمة من دون الانتباه إلى جملة الشخصية.

أنواع العلاج المنهجي

لا يكمن الهدف الرئيس للعلاجات الأسرية المنهجية في تخفيف الأعراض التي يعاني الفرد منها بل في تحسين الاتصال وتحقيق فرادة مختلف أعضاء الأسرة. وفي العلاج النفسي للحياة الزوجية، الزبون هو الزوجان وليس أحد الشريكين، وفي علاج الأسرة يبدي المعالجون اهتماماً متساوياً بكل واحد من أعضاء الأسرة على أنها موقع مشترك. وعليهم أن يجتهدوا ضد استخدام الملصقات الجاهزة: «الفاسد»، «الضحية»، لكي يستطيعوا تحليل تلك العملية المتفاعلة.

أن يقدم المرء نفسه على أنه اختصاصي في علم الضحية قد يبدو بالنسبة للمنهجيين أنه العودة للتفسير السطحي. ولكن معرفة شخصية كل واحد على أنها سابقة تم البناء عليها لا يستبعد الاهتمام بسياقات التقوية الدورية. يمكن القول مثلا: إن الفرد البالغ الاهتمام بشريكه يثير لديه رغبة في التعلق لا يتحملها، مما يجعله يرد بالرفض والاعتداء على الآخر الذي لا يفهم ما يحصل فيميل إلى أن يشعر بأنه المسؤول وإلى أن يظهر المزيد من الكياسة، مما يقوي رفض شريكه له. ولا معنى لهذا التفسير المنهجي إلا إذا أخذنا بالحسبان كون أحد الشريكين فاسد نرجسي وأن لدى الآخر ميلاً للشعور بالذنب.

إن الفرضيات المنهجية - مفهوم ضبط الأسرة (الحفاظ على التوازن بأي ثمن كان) ومفهوم العلاقة المضاعفة (منع الاتصال من أجل شل سياق التفكير) - تساعدنا على فهم حصول التسلط. ومع ذلك، وعلى الصعيد السريري، فإن التعقل المنهجي الدقيق الذي لا يعترف بمعتدٍ ومعتدىً عليه بل بمجرد علاقة مرضية يجازف بغياب حماية الفرد عن رؤيته.

إن تحليل السياقات الدورية مفيد جداً من أجل نزع فتيل موقف لا يزال يحتفظ بمرونة ما: فهذا يسمح بربط تصرفات عضو من الأسرة بتصرفات عضو آخر، ولكن

عندما يتم الانتقال من مرحلة التسلط إلى مرحلة التحرش يصبح السياق مستقلاً ولا تعود هناك إمكانية لإيقافه بالاعتماد على المنطق أو إرادة التغيير لدى الشريكين.

لتسمية الفساد مفهوم أخلاقي يفضي إلى الرفض، وهذا ما لا يريد كثير من المعالجين النفسيين أن يضطلعوا به. لذلك يفضلون الحديث عن علاقة فاسدة بدلاً من الحديث عن معتدٍ وضحية. وبذلك يترك الشخص المعتدى عليه وحيداً مقابل الشعور بالذنب فلا يستطيع أن يتخلص من التسلط القاتل.

وعلى كل حال من النادر جداً أن يقبل فاسد نرجسي باستشارة معالج متخصص في الأسرة أو الحياة الزوجية، لأن من المستحيل له أن يضع نفسه على بساط البحث فعلاً. أما الذين يقبلون بالاستشارة فهم أفراد يستخدمون دفاعات فاسدة من دون أن يكونوا فاسدين حقيقة. وخلال الاستشارات المفروضة، من قبل أناس يتوسطون مثلاً بناء على طلب قاضٍ، يجنح الفاسدون للتلاعب بالوسيط أيضاً كي يحملوه على رؤية درجة «سوء» الشريك. من المهم إذن أن يكون المعالجون أو الوسطاء على درجة عالية من الاحتراس.

التحليل النفسي

لنقل على الفور إن علاجاً تحليلياً نموذجياً لا يتفق مع ضحية لا تزال تحت تأثير صدمة العنف الفاسد والإهانات. وفي الواقع أن التحليل النفسي يهتم بالنفس الداخلية بصورة رئيسة ولا يأخذ بالحسبان الأمراض الناجمة عن العلاقة مع الآخر. ويكمن هدفه في تحليل صراعات الطفولة الغريزية المكبوتة. وإن مراسمه الراسخة (جلسات منتظمة ومتكررة، مريض مسترخٍ على أريكة ولا يرى المحلل) التي أرادها «فرويد» بغية مراقبة الانتقال يمكن أن تفضي إلى حرمان لا يطاق لدى شخص عانى من رفض متعمد للاتصال، وأن يقوده بالتالي إلى دمج المحلل النفسي بالمعتدي مما يديم حالة التبعية لديه.

يمكن فقط بعد أن تعالج الضحية بشكل كاف أن تبدأ العلاج التحليلي وأن تفهم عبر عمل إعادة التذكير والإعداد ما يعود إلى قصة طفولتها ويمكنه أن يفسر تساهلها مع الآخر وأن تقرَّ تماماً بالعيوب التي سمحت للفاسد أن يتشبث بها.

وفي حين يرمي التحليل النفسي إلى تعديل البنية النفسية الكامنة، تسعى العلاجات الأخرى للوصول إلى تخفيف الأعراض وتقوية الدفاعات مما لا يحول دون تصحيح نفسي عميق. وعلى كل حال فإن المرحلة السابقة للإصلاح ضرورية للضحية التي ينبغي عليها أن تتخلص من القصة المعاشة مؤخراً قبل استحضار جراح طفولتها.

لا يستطيع التحليل النفسي أن يفعل شيئاً لوحده. ولا يستطيع أي علاج يقدم حلاً سحرياً أن يسمح بإعفاء المريض من بذل الجهد في سبيل التغيير. نستطيع أن نقول إن أهمية الإطار النظري قليلة هنا. الجوهري هنا هو ارتباط المريض بالمعالج وطريقته ودقة المعالج النفسي وتوظيفاته. يجب على المحللين النفسيين أن يكفوا عن الانغلاق الشديد ضمن مدرستهم وأن يستطيعوا أن ينفتحوا على مناظير جديدة. وهذا ما بدأ بالظهور إذ راح أطباء سريريون عقليون ونفسانيون شباب ينفتحون أكثر فأكثر على مختلف النظريات النفسية، وبدأ معالجون ذوو ممارسات مختلفة ينتشرون فيما بينهم. لماذا لا نتصور انتقالاً من شكل علاجي لآخر أو دمجاً لممارسات علاجية موجودة أيضاً؟

الخاتمة

عبر هذه الصفحات، رأينا مجرى العمليات الفاسدة في بعض القرائن، ولكن من الواضح أن هذه القائمة ليست شاملة وأن هذه الظواهر تتجاوز الحياة الزوجية والأسرية وعالم العمل لدرجة كبيرة. إذ نجدها أيضاً في كل الجماعات التي يمكن أن يدخل أفرادها في النزاعات، ولاسيما في المدارس والجامعات. لا حدود للخيال البشري عندما يريد أن يقتل لدى الآخر الصورة الرائعة التي يحملها عن نفسه، فيتستر المعتدي على نقاط الضعف الخاصة به، ويضع نفسه في موقع المتفوق على الآخر. والمجتمع كله معني بهذه الظاهرة منذ أن تكون المسألة مسألة سلطة. ففي كل زمن كان هنالك أناس بلا ذمة ولا ضمير، بارعون في الدسائس ومتلاعبون، يعتقدون أن الغاية تبرر الوسيلة، بيد أن الزيادة الحالية في أفعال الفساد في الأسر وفي المؤسسات مؤشر على الفردية المسيطرة في مجتمعنا. والفاسدون ملوك في منظومة تعمل على قانون الأقوى والأدهى. عندما يكون النجاح هو القيمة الرئيسة تبدو النزاهة ضعفاً ويأخذ الفساد سيماء الشطارة.

لقد تراجعت المجتمعات الغربية عن محرماتها الخاصة تحت حجة التسامح. بيد أنها عبر الإفراط في القبول كما يفعل ضحايا الفاسدين النرجسيين تتيح للآليات الفاسدة أن تنمو بداخلها. والعديد من المديرين أو رجال السياسة لا يكترثون بالأخلاق بغية تصفية خصومهم أو في سبيل البقاء في السلطة. والبعض يفيدون من مزاياهم ويستخدمون ضغوطاً نفسية وحجة المصلحة العامة و «الدفاع الخفي» لحماية حياتهم الخاصة. والبعض الآخر يفتنون بفضل الجرائم الشنيعة الناجمة عن الإسراف في المال العام والاحتيال والغش الضريبي. لقد أصبح الفساد عملة دارجة. والحالة هذه يكفي وجود فرد فاسد أو عدة أفراد في مجوعة ما، في مؤسسة أو في حكومة كي تصبح المنظومة كلها فاسدة. وإذا لم يتم فضح الفساد ينتشر بصورة خفية عبر الإخجال

والخوف والتلاعب. وفي حقيقة الأمر أنه من أجل تقييد شخص ما نفسياً، يكفي اقتياده إلى الكذب والشبهات حتى يصبح متواطئاً مع السياق الفاسد. وهذه هي القاعدة ذاتها لعمل المافيات والأنظمة الشمولية. إن الفاسدين النرجسيين سواء أكانوا في الأسر أو المؤسسات أو الدول يتدبرون أمرهم بحيث يحملون الآخرين مسؤولية الكارثة التي أطلقوها كي يقدموا أنفسهم على أنهم المخلّصون مما يتيح لهم تسلم السلطة. ويكفيهم لاحقاً ألا يكترثوا بالضمير كي يحتفظوا بها. وقد أظهر التاريخ لنا الكثير من أولئك الرجال الذين لا يعترفون بأخطائهم، ولا يضطلعون بمسؤولياتهم، ويلجؤون إلى التزوير، ويتلاعبون بالواقع كي يمسحوا آثار إساءاتهم.

وفيما وراء المسألة الفردية للتحرش الأخلاقي، هناك مسائل أعم تفرض علينا. كيف نعزز الاحترام بين الأفراد؟ ما هي الحدود التي يجب أن نضعها لتسامحنا؟ إذا لم يوقف الأفراد بأنفسهم هذه السياقات المدمرة، فيجب على المجتمع أن يتدخل عبر التشريع. وتم مؤخراً طرح مشروع قانون يقترح نصاً على تجريم «التزريك» ويعاقب على كل فعل يحط من أحد أو يذله في الوسط الطلابي والاجتماعي التربوي. وإذا كنا لا نريد أن تنظّم القوانين علاقاتنا بصورة كاملة، فإن من الجوهري أن نقوم بالوقاية إزاء الأطفال.

ببليوغرافيا

AUBERT N. et GAUJELAC V., *Le coût de l'excellence*, Paris, Le Seuil, 1991.

AVFT, BP 108, 75561 Paris cedex 12. Tél. 01 45 84 24 24.

BAUDRILLARD J., *De la séduction*, Paris, Denoël, 1979.

BERGERET J., *La personnalité normale et pathologique*, Bordas, Paris, 1985.

CLASSEN C., KOOPMAN C. et SIEGEL D., *Trauma and dissociation in Bulletin of the Menninger Clinic*, vol. 57, n° 2, 1993.

CROCQ L., « Les victimes psychiques », *in Victimologie*, nov. 1994.

CYRULNIK B., *Sous le signe du lien*, Paris, Hachette, 1989, 1997 pour l'édition de poche.

DAMIANI C., *Les victimes*, Paris, Bayard Éditions, 1997.

DEJOURS C., *Souffrance en France*, Paris, Le Seuil, 1998.

DOREY R., La relation d'emprise, *Nouvelle revue de psychanalyse*, n° 24, Gallimard, 1981.

DUTTON M.-A. et GOODMAN L., « Postraumatic Stress Disorder among battered women : analysis of legal implications », *in Behavioral Sciences and the law*, vol. 12, 215-234, 1994.

EIGUER A., *Le pervers narcissique et [illegible] complice*, Paris, Dunod, 1996.

FERENCZI S., « Confusion de langue [illegible] les adultes et l'enfant (1932) », *in Psychanalyse IV*, Payot pour la traduction française.

FERENCZI S., « Psychanalyse des névroses de guerre (1918) », *in Psychanalyse III*, Payot pour la traduction française.

FERENCZI S., *Psychanalyse IV*, Payot.

FITZGERALD, « Sexual harassment : the definition and measurement of a construct », *in* M. A. Paludi (ed.) : *Ivory power : sexual harassment on campus*, State University of New York Press, Albany.

FREUD S., *Le problème économique du masochisme*, PUF, 1924.

GIRARD R., *La violence et le sacré*, Grasset, Paris, 1972.

HURNI M. et STOLL G., *La haine de l'amour (La perversion du lien)*, Paris, L'Harmattan, 1996.

KAFKA F., *Le procès*, Flammarion, Paris 1983, pour la traduction française.

KERNBERG O., « La personnalité narcissique », *in Borderline conditions and pathological narcissism*, New York, 1975. Privat pour la traduction française.

KHAN M., *L'alliance perverse*, Nouvelle revue de psychanalyse 8, 1973.

LAPLANCHE J. et PONTALIS J.-B., *Vocabulaire de la psychanalyse*, Paris, PUF, 1968.

LEMAIRE J.-H., *Le couple : ■ vie, sa mort*, Payot, Paris, 1979.

LEMPERT B., *Désamour*, Paris, Le Seuil, 1989.

LEMPERT B., *L'enfant ■ le désamour*, Éditions L'arbre au milieu, 1989.

LEYMANN H., *Mobbing*, Le Seuil, 1996 pour la traduction française.

MACKINNEY et MAROULES, 1991, cité par PINARD G.-F. *in Criminalité ■ psychiatrie*, Paris, Ellipses, 1997.

MILGRAM S., *Soumission ■ l'autorité*, Paris, Calman-Lévy, 1974, pour la traduction française.

MILLER A., *C'est pour ton bien*, Paris, Aubier, 1984, traduction de Jeanne Etoré.

MILLER A., *La souffrance muette de l'enfant*, Aubier pour la traduction française, 1988.

MILLER A., *La souffrance muette de l'enfant*, Paris, Aubier, 1990.

NAZARE-AGA I., *Les manipulateurs sont parmi nous*, Les éditions de l'homme, 1997.

OVIDE, *Les métamorphoses*, Paris, Gallimard, traduction de G. LAFAYE.

PERRONE R. et NANNINI M., *Violence et abus sexuels dans la famille*, Paris, ESF, 1995.

RACAMIER P.-C., *L'inceste et l'incestuel*, Paris, Les Éditions du Collège, 1995.

RACAMIER P.-C., *Pensée perverse et décervelage*, Gruppo, 8.

RICŒUR P., *Le pardon peut-il guérir ?*, Esprit, mars-avril 1995.

ROUSTANG F., *Comment faire rire un paranoïaque*, Paris, Éditions Odile Jacob, 1996.

SPIEGEL D., « Dissociation and hypnosis in post-traumatic stress disorders », *in Journal of Traumatic Stress*, 1, 17-33.

SUN TSE, *L'art de la guerre*, Traduit du chinois par le père Amiot, Paris, éd. Didot l'aîné, 1772. Réed. Agora classiques, 1993.

TELLENBACH H., *La mélancolie*, PUF, pour la traduction française, 1961.

الفهرس

مقدمة ٥

الباب الأول: العنف اليومي الفاسد

الفصل الأول: العنف الخاص ١٥

العنف المعنوي الفاسد في الحياة الزوجية ١٥

العنف الفاسد في الأسرة ٣٨

الفصل الثانــي: التحرش في المؤسسة ٥٣

ما المقصود؟ ٥٣

من المستهدف؟ ٥٥

من يعتدي على من؟ ٥٧

كيف يتم منع الضحية من ردة الفعل ٦٢

بداية التحرش ٦٧

المؤسسة التي تتعامى عن الفساد ٧٨

المؤسسة التي تشجع الأساليب الفاسدة ٨٢

الباب الثاني: العلاقة الفاسدة و أبطالها

الفصل الثالث: الإغواء الفاسد ٨٩

الفصل الرابع: الاتصال الفاسد ٩٣

رفض الاتصال المباشر ٩٣

تشويه اللغة ٩٥

الكذب ٩٧

استخدام التهكم والسخرية والازدراء ٩٨

استخدام المفارقات ١٠١
التحقير ١٠٤
فرّق تسد ١٠٥
فرض السلطة ١٠٦
الفصل الخامس: العنف الفاسد ١٠٩
إبداء الكراهية ١٠٩
ظهور العنف ١١١
تضبيق الخناق على الآخر ١١٣
الفصل السادس: المعتدي ١١٥
الفساد النرجسي ١١٥
النرجسية ١١٧
الانتقال إلى الفساد ١١٨
جنون العظمة ١١٩
التطفل ١٢١
اللا مسؤولية ١٢٣
الذهان ١٢٥
الفصل السابع: الضحية ١٢٧
الضحية شيئاً ١٢٧
أهي المازوخية؟ ١٢٩
وساوسها ١٣١
حيويتها ١٣٤
شفافيتها ١٣٤

الباب الثالث: النتائج و العلاج

الفصل الثامن: نتائج مرحلة التسلط ١٤١
التنازل ١٤١
الحيرة ١٤١

الشك ١٤٢
الإجهاد ١٤٤
الخوف ١٤٥
العزلة ١٤٦
الفصل التاسع: النتائج الطويلة الأجل ١٤٧
الصدمة ١٤٧
عدم القدرة على التعويض ١٤٨
الانفصال ١٥٠
التطور ١٥١
الفصل العاشر: نصائح عملية في الحياة الزوجية والأسرية ١٥٥
الاستدلال ١٥٥
التصرف ١٥٧
المقاومة النفسية ١٥٧
اللجوء إلى العدالة ١٥٨
الفصل الحادي عشر: نصائح عملية في المؤسسة ١٦١
الاستدلال ١٦١
إيجاد العون داخل المؤسسة ١٦٢
المقاومة النفسية ١٦٣
التصرف ١٦٥
اللجوء إلى العدالة ١٦٦
تنظيم الوقاية ١٦٩
الفصل الثاني عشر: العلاج النفسي ١٧١
كيفية الشفاء ١٧١
أنواع العلاج ١٧٨
الخاتمة ١٨٥
ببليوغرافيا ١٨٧

من منشورات دار علاء الدين

- أسس التعامل والأخلاق للقرن الحادي والعشرين
  ——— جون باينس
- الإعداد للقرن الواحد والعشرين
  ——— بول كينيدي
- طاقة بيتك
  ——— الكسندر بيريغين، نتاليا بيريغينا
- فن العلاج النفسي
  ——— إيمي يوليس، بيل هينكين
- الطريق إلى القيادة وتنمية الشخصية
  ——— ج. كورنوا
- من أسرار المشاعر الإنسانية
  ——— جهينة الحموي
- التخطيط اللغوي العصبي NLP
  ——— جوزيف أوكانور
- إشكالية الشر
  ——— د. هاني نعمي
- من أسرار العقل
  ——— غدويس و غروست
- الأخلاق وقوانينها في الكون الثنوي
  ——— فلاديمير جيكارنتسف
- البنية الثنوية للكون وقوانينه
  ——— فلاديمير جيكارنتسف
- الحب في ازدواجية الكون
  ——— فلاديمير جيكارنتسف
- الخير والشر
  ——— فلاديمير جيكارنتسف
- أبعاد الحياة ما بين التأمل والتركيز
  ——— فلاديمير جيكارنتسف
- نظرة في أعماق النفس
  ——— فلاديمير جيكارنتسف
- دغدغة في البطن
  ——— فولفغانغ بلوم
- سيكولوجية إدراك اللون والشكل
  ——— قاسم حسين صالح
- الكارما تغيير المستقبل
  ——— ميخائيل ميلر
- من ما وراء الحس الميتافيزيقي إلى العوالم الأخرى
  ——— ن. ف. فيبرينتسوف
- الحقل البيولوجي المعالج
  ——— ي.أ.تريباكوف
- موسوعة الصحة والباراسيكولوجيا
  ——— يوري إيفانوف
- اشف نفسك ذاتياً
  ——— لويزا خي
- القوة العصبية
  ——— بول س. بريغ
- اليوغا من أجل الصحة
  ——— ريتشارد هيتلمان
- عالج نفسك ذاتياً تجارب من الحياة العملية
  ——— د. ناديجدا سيميونوفا
- طاقة الكمال في الصيام الصحي
  ——— بول بريغ
- تشجود شي أصول المعارف الطبية
  ——— م.ف.سميرنوفا
- تلوث البيئة ومرض السرطان الوقاية والعلاج
  ——— د.عبد الهادي حسن
- كيف يهرم الإنسان ولماذا؟
  ——— ليونارد هايفليك
- العلاج الطبيعي في المنزل
  ——— هربرت كراوس
- ممارسة اليوغا
  ——— غدويس وغروست
- صحة أطفالكم
  ——— غدويس وغروس

دار علاء الدين PUBLISHER ALAEDDIN

Le Harcèlement
MORAL

تأتي أهمية هذا الكتاب بكونه نموذجاً لعلم النفس التطبيقي وعلم نفس الضحية، فهو يدرس العنف اليومي الفاسد والتحرش الأخلاقي والتعسف السلطوي والنرجسي والجنسي التي يصعب على القانون أن يطالها، لأنها تدمر بالكلمة أو النظرة أو التضمين أو التلميح أو الصمت.

ويكشف هذا الكتاب أنواع التحرش وأشكاله وأساليبه ويقوم بتحليل لغة الفاسدين وتفكيك السياق الذي يربط المعتدي بالمعتدى عليه، ويقدم الحلول التي تجعلنا نتفادى أن نكون مجرمين أو ضحايا.

ويتضمن الكثير من القصص والحالات التي قام بتسليط الضوء عليها وتحليلها، مما أضفى على الكتاب قدراً كبيراً من المتعة والفائدة.

يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع - سورية - دمشق
ص.ب. ٣٠٥٩٨ - هاتف ٥٦١٧٠٧١ - فاكس ٥٦١٣٢٤١ - بريد إلكتروني ala-addin@mail.sy